مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١ مكتبة الأسرة

ليس الآن

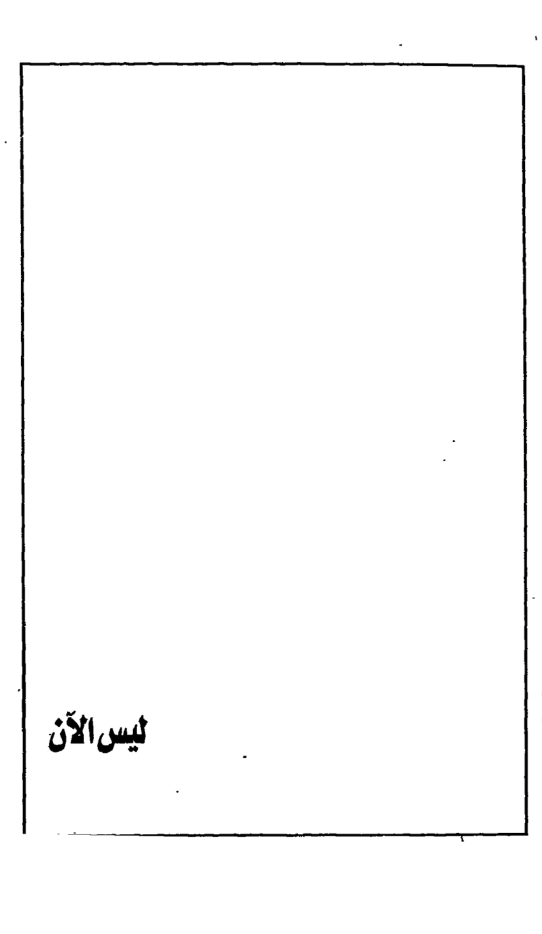
(رواية)

هالة البدرى

الأعمال الإبداعية



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



ليس الآن

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : ليس الآن
التقنية : ألوان جواش وحبر صينى
المقاس : ١٨ × ٢٥ سم

حلمى التونى (١٩٣٤-)

فنان تشكيلى مصرى، ومصمم جرافيكى، تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ١٩٥٨ (قسم فنون الزخرفة والديكور)، له أثر واضح فى فنون إخــــراج الكتب والمطبوعات، وأقام العديد من المعارض الفنية، ويميل أسلوبه إلى الشــاعــرية، مع التـمــاس وفنيــات الرسم الشعبى،.. وقد صمم لمسرح العرائس شخصية (صحصح لما ينجح) التى ألفها صلاح جاهين، كما صمم الكثير من الملصقات للأفلام والمسرحيات. حصل على العديد من الجــوائز المحليــة والعــالميــة فى مــجــال فن الكتــاب والملصقات.

محمود الهندى

ليس الآن

روايــة

هــالة البــدرى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

ليس الآن

رواية

هالة البدرى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

فركت وديدة "أم عبد الله" عينيها ، فاصطدمت بضــوء خــافت تســربه النافذة . صكت أذنيها أصوات استغاثة انفجـــرت متنــاثرة فى سقف الحجرة . ألقى الصحو بجسمه عليها فجأة ، فقامت إلى خشـــب الأرضية ، ثم إلى نعالها راكضة :

ــ يا شيخ طه .. يا حاج عبد القادر .. الحقونـــا .. الغــرق.. الغرق.. الفيضان .

جفل باب الغرفة وهى تعبره إلى السُّباط ،[1] والبناء يئـــن تحــت عنف لا تعرف مصدره . أذهلها الضجيج الذى وصلت إلى قلبه فى ثوان. انغرست عيناها كالنصل المرسل فى المشهد أمامها . فاجأهــا عشــرات الراكضين فى ممرات الدوّار وطرقاته فى الأدوار الثلاثة . سمعــت صــوت تمزُّع شرايين الخشب تحت وطأة ضربات المياه التى تعــوى فى الحــوش . رأت العائلة كلها : عصبها وفروعها ، والناس كالنمل يهرولون بـــدأب ليس أخرس ، وكأن النبات النامى فى الدوار لم يُحصد و لم يُستبدل . عاد

---

1) السُّباط : هو شرفة داخلية تطل على حوش البيت .

الأبناء بالأحفاد فى صحبة الأجداد أيضا ، ولهم رعب العيون الفاغرة فوق الخطر . ارتعشت .. لاكت غبار الدهشة دون أن تفيق وتدرك ما يحدث . ترنحت الشرفات تحت قدميها ، التفتت إلى صوت نعيمة، وهى تسأل رشدى :

ــ هل يحتمل الدرج النزول عليه ؟ أم أنه سينهار تحتنا ؟

ثم رأتها تقفز من فوق الدرابزين ، قبل أن تسمع إجابة رشدى الذى قفز وراءها ، وغاصا فى الماء الذى يعلو بسرعة حتى وصل إلى منتصف المسافة بين الطابقين ، فارت الموجة وابتلعتهما . ركضت وديدة عائدة إلى صالة الشقة الصغيرة ، فتحت المشربية ،لم تجد الشارع، رأت النهر يتلوى ضارباً الحوائط المنيعة بغضب ، ويندفع من الأبواب بقوة. تحول مبنى السلاحليك والجراج إلى جزيرة فى منتصف التيار ، جارفاً أمامه تعريشة العنب، وانقلبت الكرويتات إلى لعب صغيرة طافية على السطح ، ومن فوقها أحفادها الأطفال متشبثون بأحشائها . لم تجد السيارات أو الحيوانات ، بل مراكب الصيادين الفقيرة، وأبناءها عبد الله ومحمود وعاطف وإسماعيل وعبد الحميد يجدفون . أعادت بصرها إلى عبد الحميد الذى استشهد فى ١٩٦٧، وتحققت من وجوده بين الرجال الذين يحملون البنات ، قمر وكوثر ونازلى وبنورة ، والجدات والشيوخ . تعجبت أكثر حين رأت بينهم نعيمة ، رفعت رأسها نحو السماء الشاحبة ، حاولت أن تحدد زمناً فلم تستطع . شقت قوارب ترقُّبها بحر المعرفة ، تاركة خلفها

دوامات عنيفة من القلق ، وطوابير من الذكريات تلهث فى فؤادها ، وفراشات تموت فى الدم ، وأضواء تتر الخوف . رقصت الجدران ، ففرت عائدة إلى السُّباط وهى تصرخ دون صوت .

لماذا تجمعت العائلة ؟ فرح أم عزاء ؟ كيف اجتمع جدنا الحاج على المصيلحى وإسلام آخر أحفادى ؟

سمعت أمها تنوح :

ـــ العمود سينكسر يا وديدة ، العمود ..

انتفض الدرج تحت وطأة تمزُّعات أخشابه . ركضت نحو العمود الذى يرتفع بالشرفات الداخلية وسط الدار ، واحتضنت أمها التى انزرعت أمامها شابَّةً تنضح بالعافية ، متوردة الوجه رغم الاضطراب والخوف . ازداد ارتباك وديدة التى لم تر أمها منذ وفاتها ، أثناء ولادة أخيها جابر . تسربت الأم من بين يديها ، وراحت تهذى وهى تخبط رأسها بيديها ، وتتطوح بلا وعى :

ـــ العمود .. العمود يا وديدة .

خفق قلب الأرض بقوة ، وسرى فى البناء نبض عنيف ينذر بانفجاره . شحذت الماء شفرة غضبها ، واقتربت موجاتها تشق أحرف الدرابزين أمام وديدة . جفلت وهى ترى المواشى ، والخيل خائفة ، تجرفها المياه بسرعة لتلحق بأسراب البط والإوز الهاربة ، والأرانب المذعورة تصرخ ممتطيةً سطح أقفاصها الخشبية العائمة ، والحمام يتخبط فى الجدران حائراً . انفتح باب كبير لم تعرف بوجوده من قبل ، اتجه

الجميع ناحيته متدفقين عكس التيار ، واستمر عـــواء المـــاء ، وتنـــاثرت بلوراته تشق السماء ، والناس ما زالوا يقفزون ، ووديدة حائرة مشفقـــة على البناء، ورحلة العمر أن تذوى . تدور حول نفسها تارة ، وحـــول الدرابزين أخرى . تركت الســـباط إلى شقتها ، وأطلت مـــن المشربيـــة على الشـــارع الذى جرفه النهر . وجدت كل أهلها هناك ، ثم عـــادت راكضة إلى الداخل لتجدهم فيه أيضاً ، وكأن الكون قد تركز فى دوامـــة كبيرة هى مركزها ، شـــاهدةً على دوران الماء والزمن والحياة . لم تعرف أنها مصـــدر الأزيز الذى يعلو حولها، ويهش الاستغاثات مـــن سمعـــها، طنَّت مثل خلية نحل لا تهدأ حين تهاجم بالغريزة شيئاً ما مجهولاً ، ثم فجأة انسحب الضجيج تدريجياً، وعاد الناس من حيـــث جـــاءوا . وراحـــت المخلوقات تتلاشى ، تاركةً الســـيادة لسكون بلا معنى . ووجـــد المـــاء طـــريقا ناعما تسرب منه ملبياً نداء النهر ، ولملمت العاصفة أطراف ثوبها الذى اشتبك فى الدرابزين ، ووديدة حائرة تراقب الأرض التى جفـــت ، والجدران الشامخة ، والدرج الذى اســـتعاد عافيته ، حائرة !

حين بحثت مناقير الديكة عن الفجر ، جلست الريح فوق أعـــالى الشجر تتنهد وتتهيأ للنوم ، ومسحت الشمس دمـــوع الســـحابة الـــتى سكنت السماء ليلاً ، ونزلت وديدة تستقبل الحلاَّب، تعيـــد فى ذهنـــها ترتيب حلمها الذى ترك آثاره فى قلبها ، وكأنه لحن يريد أن ينفلت دون رغـــبة صاحبه . بدت فى ملابسها السوداء كائناً صغيراً دقيقاً خفيفـــاً ، ملأ بحركته التى شـــابها انحناء بســـيط أرجاء الحوش . بعثت الحيـــاة فى الأركـــان المظلمة التى لم تزرها الشمس بعد . فتحـــت لهـــا الأبـــواب والنوافذ . دخل متولى ساحباً الجاموسة الأولى ، وربطها فى الوتـــد ، ثم

نقل تحتها المتارد الدافئة التى باتت ليلتها فى الفرن ، وسرعان ما رنت دقات اللبن تش تش تش، وضحكت الرغاوى البيضاء فوق السطح ، وسرت الحرارة فى قش الوقود معلنة مولد صباح جديد مشبع بصفاء ما بعد المطر. دهست خطوات العمال أرض الدهليز ، وسمعت فى الرواق همهمة وصولهم واستلام أدوات العمل ، وانشغلت ستيتة بتلقيم الفرن ، وخبز الفطائر التى تعجنها أم عبد الله بنفسها ، وأمينة بترتيب الإفطار . وانتشرت الطيور الصغيرة ، بعضها يلقط الحب حول الرحاية المنكفئة فوق الجدار قرب غرفة الزلع ، وبعضها يلقط بقايا العجين حول الطشتية التى قلبتها وديدة.. وفح ذكر البط حول أنثاه ، ثم هدأت الحركة فجأة ، وكأن لم تكن فى الطابق الأرضى، وانتقلت إلى الطابق الأول ، وسمعت أصوات العاملات وهن يكافحن الفناء ، ويعدن ترتيب المكان الوحيد المفتوح الاستعمال فى القصر الكبير ، بعد أن أغلقت معظم أجنحته ، وأنّت الجدران من أمراض الرطوبة .

سنوات كثيرة مرت بعد رحيل أم طه التى كانت تحرص على الزينة والتغيير ، فلم يتبدل فى الأثاث والمفروشات شئ واحد وضعته بيديها . بهتت ألوان الستائر ، وزحف القدم ، وسكن أرحام الجدران التى طُلى بعضها بالجير عند زواج الصبيان . ترك فحيح الأفران بصماته تتسرب من الطابق الأرضى إلى الطوابق الأخرى . نزلت صبحية إلى وديدة ، تاركةً الشغيلات الصغيرات لأعمالهن ، وأخبرتها بضرورة الترميم، بعد أن لاحظت كسر أحد عروق الخشب فى سطح مقعد الصبيان . تذكرت وديدة حلمها ، وقالت لنفسها " الحمد لله ، فسر الحلم نفسه بالصلاة على النبى" . انشغلت مع أمينة فى ترتيب أعمال النهار الجديد . دخل ابنها إسماعيل إلى غرفة العيش طالباً غداءً مبكراً ،

قامت إليه وجهزته له، ثم جلست أمامه تسأله بهدوء :

ــ أنهيت تحميل عربات البطاطس ؟

لم تكمل كلماتها ، هب واقفاً مشوحاً بيديه ، زاعقا :

ــ حتى اللقمة لا تريدون أن نطفحها ؟!

فرت العاملات من أمام باب المطبخ ، والتصقن بالجدار ليتجنبن هرولته ، وزعقت دجاجة طيرتها ركلة من قدمه ، وترددت فى الفضاء أصوات طيور أفزعتها الحركة المفاجئة ، قبل أن يعبر الحوش ويختفى فى الدهليز ، ووديدة تركض من ورائه :

ــ تعال أكمل طعامك يا إسماعيل ، حرام عليك !

قالت أمينة : اتركيه ، أهوج ، والغضب يعمى عينه ، حالاً يرجع لعقله .

وأشارت للعاملات أن يعدن إلى هز الأرز .

قالت ستيتة : الصبيان ياما يعملوا ، هونى عليك ياستى ، والنبى لا تجيبى سيرة لحضرة العمدة !!

أجابت وديدة ، التى جلست حزينة فوق المصطبة :

ــ من دون أولادى كلهم .. من دون أولادى . ماذا فعلت كى يعاقبنى الله آخر العمر . كلمة واحدة لا يريد أن يسمعها من أحد .

قالت أمينة : البطن قلابة .

خرج إسماعيل لا يلوى على شئ ، طويل ، عريض فى غير تناسق، رغم صغر السن ، تنفرط على جانبيه كتل الشحم ، منتفخ

الأوداج ، له بشـــرة سمراء تعكس لوناً أحمر من فرط الصحة. الشراهـــة هى مـــفتاح شخصيته ، تتضح حين يضحك بوحشية لا تناسب الطبقة ، أو حين يزعق بغضب لا يناسب الحدث .

عانت وديدة معه فوران النمو المبكر ، إذ انتقل فجأة إلى شـــاب ضخم الجثة ، وبقى عقله فى طور النمو الطبيعى لصبى . ماكينة تزحـــف تلتهم كل ما حـــولها ، لا تفرق بين الأنواع ولا تختار ، وربما لا تجـــرؤ على التذوق أيضاً . كان فى صباه المبكر لا يُرى إلا وفى يده شئ يمضغه . لا يدخل إلى الحرملك إلا لطلب ، ولا يعود إلا ليبحث عـــن طعـــام . اكتسب من وديدة عينيها العسليتين ، وأهدابها الطويلة ، وأخذ عن طـــه أنفه الحاد وشعره الأسود الغزير . لم تفلح أمه أبداً فى هندمته ، وكـــأن قـــميصه فى عراك دائم مع بنطلونه ، لا يستقر داخله أبداً ، وقد ظل على خصام مع ملابسه المفتوقة حتى تخلص منها دفعـــة واحـــدة ، وارتـــدى الجلباب مثل أبيه مدى الحياة . تعب طه فى إقناعه ببذل جهد فى التعليـــم تارة ، والتوعد بالحرمان من الخروج إلى الأصدقاء تـــارة أخـــرى دون جدوى . تعلم فى المنتهى بعد افتتاح مدرستها الثانويـــة، ولم يخـــرج إلى عواصم المدن كما فعل أخوته قبله . ومع هذا لم يحلـــم أبـــداً بالعـــالم الخارجى، ولم يحلم بمهنة أو مستقبل خاص ، حلمه الوحيد هو الثراء ، أما كيف يصل إليه فلم يشغل باله ، ولم يعرف من مظاهره أبعد من ذبـــح أوزى على شاطئ النهر ، والسهر مع الشباب حتى الفجـــر ، ولم تشـــق عقله يوماً شرارة حماس لرغد من نوع آخر . اكتســـب قناعةً داخليةً ما، إن أرض أبيه هى ملك خاص له من دون أخوتـــه ، لمـــاذا ؟ لم يتعـــب نفســـه فى التفســـير ، وربما يكون قد رمى الأمر كله على أنهم تعلموا ،

وخرجوا من البلدة ، ولن يعودوا إليها إلا زائرين ، كما فعل أعمامه من قبل ، وأنه هو سيكون سيدها ..

خرج من الدوار غاضباً ، لكنه سرعان ما نسى السبب حين رأى فطوم قادمة على مهل . وقف قبالتها :

ـــ ابعد عنى ياسى إسماعيل "الله لا يسيئك" !

ـــ يابت .. يابت تعالى . طيب تعالى اعملى الشاى .

ـــ عدى .. وأنا وراءك . أحمّل الحمار وارجع لك .

أدخل كف يده فى فتحة جلبابه المفتوحة دائماً صيفا وشتاء، وتحسس صدره المشعر ، وهو يتابع فطوم تتبختر أمامه ، وتعبر القناية . لاحظ اهتزاز ردفيها المكتنزين ، وهى تتحسس طريقها فوق الأرض الترابية تحت ثقل حِمْل البرسيم : "الأرض كاشفة نفسها ، لو كانت ذُرَة والله ما كنت عتقتها . صحيح الثقل صنعة، أنا إسماعيل المصيلحى تعصانى فطوم ، بعد ما طابت واستوت ونادت الأكال ؟"

قذف فرع الشجرة الذى كان يتكئ عليه ، وركض فوق قوالب الطمى الجافة متحاشياً الحُفَر . اخترق الحقل ، ولحق بها ، وهى تسحب الحمار قبل أن يبتلعها الطريق أمام النهر ، وأمسك بكتفها قائلا :

ـــ قلت لك اعملى الشاى .

ـــ أبى يستعوقنى . آذان الظهر قرب . حالاً أرجع لك ، راجعة لك ، والله .

مد يده إلى العقد الذى يزين رقبتها ، فجفلت إلى الوراء وتورد

خداها ، وتسللت من جبهتها إلى عينيها قطرات عرق ، رغم أنف شهر أمشير :

ــ عيب ياسى إسماعيل !

ــ فرع خرز بلاستيك ، أنت تستاهلى عقداً من الكهرمان. "كرما" من الأصلى ، خلاص ، أشتريه لك يوم الجمعة.

ــ عشت والنبى ، حلفتك بالمصطفى تبتعد عن سكتى .

ــ نسيتى ؟ زمن آخذك تحتى فى الجرن ، شفتى واحد غيرى أحسن منى ؟

أخفت نصف وجهها الأسفل بطرحتها السوداء ، وأرخت رموشها الطويلة فوق عينيها ، فظهر جمالها أشد صراخا مع الخجل ، قالت :

ــ كنا عيال !

ــ توافقينى واحنا عيال ، وتعصينى بعد ما تكبرى ؟

زغدت الحمار فى فخذه حتى يتحرك ، والتفتت إلى إسماعيل بعد أن انهدلت الطرحة ، وكشفت وجهها :

ــ أنا من طينة ، وأنت من طينة .

اعترض بكتفه حركة الحمار ، ومال عليها مقربا وجهه من وجهها الذى تصاعدت أنفاسه كبخار علق فى الجو .

ــ لكن طينتك عاجبانى ، وخبلانى ، وإذا ما طاوعتينى سأزعق

بالصوت الحيانى ، واخلع الهدمة ، واقف ملط فى السوق ، وألطم علـــى وجهى مثل النسوان ، واقول باحبها ياناس ، فطوم بنت شاكر .

ـــ يا نهار أغبر !!

ـــ خائفة من الفضيحة ؟

ـــ عيب ، أنا حرمة ، وانت تحمينى .. ما تفضحنى .

ـــ هو الحب عيب يا ناس ؟ أنا أحميك من الدنيا كلها .

تحسس ساعدها بلطف وسألها :

ـــ من يطفئ النار الوالعة فى حشايا ؟

ثم تغيرت نبرة صوته اللينة المستعطفة فجأة ، واكتسبت عنفاً آمراً وهو يهصر يدها :

ـــ هى كلمة ، منتظرك فى الجرن بعد المغرب .

ـــ أبى يكشفنى ، يقتلنى ، اعمل معروف .

ـــ تحججى بحجة والسلام .. أنت حرة ، عارفة لـــو تـــأخرتِ ؟ على راسك وراسى .

ـــ اختشى ياسى إسماعيل ، فى عرضك !!

ـــ اللى يختشى من بنت عمه ..

ابتلع ريقه ، وهو يتابع حركتها قائلاً ، بصوت عال لم يخـــش أن

يسمعه أحد :

ـــ رقبة تسجِّد الجدع .. وأنا ذائب والله !!

انقضى النهار ، وسكنت وديدة إلى غرفة نومها . لاحظت أن طه مهموم ، فلم تسأله كما اعتادت طوال حياتها . انتظرت أن يبوح لها بما يشغله فى الوقت المناسب ، إذ لم يتصور طه وهو يدفع بأبنائه جميعاً إلى التعليم – البنات قبل الصبيان – أنه سيعيش ليوم يرفض فيه أحدهم إكمال تعليمه الجامعى ، ويختار بإرادته أن يصبح فلاحاً ، ويستقل بمساعدة أخوته : "إسماعيل يرفس النعمة ." حدث نفسه وهو يخلع ملابسه، ووديدة تمسك له جلباب النوم ، تفهم كلماته التى لا تسمعها بقلبها بعد أن خفتت قدرتها على السمع . التفت إليها ، ورفع يديه بصعوبة كى تحكم ربط حزامه الصوفى فوق ضلوعه ، وزفر آهةً حزينة .

قالت هامسة : ارحم نفسك يا طه .

قال بصوت عال : تعبت يا وديدة . اتفق أولادك كلهم معه، قالوا لى اتركه يختار ، لا تفرض إرادتك عليه . أنا أفرض إرادتى ؟ أنا ؟ ماذا يريد من الأرض ؟ وماذا ستعطيه الآن ؟ يتصورون أننى لا أستطيع إدارتها منفرداً ، وأنها تحتاج لشاب عفى ، طوال العمر وأنا أديرها ، المسألة ليست سنا .

نظر إليها نظرة طويلة تعرف معناها ، ثم غرق فى ذاته . انتظرته صامتة ، وعكس وجهها هدوءاً واثقاً من حسن تصرفه .

قال : ليست الكبرياء .. أنت تعرفين .. ليست الكبرياء . الأرض ركبتها الجمعية والسوق السوداء ، وبلطجية السماد والبذور ، غير تحديد حصص التوريد والسعر .. ولولا التجارة وتربية المواشى ما كنا، الأسهل أن أتركه يساعدنى ، لكننا لا نحتاج إلى خولى .

رفع رأسه نحو لمبة الكهرباء التى يتلاعب ضوؤها بفعل ريح هبت، ثم استدار إلى الأفق خارج النافذة المطلة على النهر . انتابه شعور بأن الظلام شديد الحلكة ، وأن الضوء الصغير على الطريق مهزوم .

قال : أنا أعرف السبب ، شئ أشعر به ، وسيأتى أوان كشفه ، المسألة أكبر كثيراً من إسماعيل يا أم عبد الله .

ــ سُقت عليك النبى ألا تغضب عليهم ، هذا نصيب يا أبو عبدالله، وأنت لم تفرط فى تعليمهم ، كانت أمك الله يرحمها تدافع عن اختيارك طوال اليوم ، رغم أنها ما اقتنعت يوماً واحداً بطريقتك ، اتركه ربما ينجح كما نجحت .

ــ اخترت الفلاحة بعد منعى من التعليم ، كانت العمدية أهم عندهم منى ، كان من حقى الاختيار بين التعليم فى أوروبا مثل أخوتى، وبين الأزهر .

ظهرت عروق تنبض فى رقبته ، وانتفخت أوداجه ، وامتقع لونه الأسمر ، أسرعت وديدة تقدم له الماء . نظرت إليه طويلاً ، واحتلت عقلها صورة الحاج عبد القادر المصيلحى حين الغضب ، قالت بصوت

ضاحك تمازحه :

ـــ صرت تشبه أباك كثيراً يا طه ، أنت أنجح من الجميع وربنـــا كرمك .

لم يضحك ، استمر يفتت المناقشات الـــتى دارت مـــع أولاده فى عقله:

ـــ قالوا الدنيا تغيرت ، نعم تغيرت ، أنا اشتغلت على ذراعى كى أكفيهم مشقة الطريق .. ما يفعلونه طيش شباب سيدفع إسماعيل ثمنــــه ، لكن بعد فوات الأوان ، لن أكتب له قيراطاً واحداً ، يتحمــــــل نتيجـــة تصرفاته ، ويعمل لديهم أجيراً ، هذه آخرة مخالفة شورتى .

ـــ الرزق من عند الله يا طه . بدأنا ، وانت سيد العارفين ، بـــلا مساعدة من أحد .

وخزته كلماتها ، خاف أن يغلبها حنانها فتساعد إسمـــاعيل علـــى الاستقلال ، قال والكلمات تتراوح بين الغضب والمحايلة ، بعد أن هـــدأ صوته قليلاً :

ـــ إنه لا يستطيع تشغيل عامل واحد فى المزرعة ! لا يمتلك هيبـــة الإدارة ، صدقينى ، العمال يشتكونه طوال اليوم .

ـــ هو عين شابة لا تغفل ، تكشف كسل العمـــال وتلاعبـــهم عليك، لهذا يشتكونه حتى يبتعد ، وتترك لهم السائب فى السائب .

ـــ فاكر أنه يقدر يقف أمام جنينة مـــانجو ، ويبيعـــها قطـــاعى

ويكسب أكثر . ابنى ــ أنا طه المصيلحى ــ ينط فوق عربة نقل ؟ هــى الدنيا انقلب حالها ؟

جلس على حافة السرير ضخم الجثة غير مترهل ، رغم ثقل بطنه التى ترتفع أمامه :

ــ عبد الله يريد أن يبنى مزرعة فراخ يديرها إسمــاعيل ، اكتــب الأرض وغداً يبدأ مشروعه .

ــ عبد الله ما كسر لك كلمة ، ولا أغضبك ، سكت من يوم ما رفضت طلبه .

ــ لا ، يلح علىّ كل يوم والثانى ، أنا عارف أنه يقدر يشـــترى أرضــا ويبنى عليها ، لكن أنا لن أبيع فراخ على آخر الزمن . جمع أخوته وضغطوا يوم لأجل أكتب الأرض لإسماعيل ، ويوم لأجل أوافــق علــى المزرعة ، وأنا أرفض لســببين : أولا لن أبعزق فلوســـى ، ثانيــا هــو المهندس البك وأخوه الفلاح بائع الفراخ ، لن أجعله أجيرا عندهم أبداً .

ــ وغربة كوثر ، اكتب الأرض يا طه ، لأجل يحـــس إسمــاعيل بنفسه ، أحسن ما عينه تكون مكسورة وسط أخوته .

ــ فى الصباح رباح .

هزم طه المصيلحى أمام ضغط وديدة . لم يهزمه إلحاح أولاده عليه، لم يستطع أن يقف فى مواجهة حنانها على إسماعيل . استكثر أن تكتب له الأرض من ميراثها ، خاف من حيرتها الصامتة بينهما ، فرضخ حتى يجنبها الصراع . لم يعشق فى حياته قط قدر عشقه لاثنين : هى ، والأرض . هى بهدوئها وبجبحة مشاعرها التى تشع حولها مثل نور ثريا نقى ، والأرض المفتونة بعرقه ، المفتوحة لرزقه . ساهته وديدة، وجرحت رغبته فى الثبات على المبدأ الذى أبلغه لإسماعيل يوم ترك دراسته، أن يتحمل قراره دون مميزات . قالت وهى تساومه :

ــ صرفنا على أخوته فى التعليم دم قلبنا ، احسبها واعطيه. لو كان شغّيلا عندك منذ ترك الدراسة لكان لديه مال الآن .

رضخ ، وكتب خمسة أفدنة ، لكنه لم يسلم الصك له . ولم يمر يوم بعدها دون أن يهدده بأنه ممزق الورقة إن عاجلاً أو آجلاً ، إذا لم يرضخ لتعليماته ، ويبق فى كنفه وتحت طوعه .

جلس فى الشكمة يراود شيخوخته على مهل ، ويمضغ أيامه. يقلب أوردة الزمن لا الحكمة ، يوغل فيه فلا تطول قدماه سوى حزن

عميق عمـــق الحقيقه . رأى حياته اشبه بعمـــود دخان يتراقص تحـــت سفح الريح ، يتلون بألوان فاقعة التضاد ، يمسك بأذنـــاب الأحـــداث ، ويلـــف بها السماء ، ثم يطلقها إلى فضائها : "النصيب ، وعمـــل بـــنى آدم". ارتعشت يده بالمسبحة ، وهو يردد فوق حباتها أسماء الله الحسنى ، ويسجل بها الساعات . وقعت أيامه فى متاهة الحنين ، فتذكر جده تمـــام الذى ما ابتسم لطفل قط ، ولا التفت لصبى أو فتاة من أحفاده إلا لـــه ، وحمله بين ساعديه ذات يوم قائلاً : "كن كبيرنا حتى نطيعك" .

لم يقبل أن يطلع أولاده أبداً على حساباته فى السنوات الأخيرة ، ولا أن يتنـــازل عن عرشه وسلطان إدارته لأرضه وتجارته، لقاء شيخوخة تخزها آلاء الشفقة . قام متعكزاً على عصاه الملوصة من جذع خوخة إلى الصالة ، وشرب بعض ماء من إحدى الجرار التى لم يتغير مكانهـــا فـــوق الطاولة العالية فى الركن ، منذ بنى الدوار ، ثم دخل إلى غرفة مكتبـــــه ، وتمدد فوق الكنبة وغفا. صحا على هيصة وزيطة عمال ، صـــاح علـــى بسيونى أن يعلمه بالخبر ، جاء مهرولاً وقال له :

ــ العمال يشتكون من سيدى إسماعيل ، ويريدون الكـــلام مـــع جنابك ، قلت لهم سيدى نائم .

وصل إسماعيل ، ونهر العمال المتجمهرين أما سلم الشكمة، فعـــلا صوتهم رافضين مغادرة المكان إلا إذا قابلوا العمدة . قام طـــه غاضبـــاً ، يتكئ على فرع الخوخة ، فاصطدم بهرجلة إسماعيل وزيطته ، ورآه يشوح بيده ماداً رقبته مثل أوزة غاضبة ، سأله :

ــ خير .

أجاب : ناس مالها إلا الحرق . نصب ، وخراب ذمة . البكـــوات

كانوا نائمين فى الظل ، والعربات متعطلة على الجسر تنتظـــر ، والبـــك رئيس العمال عاملها سهراية ، وقاعد يتدفأ ويشرب شايا وسطهم .

قال العمال فى نفس واحد : تعبنا ، ريحنا ، أجلنا ســـاعة الغـــذاء لأجل نكمل تحميل العربة ، وجاء سيدى إسماعيل افتكر إننا مبلطجـــين ، دائماً ظالمنا ، كل يوم مرمطة ، مرمطة .

أردف واحد بعد أن سكت الجميع :

ــ تحملناه لأجل خاطرك يا حضرة العمدة .

قال طه بصوت ظهر فيه اختناق الصحو المفاجئ :

ــ روحوا ، وابعتوا لى سعفان .

قال إسماعيل وكأنه يفح : خصمت لهم نصـــف يوميـــة ، وإذا لم يعرفوا أن الله حق ، لن أبقى على نفر منهم .

تدافع الفلاحون : حرام عليك يا سيدى إسماعيل ، عشنا ندب فى أرضك ، ولنا عيال نصرف عليهم .

قال طه بغضب : قلت اذهبوا .

استداروا إلى الخارج يهمهمون بحنق انكسرت حدتـــه ، ووقـــف إسماعيل فى مواجهة أبيه :

ــ تكسر كلمتى يا أبى ؟ تركبهم علينا ؟

ــ نافش ريشك وسطهم ، صاحب المال يشغلهم بالحسنى.

ــ لا بيشـــتغلوا ولا يحزنون ، متلطعين طول النهار ، لا شغلـــة

ولا مشغلة ، ولا أحد يحاسبهم .

ـــ مائة مرة قلت لك صبرى نفد ، سأقطع حتة الورقة ، وأريح الناس من شرك .

ـــ ورقة ؟ الورقة من حقى ، هى مذلة ؟ كل يوم تصبحنى وتمسينى بتقطيعها ، أنا داخل آخذها من الخزنة ويحصل ما يحصل .

قام طه فزعاً وراءه ، أمسك بقماش جلبابه :

ـــ تعصانى يا إسماعيل ؟ هى حصلت ؟

اندفع إسماعيل إلى درج المكتب ، وفسخه ، وأخرج المفتاح، واستدار إلى الخزنة . رفع طه عصاه وهوى بها مرتعشاً فوق جسم إسماعيل :

ـــ تحتاج إلى ربابة !!

تفاداها إسماعيل فسقطت بعيدةً عنه ، واختنق طه بالغضب، فجلس فوق الكنبة مستسلماً . تراجع إسماعيل وركض إلى الصالة، ثم عاد بكوب ماء رفضه أبوه ، وأشار إلى جيبه قائلاً :

ـــ اعطنى الدواء .

بحث إسماعيل مضطرباً عن الأنبوب حتى عثر عليه ، وأخرجه ممسكاً به كطوق نجاة . همَّ بفتح الغطاء ، ثم تردد ، وقبضت كفه عليه، وتجمد أمام العمدة الشاخص ببصره إلى السقف البعيد . ضربات قلبيهما سريعة وواضحة ، الحبوب بين أصابع إسماعيل المتسمر فى مكانه . أدرك طه ما يحدث ، فاستدار إلى ابنه مسدداً بصره إليه فى تركيز سرى

إلى جسد إسماعيل كتيار صاعق . ارتجفت يده ، فأغمض عينيـــه علـــى خاطر زلزل كيانه ، دهس بأسنانه شفتيه حتى شلب منهما الـــدم ، غـــز روحه شقرف حاد فتلوى مصدراً أزيزاً مكتوماً مسحوقاً تحت ثقل الرغبة التى اصطدمت بحب جارف للرجل الذى أراد أن يقلده فضَلَّ الطريـــق ، تاه فى دهاليز وهم القوة والإعجاب بنفسه . انفجرت فوق جبينه فجـــأة قطرات عرق ، ونبضت عروقه بسرعة فانتفخت أوداجـــــه ، وطقطـــق جسده مثل ديك رومى مستفز أمام ثوب أحمر ، فسقط فوق أبيه الممدد ، وحمـــل رأسه فوق ساعده ، ولصق الحبة تحت لسانه . ثوان فرت تخب ، أدرك فيها طه حجم الصراع الذى حسم لصالحه . خرج صوته معـــانداً عافيته وقدرته :

ـــ أريدك رجلاً .

وقع إسماعيل فوق يده المرتعشة ، وأغرقها بقبلاته ، ماسحاً بجبينه تهوره وطيشه ، مجهشاً كطفل نزق ، ربت طه فوق ظهره :

ـــ أريد أن أرتاح ، سأنام حتى يأتى ميعـــاد العشـــاء . اذهـــب لأشغالك .

احتاس إسماعيل والتاث ، ولم يعرف ماذا يفعل كى يطمر إلى الأبد فعلته . حثه طه على الخروج ، وخزه بالعصا فى جنبه حتى ابتعد فى لهوجة عرف بها مدى الحياة ، ولم ير دموع الشيخ التى صارعها ، حتى لا تنفجر كشلال انهمر لحظة أن عبر ابنه عتبة الباب . لم يرغب طه للمرة الأولى فى حياته أن يتمالك نفسه ، تركها تبكى فساد الزمن ، مشققة دموع الكبر ، وأحزانه . نازعه احتقار لكل ما يمثله إسماعيل من قيم مهترئة ، ورهانـــــه على بصيص ضوء رآه فى تراجعه عن فعلته ، ضوء مطمـــــوس بطلســـم

الرغبات الجشعة . جفف عبراته ، وصاح على بسيونى ليأتيه بمنشفة ، وكوز ماء لغسل وجهه ، ثم خرج نحو غروب يرهص بالشارات إلى حديقة جافة لم يصمد فيها إلا الجهنمية ، بأشواكها الصلدة ، وجذعها المقدد الذى يحايل وردات صغيرة على البقاء . يعب مثل جمل عجوز لا تقوى قدماه الطويلتان على حمله ، مختال رغم أنفه بطلعته التى يهابها الصغير والكبير ، مركزاً النظر إلى البعيد ، رغم العصا التى تسنده ، عبر الدهليز الذى لم يكف فيه صوت مدشة الفول عن جلد الصمت . انتبه إلى تراكم الزمن الذى عشش فى الأمكنة ، رغم محاولات التجميل ، ولاحظ الكلبة الوالدة فى بئر سلم الفيلا الصغيرة التى كان يستدرج فيها الضباط الفلاحين ، لكى يجبروهم على الاعتراف بضرب قوة البوليس أيام الحادث الكبير . تذكر تحديه للحكمدار رأفت قاسم ، الذى نتج عنه وقفه سنة عن العمدية ، ودخول الهجانة البلدة . غمغمت الجراء العمياء، وهى تفلفص متزاحمة على أثداء أمها الراقدة على جنبها تمتص حلماتها بشراهة ، والكلبة ساهمة تقطر عيناها رقةً وصفاءً أباحا للحنين أن يعبث فى عقله على مهل . تجنب المناطق العالية المقلقة فى الطريق الذى دهسه آلاف المرات ، عبر الباب الخشبى الكبير ، وتمهل فى الساحة المربعة التى تفتح على الزريبة يميناً والحرملك يساراً ، وألقى بنظرة طويلة إلى الجاموس المسترخى أمام الطوالة ، يهش الساعات والذباب بذيله ، وسمع صوت حفيده علاء ، وحيد ابنه عبد الحميد شهيد ١٩٦٧ ، يغنى فى زريبة الغنم:

سح يابا دح .. . يا خروف نطاح

وقف يلتقط أنفاسه ، ويتأمل علاء الذى انتبه لجده فجاء يركض ، واحتضنه من ساقيه ، دافناً رأسه فى جسده الكبير . دمعت عينا طه ،

جففهما بمنديله بسرعة . سبع سنوات منذ رحل عبد الحميد ، وولد علاء له بعد شهور من استشهاده . أخرج من جيبه نقوداً معدنيـــة كثـــيرة ، ووضعها فى كفه ، وفتحها ليأخذ منها علاء ما يشاء . فـــرح الطفـــل ، وكـــبش بأصابعه الرفيعة ما يستطيع ، ثم ركـــض إلى خـــارج الـــدوار ليشترى كراملة . واستدار طه مع الطريق ، وعبر الباب الأوسط الـــذى كان بشير القهوجى يعلق فى فتحته العلوية الحبل ، ويربطـــه فى الهـــلال ويتسلقه حتى يفتح السقاطة، ويدخل إلى روايح خادمتهم ، منتهكاً حرمة الدار وهم نائمون . بشير الذى لم يظهر له أثر منذ هدنة ١٩٤٨ حـــتى الآن ، ولم يعرف لماذا يتذكره الآن ، شحذت حواسه الخمســـة للرؤيـــة فقفزت إلى ذهنه ومضات من العمر . خف إلى حوش الدار متتبعاً رائحة الشياط التى تفوح من رأسه ، وعبر الفناء ، فلم ير وديدة ، جلس فـــوق المصطبة بجوار باب المطبخ . رآها ، خارجةً من غرفة اللبن ، حاملة صحن قشدة :

ـــ مرحباً ، العشاء جاهز ، شهلى يا صبحية ، حضـــرة العمـــدة وصل .

ـــ لا ، أريد فنجان القهوة أولاً .

ارتكن على الجدار الخشن المدهوك بطمى النيل . استدارت لتعد له القهوة بنفسها ، مدد ساقيه للأمام ، شعر برأسه يتثـــاقل ، عـــدل مـــن جلسته، ليريح الفقرة المتعبة فى منتصف عموده الفقرى ، والتى كثيراً مـــا يفشل الحزام الصوفى فى كتم وخزاتها . تذكر الثور الهائج الـــذى أوقفـــه يوماً، وتسبب له فى الألم مدى الحياة . لم يندم، عبره واتكأ فوق حاشية صغيرة من وبر الجمل . تطايرت أمام عينيـــه نجـــوم صغـــيرة مضيئـــة ،

وفراشـــات بيضاء ، رفت مع رموشه بسرعة ، ورقصت مهفهفة . سرى سائل ساخن اتخذ طريقه من رأسه إلى أعضاء الجسم ، دثره بهدوء لذيـــذ وممتع ، استسلم له ، فلم يسمع قرقعة وقوع الإبريق و"الطشتية" [2] مـــن يد صبحية ، حين جاءت تقدمه إليه مع الصابون ليغسل يديه قبل العشاء، ولا نداءها :

ـــ الحقينى ياستى !!

ولم يشعر بدفء صدر وديدة وهى تحتضنه ، بل مـــــال معـــها، واستقر كما أرادت له فوق المصطبة الطينية التى يغطيها كليـــم صـــوف عتيق، حتى حمله الرجال إلى غرفة راحته فى الشكمة ، على بعد أمتار قليلة من مجلسه اليومى ، ومن مكتب أبيه حيث استشهد عبد الحكيم . ولمـــا جـــاء الطبيب ، قال إنها جلطة سريعة فى المخ ، أنهت حياته فور تكونها . دخل عبد الله إلى أمه فى الحرملك حائراً ، لا يعرف كيف يخبرها ، باغتته قائلة :

ـــ راحت دولتنا يا عبد الله .

انكفأ على آلامه .

خرجت القرية كلها تودع طه . لم تبك وديـــــدة ألم الفـــراق ، أرجأت الحزن حتى يمر الحفل كما يليق به . تذكرت أم طـــــه ورحيـــل زوجها ، طلبت نحر أكبر ثور فى الزريبة ليكون رفيقه فى ليلـــة وحدتـــه الأولى . ذبح لحظة اجتيازه لباب الدوار للمرة الأخيرة، ووقـــف أهـــل المنتهى صفين على جانبى الشارع ، ليفسحوا الطريق للأغراب لوداعـــه .

---

2) الطشتية : تصغير الطست بالعامية .

طار النعش ، ورفرفت أجنحة الملائكة صانعةً موجات من الريح المعطـــر بالياسمين ، وانشغل أهل الدوار باستعادة حلم وديدة الذى حمل النـــذر ، واكتشفوا أنها ليست الوحيدة التى تنبأت به هذه المرة ؛ إذ تكرر الحلم مع أربع غيرها ، اثنتان من بناتها قمر ونازلى ، ولبنى ابنة رشـــدى وخطيبـــة عاطف ، وأخته نعيمة أيضاً . وانشغلت القرية تستعرض حياته ، مـــآثره وانكساراته، تذكروا والده الحاج عبد القادر المصيلحى ، وكيف كـــان منعمـــاً وكريماً ، وكيف اختار طه العمل والتجارة طريقاً مغايراً لرغبـــة أبيه . تذكروا حادث أبو مندور ، ووقْف طه عن "العُمُدية" . تذكـــروا جلسته فوق الحجر بجوار حائط الدوار فى الهواء الطلق . تذكروا رفضـــه لكل المشروعات الجديدة التى جاء بها عبد الله ، وتساءلوا إن كان عبد الله سيبدأ فى بناء المزارع بعد أن أصبح الأمر كله فى يده . وسرت همســـات خافتة تحسب ثروة طه.

وقبل أن يطلع النهار ، كان الفلاحون يقسمون أنه يمتلك جـــراراً من الذهب الخالص مدفونةً فى سرداب تحت الدوار ، وأن الأيام القادمـــة ستكشف حجم هذه الأموال ، فلن يصبر أولاده على تخزينها طويـــلاً . وعرفوا أن عصراً جديداً قد بدأ برحيله ، وناموا وهم يتمتمون : الكبـــير كبير ..

وسهرت العاملات أمام الفرن ، يخبزن العيش الخـــاص وأقـــراص الرحمة التى احتاجت إلى ثلاثة أرادب من القمح ، ولم تتوقـــف الأبقـــار والجاموس عن الحلابة ، حتى انتهى العجين ، ثم عجزت عن إدرار اللـــبن أسبوعاً كاملاً بعد ذلك .

صحت عصراً بعد أن نامت ساعتين كاملتين فوق قبة الفرن الـــتى حمتها لتبدد البرودة قبل أن تصعد إليها . اعتادت أن تحميها ليلاً ، لكنـــه الفراغ . لم تجد ما تفعله بعد أن أذابت حبوب العدس الأصفر ، وهرستها وعصرتها وحمّرت لها بصلةً فى الزيت ، ثم دشدشت الخـــبز اليـــابس فى الماعون قبل أن تغرفه عليها . لم يبق لها سوى أن تأكل خليطها الساخن ، لكنها نقلتـــه من فوق وابور الجاز ووضعته أمامها دون أن تمد يدها إليه، ثم أقنعـــــت نفسها أنها لابد آكلةً ، فأكلته . لم تكـــن فى حاجـــة إلى مضغه ، فالعدس أذاب الخبز ، وسهل زلطه ، ومع هذا تلكأ فى ســـقف حلقها ، وبين شدقيها الخاليين من الأسنان . فككت الحــــرارة تشددهـــا ومللها من الحياة . استراحت فعـــرف الطعـــام طريقــه إلى بلعومـــها ، وانفتـــحت معدتها الصائمة لتتلقفه ، بلعت ريقها ، والنحلـــة تـــزن فى رأسها : وماذا يتبقى لى فى نهارى ؟ هشت النحلة بيدها من أمام عينيـــها اللتين فقدتا قدرتهما الأولى ، ومدت يدها بالملعقة إلى الصحن تنقل مـــن "الفتة" إلى فمها ، توالت الدفعات حتى استراحت فنعست .

بدد النوم ساعتى القيلولة ، فماذا عن باقى النـــهار ؟ قـــررت أن تذهب إلى الغيط لتحضر حزمة بقدونس . مشت على مهل فـــوق أرض

زلقة تفوح منها رائحة التراب ، حيث كل من قابلته فى طريقها بهزة من رأسها ، وكلمة واحدة : "العواف" . كانت قد اعتادت الصمت ، فتغضنت حواف فمها وظهرت حوله "الكشكشة" كأنها تزمه عامدة ، حتى لا يُصدر صوتاً . لفت الخضرة بطرف طرحتها السوداء الطويلة طوال الطريق ، فلما وصلت دارها تحت المكبة مع قطعتى الجبن القريش ، وبقايا العدس والبصل ، وبركت أمام باب الدار فى الهواء الطلق فوق حصير صغير متآكل الحواف . حصرت أيام وحدها بعد أن سافرت وديدة أم عبد الله لتعاود جرَّاحاً فى القاهرة ، لم تتعد الأيام إصبعها الأوسط ، لكنها كانت أقوى من أن تحتملها . اعتادت فى هذا الوقت بعد أن تصحو من القيلولة أن تذهب إليها فى الدوار ، وأن تجلس معها ساعات العصرية وأن تسامرها ، بعد أن اختفى زمن الضجيج ، وفرغ الدوار من أهله . تزوج الصبيان والبنات ، وأصبح الدوار "ينش" طوال الأسبوع إلا من زائر يمر كل حين إلى أن يأتى يوم الخميس وتتجمع العائلة .

كانت مثل وديدة لا تعرف الاختلاط بالغير ، والزيارة هى للواجب فحسب . لم تجلس فى المغارب أمام الدور مع الفلاحات، ولم تذهب إلى النهر لتغسل الأوانى معهن ، ولم يكن لها غيط لتُفلحه . انقضى العمر وهى مشغولة بعائلة المصيلحى ، ومع الوقت التزمت بعاداتهم ، وكادت أن تنسلخ عن عاداتها . حتى عندما كانت تستحم عند الفجر فى النهر قرب أعواد الغاب ، اختارت مكاناً محدداً يعرفنه جميعاً ، فلم تحتله إحداهن يوماً ، ولم تنتظرها جارة أو صديقة لتحمل عنها ملابسها حتى تنتهى . كانت تحمل صرة الثياب النظيفة ملفوفةً بدثار أسود ،

تعلقها فى طرف بوصة قوية ، ثم تنزلق إلى الماء ، وتخرج منه متطهرةً قبل أن تهتز الفروع المجاورة ، أو تعلن الريح عن وجودها . اعتادت جاراتها صمتها ، وعزلتها ، وكن يحيينها فى ود دون اقتحام ، إذ كانت لا ترد لإحداهن طلباً ، وتوصل رغباتهن ، واحتياجاتهن لأم عبد الله ، فكن يقصدنها إذا ما أردن شيئاً من الدوار .

ولدت أمينة لأب غريب ، والمنتهى لا ترحب كثيراً بالغرباء، حتى لو جاء أحدهم ، وعاش فوق ترابها سنوات طويلة . والزمن لا ينفى اغترابه ، ولا يعطيه حق الانتماء ، حتى وإن تزوج من بناتها ، فهى تنظر بعين الريبة لهذه الزيجة ، ويتساءل أهلها فى لياليهم الطويلة تحت ضوء فوانيس الجاز بدهشة : لماذا وافق الأب، ألف كانوا يتمنون ابنته ، حتى لو كانت زرقاء ومقشفة ، وكشف الزمن عراقيبها ، وكل فولة ولها كيال . عمل أبوها عبد العال القناوى شاويشا فى مركز البوليس ، واستقر سنوات تزوج فيها أمها ، ثم رحل إلى عمله فى مركز آخر ، وتباعدت بالتدريج زياراته للقرية ، وأشيع أنه متزوج فى بلدته من أعمال الصعيد. وفى إحدى زياراته لزوجته فى المنتهى توفى ، واشتعلت المناقشات ، هل يدفن فى القرية أم لا . وارتاح أهل المنتهى لقرار الرجل الذى كان قد أبلغه لزوجته بأن تعيده إلى موطنه ، فمن غير المقبول أن يدفن وسط عائلة المرأة . وهناك اكتشفت الأسرة أنها لن تستطيع الحصول من ميراثه — مع كثرة عياله — على ما يسد رمق الزوجة وابنتها ، فعادت ولسان حالها يقول إن الرزق على الله . وانكفأت الفتاة الصغيرة تربى ابنتها بمساعدة أبويها حتى صارت الطفلة صبيةً يميزها هدوء وعزوف عن لهو نظيراتها من

البنات . ورغم اليتم وصفاتها الحميدة التى شاعت فى القرية ، إلا أن إقبال الخُطّاب عليها كان قليلاً ، فلما بلغت الثامنة عشرة دون زواج ، وأصبحت فى العرف عانساً ، زوجتها أمها من مراكبى عجوز يمر فوق النهر أمام المنتهى لنقل الفول والحبوب من المنيا . ماتت زوجته ، وتزوج أبناؤه ، ولم يختلف حظها كثيراً عن حظ أمها ، إذ ترك لها صبيّاً لم يكمل الثانية من عمره ، والمركب هى كل ما يملك ، والأولاد يعملون فوقها . ذهبت إلى العمدة تسأله كيف تحصل على حقها ، فتحدث طه إليهم ، وبعد مفاوضات، حكم لها بثلاثين قرشاً عن كل نقلة، وثلاثين أخرى لابنها ، والنقلة تستغرق شهراً كاملاً .

احتارت أمينة ، كان هذا أقصى ما يمكن أن تقدمه لها أسرة زوجها ، ولم تكن تستطيع العمل فى البيوت ، ولم تعتد نساء المنتهى العمل فى الترحيلة ، والموسم ليس موسماً لجنى أى ثمار ، فماذا تفعل ؟ عادت إلى بيتها ساهمةً غارقةً فى الحزن . تفتحت أمام عينيها صور للفقر كثيراً ما تكررت حين يموت العائل ، وتنحدر الأسرة إلى متاهة الحاجة. مرت الساعات ثقيلةً حتى سمعت طرقات فوق بابها ، وفوجئت بالعمدة يدخل إلى دارها المقابلة لدواره ، ووراءه فطوم تحمل قفة فوق رأسها وطفلاً يلف ساقيه حول وسطها ، بوغتت ، قال لها وهو يجلس فوق المصطبة ويعطيها ابنه :

— أم عبد الله بين يومها وليلتها ، ولا تستطيع رعايته ، وأنتِ خير أم له .. أريد أن يقضى ابنى نهاره لديك حتى تشد أمه حيلها ، وتعيديه لها

بعد آذان المغرب .

قالت أمينة باكية : رهن إشارتك يا حضرة العمدة .

قال : أنتِ ابنتنا ، وكان أبوك صالحاً يرحمه الله .

ثم قفز واقفاً وغادر الدار ، تاركاً الطفل معها .

عاشت أمينة فى كنف الدوار وحماية أهله . تأتى فى الصباح لتحمل الطفل ، حتى تربى أبناء العمدة جميعاً بين يديها . وبعد وقت قصير أمسكت مفاتيح البيت ، وعرفت أسراره ، وأدارت حركة الخدم ، كما أشرفت على كل المناسبات السعيدة والحزينة. وكانت رفيقة الأبناء فى زيجاتهم ، وميلاد أبنائهم ، ولعبت دور عسكرى المراسلة لدى كل فتاة تغادر الدوار إلى أهل زوجها حتى تستقر الأسرة الجديدة . وتربى ابنها فى مدرسة الصنائع ، وتخرج وترك القرية إلى مدينة المحلة حيث مصانع النسيج ، وكون أسرة بجوار عمله إلى أن جاءه عقد عمل فى العراق فسافر ، وتركها ترعى أيام الوحدة .

انقضى العصر سريعاً ، ودخل المغرب يفتح الباب لليل طويل حالك ، لا تضربه رياح لكن تسكنه برودة شديدة . دخلت أمينة لتلحق بالصلاة ، ثم تكومت فوق المصطبة تبحلق فى السقف . نامت طيورها وسكنت إلا من حركة ناعمة لطير ما زال قلقا يرتب مكاناً لراحته . أسندت رأسها للحائط ، وقعت عيناها على الطاقة ، زمت جفونها تستطلع الجدار الخشن ، منذ زمن نسيت أن تملّسه بالطين حتى تشقق ، وخرجت منه أعواد القش ، وبانت عراقيبه ، وآثار الريح والحرارة ، وتساقط المطر ، وجفاف البرودة . رحل شبابه مع شبابها ،

فكانا أشـبه بكائنين خرجا من طينة واحدة ، ونضجـا معـاً فى فـرن واحد، من ينظر إليهما فى هذه اللحظة يعرف حقيقة أن الله خلق الإنسان من صلصال . صلصال ثابت ، واقـف ، لم تنفخ فيه الروح ، وصلصال حى فى الفراغ . دققت النظر إلى الطاقة فرأت شيئاً يتحـرك . تـردد فى عقلـها سؤال إن كان هناك فأر يختبئ ! لكن الفأر لا يسـكن جحـراً عالياً كهذا ! ربما يكون ثعباناً ! لكن الثعبان يتدلى من القـش ، فـهل يسكـن الطاقة ؟ ومتى حفر جحره دون أن ألاحظـه ؟! زادت زمـة جفنيهـا ، مرقت سـحابة غطت بصرها ، تضاربت الجفون بسـرعة حتى أزاحتهـا ، اتسعت الرؤيا ، وتحركت خطوط توسـع لنفسـها مكاناً فى الجدار الطينى ، تخلقت حتى صارت طفلاً صغـيراً فى حجـم الكف، طفلاً غير منفصلة أعضاؤه ، ملتصق ببعضه ! جنـين !! تعـالت ضربات قلبها ، وانفرطت دموع ناعمة على الوجه المتغضـن . قـالت بصوت سمعته كل الكائنات حبيسة الدار : لقد دفنتك منذ زمن نسـيت عـدد سنينه !! بكى الجنين ، ورغم لهفتها ، والحب الذى سال يفتـح كل شرايينها ، ويتدفق فى أوصالها، لم تستطع القيام لتحتضنه ، ولم يخرج الطفـل من مكانه ، مسـحت أنفها السيال بطرف كمـها ، وهـى تجهش حتى شـعرت بحركة فى جدار آخر ، سرى داخلها بهدوء الخوف الموجع ، التفتت نحوه، كان جنيناً آخر يفسح لنفسه مكانـاً ليـبزغ . تذكرته على الفور ، كان حملها الذى نامت على ظهرها كـل لياليـه ، لكنه لم يقاوم ، وخرج من جسدها مندفعاً كبركان منفجـر . صـامت بعده عن الطعام أياماً ثلاثة حتى كادت أن تـذوى ، وأجبرتها أمـها بمسـاعدة الشيخ عيسى أن تفك صيامها لأنه تصرف ضـد إرادة الله ، يومها أعطاها حكيم الصحـة برشاماً بلعته حـتى لا يطـرد جسـمها

الأجنة، لكن الجسد اللعين لم يقبل الاحتفاظ بـالطفل حـتى يكتمـل . وأعطاها العطار أعشاباً كانت تسلقها وتبتلع منقوعها المغلى المـر علـى الريق دون جدوى ، والأجنة تتسـاقط مثل أوراق الخريـف . لكـن خريفها يأتى كل فصول السـنة ، والجدار كل شهور ثلاثـة أو أربعـة يحمـل قطعة لحم بشـرية جديدة . والسنوات تمـر ، وهـى تعـرف الأماكن ، وترتبها ، ولا تنسى أبداً وتفتح حفرة على جنين ، بـل تمـد يدها إلى مكان نظيف لم يسكنه أخ أو أخت من قبل ، وتحفر لتخبئه .

تحركت الأجنة كلها دفعةً واحدةً ، تحول الجدار إلى بيت حـى للنمل كشف عنه الغطاء الترابى فجأة ، اقشعر بدنها ، ونمت البثور عليـه بسـرعة . باتت أشبه بمريض خارج لتوه من معركة مـع الجـدرى ، شعرت بحركة فى جسدها . دبت الحياة فى كل قطعة من بدنها على حدة، وتحركت كل واحدة فى اتجاه منفصل كدوائر الزئبق ، ثم عادت واتصلت كهلاميات المستنقعات فى البرارى المتوحشة البعيدة . الكـل أطـراف ، والكل جسـم ، اتصال وانفصال ، اتصال وانفصال دائـب . لم تعـد تدرى الفرق بينها وأجنتها . خافت والتصقت بالمصطبة ، حفرت قطرات العرق خطوطاً فى تغضنات بشرتها ، تحولت الحوائط إلى عيون ، عيـون ترتعـش وتبرق بالحياة .

قالت : دفنتكم فى الحائط حتى لا تتخطاكم والـدة أو مطـاهر وتنكبس وتيبس فيها الحياة ، والإخصاب ، أو أكون سبباً فى قطع لـبن الإرضاع عن وليد فى شهوره الأولى ، وتتألم أم أو تدعو إحداهن علـىّ بضيـاع صحتى . شلت همى فوق كتفى ، وحملتـه للحـائط فى دارى وأمام عينى . لم أنسكم أبداً ، تعبت من العد ، فكففت عنه ، ولم أعـد

أعرف كم مرة تساقط منى لحمى !!

ابتسمت الوجوه حولها فى كل الأركان، وتحركت الجدران الأربعة نحوها فى خطوات واثقة . احتضنها الجميع بدفء لم تشعر به أبداً طوال حياتها ، حتى فى وجود ابنها الوحيد سالم ، الذى رزقت به بعد طول عناء، وعندما كان أطفال المصيلحى عمدة المنتهى يملئون الدار .

انتعشت الحركة في الدوار صباح الخميس . مسحت صبحية الغبار من فوق الأثاث في الغرف المفتوحة للاستعمال ، بعد أن أغلقت معظم أجنحة الدوار ، وأبدلت ملاءات الأسرَّة ، وتأكدت من وجود أغطية كافية لها انتظاراً لوصول العائلة .. ثم نزلت إلى الحرملك . اصطدمت بأكوام التراب الجافة التي يلقيها متولى فوق أرض الحوش الزلقة لتمتص الماء ، وتغلق الحفر التي ولدها المطر . اختبرت اختمار العجين الذي أعدته مع وديدة في الصباح الباكر ، فلما تأكدت من فورانه أشعلت الفرن . خرجت ستيتة من غرفة اللبن حاملة فوق رأسها "طشتية" الخضراوات التي اشترتها من سوق الأربعاء ، تمشى كالبطة تضغط على قدمها اليسرى فتميل كتفها ناحيته ثم تنقل الحركة إلى القدم الأخرى ، وتسحب معها الجسم إلى اليمين . بدت للجالسين مثل مخرطة ملوخية تتكتك برتابة محببة. منتفخة باللحم و الشحم مثل جوال قطن طرى ، تلهث مقطوعة النفس من المشى خطوات قليلة حتى وضعت حملها أمام وديدة على المصطبة ، و بركت على الأرض بصعوبة ممسكة بركبتيها و هي تتألم . ضحكت صبحية زوجة ابنها قائلة :

ـــ شحتّى ؟! قومى يا ولية اعملى حاجة نافعة فى نهارك ، قرصى

لنا الرغيفين ، الشاروقة حميت ..

ابتسمت فظهرت السنتان الأماميتان الباقيتان فى فكـــها الأعلـــى تضغطان على نظيرتيها فى الاسفل ، و انكمش وجهها مثل ياى ليزيد من بروز أنفها الذى يشبه ثمرة الكمثرى ، وقالت وهى تفرز الخضروات :

ـــ اعملوا أنتم .. شبعت الأرض من دوى حركتنـــا .. شـــهلى وهاتى لنا طبق عاشوراء من يدك الناشفة هذه .

قالت وديدة لصبحية :

ـــ قلبى القمح على النار وانتبهى لرائحته ، ودسى محـــاشر الأرز وراء العيش . فضوها قبل ما يضحك علينا النهار .. اسم الله الأولاد على السكة الآن .

تأملت ستيتة المكان حولها ، وضغطت الكلمات ضاحكةً وهـــى تتأوه :

ـــ أين الشغل ؟! انتهى الشغل و انتهينا معه .

قالت أمينة ، وهى تضع الطيور فى قزان كبير فوق الكانون:

ـــ يوم صحة .. ربنا يبارك ، ويداوموا على الزيارة بدلاً مـــن أن تتكومى فى ركن ، ولا من يسأل عن صحة سلامتنا .. ناولينى يا صبحية العجين ..

تأملت وديدة السُّباط فى الطوابق الثلاثة التى تفتح علـــى الحـــوش وســـط الحرملك ، لاحظت تكسر عدد من القلل الخشبيـــة فى ســـور الشـــرفة العلوية التى تستخدم أحياناً لنشر الغسيل ـــ أثناء الأفراح والعزاء

ـــ رأت الباب الموارب المنكفئ فوق الأحجار ، وقد تآكلت مفصلاته ـــ تذكرت أنها تريد أن ترسل للنجار ـــ مسحت بعينيها البناء ، الفطر يلتهم الجير من فوق الجدران التى لم تطل منذ سنين بعيدة . شعــرت بخشونــة الأخشاب وبهتان لونها . اختفت بعض قوالب القرميد ، فبدا سور السطح الداخــلى من وراء الشرفة مثل عجوز سقطت أسنانه . تنـــاثر القــش واحتل المساحة كلها ، وعششت أزواج العصافير واليمام بين فتحـــات الدرابزين . سكن الصمت السطح الذى كان يعج بقناني الطيــور علــى أشكالها، وكان ظهور وديدة فيه للحظات كفيلاً بإحداث ضجة يســمع صداهــا كل من فى الدوار ، تحيط بها الطيور من كل ناحيــة، وتزعــق طالبةً الحب من يديها ..

لم تعد قادرةً هى أو خادماتها على الصعود إلى الطابق الثـــالث ، نقلت العشش إلى الفناء ، واحتل بعضها غرفة أم طه التى كانت ترتـــاح فيها أثناء النهار .

اختفت شجرة الجهنمية المتسللة من الحوش عبر الطوابق كلـــها ، واختفت معها أصص الزهور التى كان يجلب الجناينى شتلاتها أيام أم طه ، وكانت وديدة تحرص على استنبات بذور الريحان فيها وتزين به غرفتها .

تنهدت أمام شرفة الطابق الثانى المغلقة ، تركت بصرها يبث الحياة فى ذكرياتها . منذ استشهد عبد الحكيم الأخ الأصغــر لطــه زوجـــها ، ورحلت زوجته الفرنسية مارى إلى بلدها مصطحبة طفلتهما الوحيـــدة ، عـــديلة ، التى لم تأت لزيارة المنتهى إلا مرة بعد أكثر من عشرين عامـــاً من الحادث ، فتحت فيها بيت أبيها ، ومرت به بسرعة لا تكفى كـــى تبنى معـــه أواصر محبة ، وخرجت إلى أحضان عمها طه لا ترغـــب فى

البقاء فى المكان المعبق بذكرى الدم والرحيل والاغتراب .

ما زال الطابق مغلقاً من ناحية الحوش ، رغم أن إسماعيل تـــزوج فيه، إذ سعت زوجته سوسن إلى العزلة مـــن اليـــوم الأول لوصولهـــا ، وظلـــت وديدة تقاوم الانقسام حتى استسلمت فى النهاية، بعد أن جاءها إسماعيل يطلب فتح باب جانبى فى ردهة السلم ، كى تستعمله عائلته دون المرور بوسط الدوار ، قائلاً لها :

ــ اشتريت دماغى يا أمى ، وبلا مشاكل .

لم تفهم وديدة أبداً غيرة سوسن من اهتمام العائلة بليلى أرملة عبد الحميد ، تصورت أن استشهاد ابنها ، تاركاً جنيناً فى بطن عروسه ، لابد أن يحنن القلوب على الأرملة المكلومة التى وهبـــت حياتهـــا لطفلـــها ، ورفضت الزواج . لكن سوسن لم تكف عن المشاكل فى كـــل زيـــارة لليـــلى، ثم مدت هذه المشاكل إلى باقى العائلـــة ، حـــتى نجحـــت فى إجبارهم على مقاطعتها .

قالت وديدة لنفسها : "يكون الجمال أحياناً نقمةً ، لا نعمة!"

استعادت وديدة بصرها الذى يتلطـــع فـــوق الجـــدران الملتهبـــة بذكريات موجعة ، لكنه ساهاها وسرح إلى الطابق الأول المحتفظ بنصف حياة خافتة ، بعد أن أغلق جناحه الأيمن الذى سكنه حماها الحاج عبـــد القادر وعائلته لسنوات طويلة ، ثم زوجوا فيه حيدر . تذكـــرت إقبـــال زوجته التى رحلت أثناء ولادة ابنته بيللا ، وحيرة حيدر حتى زوجته أخته نعيمـــة لكريمان ، ورحيل العائلة كلها إلى القاهرة بعد ذلك . اعتصـــر قلبها ألم يأتيها كلما وقع بصرها على الشقة المغلقة التى شهدت فيها أجمل

ذكرياتها مع أهل زوجها .

رحل الصبيان والبنات ، وتفرقوا وراء الرزق . اكتفت وديدة بشقتها الصغيرة . لم تعد فى حاجة لأكثر من غرفة نوم واحدة لها ، والثانية لمن يأتى لزيارتها من الأبناء ، وصالة بسيطة للمعيشة . أغلقت المقاعد المطلة على السُّباط ، تفتحها للنظافة صباح يوم الخميس إستعداداً لوصول أبنائها وعائلاتهم ، ونعيمة أخت زوجها التى تحرص رغم وهن عافيتها على الزيارة كلما استطاعت .

حاربت وديدة الفناء الذى يسكن الجدران ويعيث فى الأمتعة قدر ما تستطيع ، هى ومساعداتها اللاتى وهَنّ معها ، حتى عجزت عن إدارة الدوار ، فأغلقت معظم أجزائه تدريجياً ، ولم تسلم الفيلا الصغيرة التى استقبلت منذ بناها طه فى الحديقة الخارجية مبيت الأغراب ، وفتحت لتحقيقات البوليس فى حادث أبى مندور من الإغلاق . الشكمة هى المكان الوحيد فى الدوار الخارجى الذى بقى مفتوحاً ، وإن أصابه الشلل التام . فقدت بريقها القديم وألقها منذ بناها القاضى المصيلحى الكبير كى يستقبل فيه مريديه ، وأحاطها بحدائق تصل إلى النهر ، ثم حولها ابنه عبد القادر عمدة المنتهى إلى قصر فاخر ، تحتل الشكمة فيه جزءه الأمامى الذى شهد بذخه وزيارات أغنياء الناحية وعلمائها، وعاصرت حكمة طه واستشهاد عبد الحكيم برصاصة فى مكتب أبيه ، بعد عملية انتحارية أداها هو وجماعة اليد السوداء ضد الإنجليز ، فتعقبوه ومشطوا القرى المحيطة ، وأشعلوا النيران فى كثير منها ، مما اضطره للانتحار حمايةً لقريته وأهله من بطش ذوى الوجوه الحمراء .

شهدت الشكمة التى تآكلت ستائرها الحرير ، وخفتت ألوان

الرسوم فوق جدرانها ، عزلة طه الطويلة بعد رحيل الضجيج وتقدم العمر. أُغلقت حجرات النوم بها ، وتركت مائدة الطعام التي كان يلتف حولها ثلاثون تشكو الوحدة والتقشف ، وتحفرت أرضية الشكمة الرخام وتقلقلت بعض أجزائها بفعل الرطوبة والزمن .

مكان وحيد لم يجرؤ أحد على إغلاقه هو غرفة المكتب . حرصت وديدة على أن ينظفها صادق القهوجي بعد أن اشتكى البطالة من قلة الضيوف ، ثم يعيد فرش الكرويتات في شرفة الشكمة استعداداً لاستقبال زوار إسماعيل .

سرحت وديدة مع الطريق الخارج من الحرملك إلى الدهليز والمخازن والزرائب التي احتفظت بمواشيها . شاهد وحيد على العز القديم. اختفت الخيل من الإسطبلات . ولم يبق فيها غير "كارتّات" متقادمة تجرها البغال ، أغلقت مخازن الغلال على القليل الذي يكفي العائلة ، وتحولت مخازن الفول التي كانت تخيف الحمائم بأصوات المدشات إلى مخازن للمركزات وأعلاف الدواجن الحديثة التي تأتي بها العربات من الميناء مباشرة ، أو من المصانع خارج المنتهى . فلما زاد ضجيجها نقلت إلى البناء الصغير الذي كان يضم أيام العمدية السلاحليك ، وغرفة التليفون والجراج ، وأضيف إليه صف من الغرف عزلت الحديقة المطلة على النهر عن الشارع الرئيسي . وامتد بجوارها سور من النباتات موازٍ للنيل ، توقف عند شجرة شعر البنت وخميلتها التي يرقد تحتها قارب راضي الصياد . وغيَّر هذا التشكيل من جغرافية المكان ، وأوجد مساحة نصبت فيها كارويتات خشبية أُطلق عليها البورصة ، يجتمع فيها مربو الدواجن مساءً ، للقاء التجار القادمين من البلاد

الأخرى، ويحددوا فيها سعر اليوم ساعة بساعة .

اختلفت ملامح القرية كثيراً منذ اللحظة التى دخلت فيها الدجاجة البيضاء ، التى تجن وتنمو فى شهر ونصف بدلاً من ستة أشهر كما كـــان يفـــعل أسلافها . بنى الفلاحون مزارع صغيرة فوق أسطح البيوت الطينية تضـــاء لها الأنوار ليلاً ، فتحول ليل القرية الساكن إلى نهار لـــه طنـــين يفوق النهار الربانى . هربت الذئاب من القرية واختفت الثعالب ، وأصبح ظهور ثعلب أو ذئب كفيلاً بإطلاق ضحكة طويلة تمسح المكان الـــذى أوشك أن يخرج من الحواديت .

كررت أمينة مناداة وديدة بصوت عال لم تسمعه . اقتربت منـــها وسألتها : خبزنا العيش . ندخل الطيور الفرن ؟

انتبهت وديدة من استغراقها الطويل ، وقامت تدور معهن حـــتى أتممن مهماتهن ، وزعيق الأطفال وركضهم يملأ فضاء الرواق. يتسابقون حتى ارتموا فى حضنها ، وانتعشت حوائط الدوار بارتعاشة فرح ، حـــتى خيل لوديدة أن القش المدهوك بالطمى ينبض ، وأن البناء الوقور الأشهب تخلى عن تزمته ورزانته، فتبادلت معه ابتسامةً فهماها معاً .

لم يعرف أحد على وجه الدقة من الذى لاحظ أن قاع النهر — على بعد خطوات من البورصة أمام الدوار — تسطع فيه جمرات ثلاث مشتعلة تثقب الليل بجسارة المحارب ، ثابتة ، تشع ضياءً ووهجاً كأنه قادم من نجمة بعيدة ، يومض بنبض يثير الحنين ويحز القلب ، ناعم كالحلم ، برىء ، ينفث النور ويرش السراب على المنتهى . تراه العيون القادمة على السكة فوق طريق المعاهدة، يراوغ المسافر حين يهبط من القطار ، وينادى البعيد ، يلاعبه ، يثير فيه فضول الاكتشاف ، ورغبة معرفة المجهول ، يغويه أن يقترب أكثر فأكثر .

جمرات ثلاث فى قاع النهر ، الماء لا يجرفها . لم يظهر القمر فى تلك الليلة ، بحثوا عنه فى سمائه ، غاب أياماً ، وعاد صغيراً لا يعكس شيئاً. ازداد لمعان الجمرات ، تحولت إلى شموس صغيرة ، جلتها حركة الموج . برقت بومضات نارية وسط السواد المحيط ، تشمموا حضورها الجليل وبهتوا . انتشر الخبر ببطء لا يناسب الحدث ، تحلق بعض الصبية أمامها ورموها بحجر ، غاص بسرعة دون أن يهتز الوهج . رموها ، ورموها ، ضحكوا .. . قالوا هى جنية البحر جاءت للغواية متنكرة.

فى الزمن القديم كانت تتستر بالظلام عند الجسر العتيق قرب الســـاقية . زحف الضوء وحولت مزارع الدواجن ليل القرية إلى نهار ، فأين تهرب ؟ وكيف تستدرج شاباً والنور الساطع يحرقها .. ؟! ربما تسكن الماء الآن ، ربما هى النداهة ..

ـــ ابتعدوا .. ابتعدوا .

قالت عجوز واقفة لم ينتبه أحد إلى ملامحها ، وأضافت :

ـــ هذا نذير .. انتم لا تعلمون شيئاً . هو إعلان من النهر برحيل ثلاثة من كبار القرية . كان هذا ما يحدث فى الزمـــن القـــديم قبـــل أن يفســـد الزمن ، وتسكن قلوبكم الغمامة . لا يرحل عظيم دون نبوءة .

قال طارق مندور : سأغوص فى الصباح لأستكشف الأمر.

ضحك علاء المصيلحى بحماس : وأنا معك .

هز وائل منصور رأسه متحدياً : إن كانت بأحدكما قوة لاختراق الماء فى مكان كهذا !

قال طارق وعلاء معاً : غداً نرى !!

ضحكوا ورموا الأحجار .

تململ الجالسون فى البورصة ، والشبان يعيدون الحكاية . حســـبوا الأسعار ، ونصف آذانهم تعى ما تردد عن الجمرات ، لكن أحداً منهم لم يتحرك ليرى . أجلوا اليقين إلى أن تنتهى أشغالهم ، رغم بقايـــا دبيـــب الميراث العتيق الذى ينغبش فى الصدور ، ثم نامت منتهى نصف إغفـــاءة

يقلقها الحنين . لكنها لم تكن نفس القرية التى كانت منذ سنوات قليلة تنام أكثر ، وتتكلم أكثر ، وتحب وتحلم .

ذاب وهج الجمرات مع أشعة الفجر ، واختفى مع وخزات الظهيرة الهادئة . احتار الشباب ، أين مكانها ، وتساءلوا إن كانت هى قطع مرايا أو معادن مدفونة ، انجرفت مع حركة الموج ؟! لكنها عادت لتسطع مع الغروب . سكبت شروقها ببطء استلزم ساعات الليل ، وقفوا أمامها مترددين : هل ينزلون الماء فى العتمة؟ وجلسوا ، رغم انهم لم يتذكروا ملائكة النهر ، ولم يفكر واحد فى استئذانها كما اعتاد الأقدمون . رتبوا أحجاراً تشير لها ، وعادوا فى الصباح ، مشوا فى طرقات القرية مستعينين بإشارات غامضة تهمس أرواحهم . تبختر شاب أسمر مختال بعضلاته أمام بؤرة بزوغها ، انتظر أن يتجمهر الرفاق حوله . لم يسأل نفسه كثيراً عن المصير الذى ينتظره ، تحت اللجة المرتعشة بريح الصبح . ترددت فى صدره أبيات كان قد قرأها لويتمان تقول :

ليس من مستهل أفضل من مستهل اليوم

ولا من شباب أو عصر

ولن يأتى كمال كالذى هو الآن

ولا جنة أو نار

الاندفاع ، الاندفاع ، الاندفاع للعالم

أبداً هو الاندفاع الولود .

خلع طارق مندور الجلباب ، وثبت بصره إليها بعينين والهتين ، ثم قفز مرحاً سعيداً ، بعد أن عبر وجوه الرفاق بزهو .

سكت الجميع فجأة . انقلب يقين شبابهم المتقد حماساً إلى خوف، ألجم ألسنتهم ، وغلف قلوبهم بستار الصمت . خرج باسطاً ذراعيه ، صارخا بفرح :

ـــ لم أجد شيئاً .

اندفعوا يتصايحون :

ـــ انزل مرة أخرى ، ابحث جيدا فى الطين .

تجمع أطفال الناحية وشبابها ، ووقفت بعض النساء يستطلعن الخبر، وتلطع عدد من الفلاحين كانوا فى طريقهم للحقول . وضع فمه فوق الماء ، ونفخ بأصوات متقطعة :

ـــ ووووو .. .ووو

كسب القلب الصافى معركة الخوف ، مع وخزة جاءت من أعماقه تحثه على التراجع . أشرق وجهه ، وهو يخترق الماء الثقيل المحمل بالطمى مرة أخرى ، وخرجت قدماه ترفرفان كل فى ناحية ، ثم انزلقتا ، واختفتا تحت اللجة . مر الوقت دون أن يتبادل واحد النظر مع زميله ، ظنوا أن دقات الساعة فى قلوبهم قد عطبت، إلى أن شاهدوا يديه المحملتين بالطمى مندفعتين تطرطشان الماء ، ورأسه ينتفض ويقول لاهثاً :

ـــ حتى سمكة صغيرة لم تمر من هنا !

خلع الأطفال ملابسهم ، تصايحوا ، قفز أول صبى دون أن يعبأ ببهتان خطوط قلم الكوبية التى خططها له أبوه فى الصباح على جسده، ووراءه الجميع . اختفى الخوف ، وتعالت الضحكات والقفشات :

ـــ حاسب من الجنية يا جدع !

لعبوا حتى شبعوا ، وملوا ، ثم ركضوا عرايا فوق الجسر ، حتى عفر التراب أجسادهم فى محاولة لتضليل الأهل ، وإخفاء خبر استحمامهم فى النهر .

عادوا فى الليل . تحداهم الشريان العنيد ، وسطعت فوق وجهه أقمار ثلاثة صغيرة ، برقت كحبات لؤلؤ فى صدر أميرة ، نفثت أشعتها فوق الماء الأخضر الزيتونى الذى يميل إلى السواد بسرعة .

ضربت القرية أخماساً فى أسداس ، وشككوا فى صحة نزول الفتى إلى الماء ، ونقلت العجائز الخبر إلى الرجال العائدين من المصانع فى المدن المجاورة ، وقلن لهم أن خمسين شاباً مسحوا النهر ، وأنهم استعانوا بمركب كبيرة يستريحون فوقها كلما تعبوا من الغوص ، وأنهم كادوا أن يقلبوا قاع النيل ، كما تقلب الأم جوارب ابنها المتسخة لتغسلها ، وأنهم حرثوه حرثاً ، وأنه لو كانت هناك آلات فى مدن أخرى تستطيع تصفية الطمى ميكانيكيا لجلبوها ، وأن ذلك كله سيجلب الخراب على القرية التى لا تتعظ .

وأضافت عجائز الدواوير الكبيرة والقصور ، فى الناحية كلها ، شماتةً عجيبةً ، قائلات أن الخراب آت لا ريب فيه ، خاصة أن الشباب يكسبون جنيهات كثيرة ، ويأكلون لحوما ، ودجاجاً ، وفاكهة ، وهى

أشياء كانت تؤكل فى المواسم وبيوت الأغنياء حتى وقت قريب ، وأن نور الكهرباء الذى يطل من منازل القرية طوال الليل ، والذى غمرها بنور ينافس الضياء الربانى كى تربى الدواجن بالطريقة الجديدة . كلها أسباب تستدعى نذير شؤم، وأن النذير جاء عبر النهر ، فليتقوا الله وليعودوا إلى سيرة حياتهم الأولى !!

لكن كلمات العجائز لم تجد صدىً لها غير بسمات فوق شفاه النساء والرجال على السواء . حتى الأطفال الذين عشقوا حكايات أمنا الغولة وطاقة عم متولى والشاطر حسن ، والوابور المولع وحمار أبو صالح ، لم يعودوا يجلسون فى أحضان الجدات ، و لم يأبهوا بما قلن ، وأصبحت الحياة الجديدة أهم لديهم من عالم الجن والسحر والخوف، وهم يعرفون الآن كيف يحسبون النقود ، ويقايضون على ساعات العمل ، ويعرفون أيضاً كيف يحكون حكاية الثلاث جمرات وهم يضحكون .. ..

قطع عبد الله المصيلحى الطريق من المنتهى إلى البحيرة فى زمن لا يصدقه كل من عرف عن عبد الله التمهل والاتزان . حاول السيطرة على أعصابه ، وهو يفكر أنه ورط قريته بكاملها فى هذه اللعبة التى قال عنها أبوه أنها لعبة قمار ، تكسب فيها كل شيء أو تخسر كل شيء . كان مثل طه حاد الملامح ، لكنه ورث شعراً أحمر مجعداً من جده عبد القادر ، وانتشر النمش على بشرة وجهه التى لوحتها الشمس . وعلى عكس طه الذى يربك محدثه ، إذا ما نظر إليه ، يبعث عبد الله فيه الهدوء، والثقة ، بعينيه المسالمتين الصافيتين ، فى لون البندق . لم يخطر على باله أن زيارته لصديقه فرغلى النادى ـــ فى أحد الأيام ـــ ستحول مسار المنتهى ، وتنقلها ، ربما إلى الأبد ، إلى عالم آخر لا رجعه فيه لكل ما اعتادوه على مر العصور ، منذ أقام أول رجل عشة بجوار النهر فى هذه البقعة من الأرض . تلك الزيارة التى شاهد فيها مزرعة الدواجن البيضاء لأول مرة فى حياته ، وعرف أنها تنمو فى خمسة وأربعين يوماً فقط ، وأنها تعطى ربحاً وفيراً ، فطالب صديقه بمشاركته فى بناء مزرعة فى المنتهى قائلاً:

ـــ طوال حياتى أتمنى إقامة مشروع ، يشدنى إلى المنتهى ، بدلاً من

الركض وراء الرزق فى البلاد ، مع شركة الوادى للمقاولات .

لكن فرغلى اعتذر بضيق وقته قائلاً :

ـــ اقبل ضيافتى حتى تكتسب الخبرة فى إدارة المزرعـــة ، ثم ابـــنِ وحدك مشروعك .. .

عاش عبد الله فى البحيرة شهراً ونصف الشهر ، وتردد عليها شهراً آخر أسبوعياً ، حتى تم البيع ، والتطهير ، وإدخال كتـــاكيت جديـــدة . عنـــدها قرر مفاتحة أبيه فى بناء مزرعة ، اختار لها أرضا بجـــوار جـــرن القمح ، لكن طه فاجأه بالرفض :

ـــ لن نبيع "فراخ" فى آخر الزمان .

استعان عبد الله بأخوته الذين أعجبتهم الفكرة لإقناع والده ، لكن طه لم يتزحزح عن رفضه . وتعجب الجميع لان طه هو الـــذى أدخـــل الزراعة المتطورة إلى القرية ، وبنى فيها مناحل العسل وعصارات الياسمين ، وجـــلب لزرائبها سلالات ممتازة من المواشى ، وعاش يتابع كل جديـــد فى تهجين النباتات . ولم يفهموا أبداً سر الرفض ، وهـــم يعلمـــون دون مناقشـــة التفاصيل مع أبيهم أن الأرض تخسر منذ عجز طه عـــن إدارة عمالها ، وحددت الحكومة أسـعار بيع المحـــاصيل ، وأجـــبرتهم علـــى توريدها للجمعية ، وأن التجـــارة هى التى تعوض ما ينفـــق عليـــها .. فلماذا التشدد إذن ؟!

لم ييأس عبد الله من استمالة أبيه ، ورفض نصيحة أحد الأصدقاء بشراء أرض لمشروعه ، حتى رحل طه ، فبنى مزرعتـــه الأولى ، وتبعـــه أخوته . وقلدتهم القرية بكاملها ، وأصابها سعار البناء وهى تـــرى دورة

الإنتاج السريعة والربح الكبير ، حتى جاء يوم ضحت فيه المنتهى بكروم العنب ، وحدائق المانجو ، التى زرعتها أثناء الحرب العالمية الثانية. اعتمد الفلاحون على تجربة عائلة المصيلحى دون أن يحسبوا حساباً لمخاطر هذه التجارة ، ولم يخطر على بال أحدهم أنه سيواجه مأزقاً كالذى يواجهه اليوم ، بسبب توقف أكبر مصانع العلف عن الإنتاج لصيانة آلاته، وتأخر وصول شحنات فول الصويا إلى الموانئ .

نعق الرعب فى سماء القرية . رقصت السيارات فى الطرقات بلا هدف . اجتمعت فى لحظة أمام البورصة ، ثم انتشرت واختفت فى المزارع والأزقة ، ثم عادت إلى التجمع فى البؤرة لوهلة ذابت بعدها فى المدى .

وقف إسماعيل المصيلحى فى المخزن يشرف بنفسه على تحميل عربة نقل صغيرة بأجولة العليق ، بعد أن أمر بتخفيض الكمية فى كل جوال إلى النصف . تبدل إسماعيل كثيراً بعد موت طه ، وتحمل مسئوليةً لم يتوقع له أن يتحملها . وكانت وديدة كلما رأته مهموماً بأمور العمل ليل نهار ، تتذكر قول طه : "فى الحياة انقلابات يا وديدة . قوانين الدنيا لا تقف عند التراكم وحده ." لم تفهم أبداً رنة الحزن فى صوته ، ولم تعرف أنه يحمِّل نفسه جريرة موت أبيه . هو وحده الذى عاش تلك اللحظة الرهيبة غير المتكافئة . هزمه طه ومات ، لكنه كشف عن أصالة ما ، دفينة ، لمعت فى لحظة الاختيار ، وقدمت نفسها بقوة صهرته "تركته حياً" يقول لنفسه ، ثم يضيف :

ـــ لكنه مات بعد ساعة ، فمن قتله ؟

يختنق صوته : لو يعود أبى ويسامحنى ؟

هو سامحنى . نعم ، سامحنى ، قال أريدك رجلاً .. سأكون هذا

الرجل ، فيرتاح فى قبره .

تقول وديدة لنفسها "ليت إسماعيل يستعيد مرحه ، وحتى نزقـــه ، ما بال رجال هذه العائلة يشيخون فى صباهم ؟!"

توقفت سيارة فارغة أمام المخزن ، ونزل ســـائقها حســـين أبـــو كحيلة، وبادر إسماعيل بالحديث :

ـــ وزعت العلف على المزارع فى حوض رميح ، وفى البر الثانى ، وسأذهب بكميه أخرى إلى غرب البلد ، وإن كان العليق لن يحتمـــــل فى كل عنبر أكثر من ساعتين .

ـــ تأكد يا حسين بنفسك انك لم تنس عنبراً واحـــداً صغـــيراً أو كبيراً . الجميع فى خطر ، وكله فى رقبتنا .

ـــ ألم تصل أخبار ؟

ـــ لم يصلنا شيء بعد .

ساعد السائق العمال فى نقل الأجولة إلى سيارته ، وانطلق مسرعاً نحو الغرب . نظر إسماعيل إلى ما تبقى فى المخزن ، وقال للعمال :

ـــ ستموت الكتاكيت فى المزارع إذا بقينا على هذا الحال ، دون وصول معونة حتى الصباح .

دخل منصور فزعا : اعطنى أى شيء فى عرضـــك يـــا ســـيدى إسماعيل!!

ـــ روّق يا عم منصور . استلم نصف جوال ، وإذا وصلـــت أى كمية سأرسلها لك فوراً ، حمل الحمار يا إبراهيم لعمك منصور .

دمعت عينا الرجل ، وخرج وراء حماره . تلطع عدد من الشباب بجوار المخزن لا يعرفون ماذا يفعلون ، وعامل التليفون لا يكف عن طلب الاستغاثة من الشركات . ساءت الحالة فى الغروب . عاد زوج أخته فريد شوكت باتفاق مع شركة على إرسال عشرين طناً بعد يومين ، ولم يتمكن من استلام أية كمية تبل الريق . ودفعت لهم بنورة ثمن عشرة أطنان لدى إحدى الشركات فى القاهرة ، على أن ترسل بمجرد وصول الشاحنات من الميناء . وصل حلمى مع سيارة محملة بأربعة أطنان سمك، ولحق به عادل بن فريد شوكت ، وبصحبته سبعة أطنان ذُرَة صفراء . وبقيت مشكلة فول الصويا — الذى يخلط معهما ليشكلوا العلف — لم تحل .

عاد كل من وصل لركوب سيارته منطلقاً إلى مدينة أخرى . علق التوتر بأجواء القرية ، مثل عنكبوت يحكم مد نسيجه الترابى فوقها . تعلقت آمالهم برحلة فريد شوكت إلى دمياط لشراء مركزات رغم غلاء ثمنها ، لكن الساعات مرت دون أن يُسمع منه أى خبر ، حتى فُرغت المخازن من العليق تماما .

وقفت أم السعد تراقب الدجاج وهو يلتهم آخر الحب فى العلاّفات. لعنت اليوم الذى باعت فيه مصاغها ، وأنفقت نقود تحويل البنك — التى أرسلها زوجها محروس من العراق — على بناء المزرعة فوق السطح ، وركضت إلى البورصة فوجدتها خالية ، ولم تجد أثراً لجوال واحد فى مخزن إسماعيل . سألت العمال فأخبروها أنه ذهب حالاً إلى مزرعته عند العيون . راحت تركض ، وهى تتلفت وراءها ، علها تلمح سيارة تقلها هذين الكيلومترين ، حتى وصلت إليه ، مقطوعة

النفس، فوجدته حائراً أمام مزرعته الخالية من الطعام .

سألته جزعة ، وقد تبخر آخر أمل لها :

ــ هل نتركهم يموتون أمامنا دون أن نفعل شيئاً ؟ مالى ومال عيالى ، وغربة محروس .

انخرطت فى بكاء مر ، وهى تخفى وجهها بطرحتها السوداء . قال إسماعيل :

ــ اذهبى مع السيارة إلى الدوار ، سيعطيك حسين نصف جوال ذرة صفراء . أطعميهم وربنا يفرجها .

قفزت إلى السيارة غير مصدقة ، تستحلفه أن يعينها ولا ينساها .

انتصف الليل ، وتجمع الفلاحون فى البورصة يفكرون دون نتيجة. علا أزيزهم وهم يقلبون الأمر : هل يعقل أن تكف أكبر المصانع عن الإنتاج ، ويتأخر الشحن فى المطارات والموانئ معاً . كيف اجتمعت كل أسباب النحس فى لحظة واحدة ؟!

قال طارق مندور : من يعلم إن كان هذا بالصدفة ، أم بتدبير أحد المستوردين ، حتى يولع النار فى السوق .

تصاعد صوت ياسر الفحام : أرواح يا عالم . أرواح خفيفة ، ألعن من الأطفال . من يجرؤ على اللعب فيها ؟

قال فرج أبو شعيشع : طوّل بالك .. فرجه قريب .

وصل عبد الله المصيلحى إلى المنتهى بعد أن انتصف الليل بساعة ، جالباً معه سيارةً من مخزن صديقه فرغلى النادى فى البحيرة . خايله

تحلق الناس حول شـــىء لا يتبينه ، حتى توقف أمام البورصة ، وعــــرف فيه السيارة التى دفع ثمنها فى الصباح وهى تفرغ حمولتها للمربين . عـــلا صياحهم عند رؤيته ، فرحين بازدياد الكمية ، لكن إسماعيل قال حاسمـــاً الأمر :

ــ نصف جوال لكل مزرعة صغيرة وجوال للمزرعة الكبـــيرة ، ننقذ الدجاج حتى الصباح ، وبعدها ربنا يفرجها .

تقبل الفلاحون الأمر على مضض ، وانصرفوا ينقلون العليـــق إلى مزارعهم . وصل فريد شوكت بالمركزات مع خيوط الفجر ، وفوجـــئ الجميع بزيادة سعرها غير المتوقع .

تكاتفت القرية أمام الخطر : فى البداية أغلق كل واحد مخزنه على ما عنده ، ومع اشتداد الأزمة ، سرحت الأجولة تتنقل من مكان لأخـــر لإنقاذ "المحصول" من الموت ، ووصل الأمر إلى المواجهة ســـاعةً بســـاعةٍ لكسب وقت إضافى ، تكاتفوا ، فلم تشعر القرية بالفرق بين صـــاحب المزرعة التى تربى ألف كتكوت والتى تربى مائة ألف ، فالكل سيخسر كل ماله .

تناقشوا طويلاً فى البورصة ، كيف يجلبون فـــول الصويـــا ، ولم يغمض لهم جفن وقلوبهم متوجسة من الآتى .

وصل الحاج بشير بسيارة تجر مقطورةً كبيرةً محملة بفول الصويـــا من الإسماعيلية فى منتصف النهار ، واشـــترى من إسماعيل الذرة الصفراء، والسمك . لم يتذكر إسماعيل فى هذه اللحظة حـــادث هـــروب بشـــير قهوجى العمدة من الدوار فى الثالثة صباحاً عارياً ، بعد اكتشـــاف أبيـــه

تسلله إلى الحرملك واعتدائه على خادمتهم روايح ، واختفائه لسنوات عن البلدة ، عاد بعدها فوق سيارة تويوتا مرتدياً زى كبار المعلمين فى السوق . ولم يسأل إسماعيل نفسه من أين أتى بشير بكل هذه الأموال ، ولقب الحاج الذى لا يعرف أحد إن كان صحيحا أم لا ؟!

نزل بشير يخلط العليق مع العمال بنفسه ، ويبيعها للفلاحين بأربعة أضعاف السعر . انفرجت الأزمة قليلاً بوصول عشرين طناً أخرى ، ووصلت سيارات التجار الأغراب ــ الذين جذبتهم الأزمة ــ تحمل العلف بثلاثة أضعاف السعر ، اشتراها الناس مضطرين ، مضحين بالمال ، ومدركين لحجم الخسائر التى ستنجم عن زيادة التكاليف إلى هذا الحد. قال منصور :

ــ كله إلا الموت .. خسارة خسارة .

ثم بدأ التذمر والتردد من الشراء بالسعر الجديد الذى يضارب عليه بشير والتجار الأغراب مع خفوت الأزمة . وسكنت القرية روح أخرى مع وصول أنباء عن نزول الطائرات ، محملةً بالفول ، وبقرب تدفق الإنتاج فى المصنع الكبير . ولاح فى الأفق للمرة الأولى منذ أيام ، أمل فى الراحة بعد التعب .

انتهت الأزمة ، لكنها فجرت فى البورصة أسئلةً كثيرة ، كان أولها: لماذا ننتج شيئاً يعتمد على الغير ، فنكون تحت رحمته ، ورحمة سماسرة استيراد أىٍّ من مكوناته ؟

وراح الكل يفكر فى بديل ، هل هو البط ؟ أو الأرانب ؟ أو منتج آخر ؟

قال عبد الله ضاحكاً : الثعالب ، أحد الكبار يربي الثعالب لكـــي يبيع فراءها ، ما رأيكم ؟

سكون مفعم بحيوية ذبذبة خافتة لكائنات غير مرئيـــة امتلكـــت المسرح وقت أن كَنّت الأحياء الأخرى ، تســـتمتع بحريـــة الوجـــود ، وتترقب فترة الصحو القادمة . صدرت الحركة الأولى مـــن وراء بـــاب الشكمة فى دوار طه المصيلحى عمدة المنتهى السابق . صوت هزيل منظم لقدمين اعتادتا الحياة العسكرية . خرج محمود المصيلحى وجلس فـــوق الكـــراويته يستقبل الغروب قبل وقته بزمان . يعشق هـــذه اللحظـــات الهادئة ، وينسحب إلى داخل نفسه كأنه ما قام من نوم القيلولة بعـــد ، يستكمل اجترار ما فات دون كلل ، لا يعرف واحد من أهل الدوار ، أو الأصدقاء إن كان يعى ما يجرى أو لا يعى . لا يعرفون إن كانت كلماهم ومداعباهم له تصله ، أم أن هزة رأسه تلك تأتى مـــن ضجـــره بهـــم . فشـــلت كل محاولاهم لإعادته إلى المرح أو المشاركـــة فى أى عمـــل أو حتى فى الحـــوار ، يحتفظ فى ذاكرته لكل منهم بجملة واحـــدة لا غـــير تختصـــر علاقته به ، يقولها فوراً إذا ماباداه أحدهم بحديـــث ، وتتكـــرر كلما التقيا ، ولا شىء غير الصمت . وحين يتأكد الجميع مـــن غيـــاب عقله عنهم ، يفاجئهم بتعليق يحمل بـــؤس الحكمة ومـــرارة طريقـــها . تقول أمه وديدة : "انكســـر يا حبة قلبى .. حزين اتركوه لحاله" . فـــإذا

جادلها أحدهم تضيف : "حزين على نفسه ، على أحواله ، على أحوالنا .." ، تحميه من التواصل معهم ، وتنصرف به أحيانا لتجالسه فى مكان منعزل . هى الوحيدة التى صدقت أنه يعى كل شىء ، كانت تعرف هذا من نظرة عينيه ، لا تزعجه بكلمات كثيرة ، لكنها توصل له ما تريد باختصار فينفذه على الفور . لم يقدر الأبناء هذا أبداً، وكثيراً ما حاولوا إقناعها بأنه لا يفهم ، لكنها كانت تطلب منهم الانصراف إلى أشغالهم وتجلس إليه تشكو همومها ، ثم تربت على كتفه

فيقبل يدها شاكرا بهدوء . حرصت وديدة رغم وهن عافيتها على جلب ملابس جديدة أنيقة له ، تساعده على ارتدائها بنفسها إذا عزف عنها . كانت هذه هى نقطه الخلاف الوحيدة بينهما ، إذ تبدلت أحواله بعد الحادث ، وأصبح زاهداً فى كل ما كان يحبه . تستشعر فيه إحباطاً تحاول أن تخفى إدراكه عن الآخرين ، وبؤساً يحمل آلاماً غير بشرية تتمنى من كل قلبها أن يفصح لها عنها ، وتدرك تمام الإدراك أنه لا يستطيع الآن . راهنت بكل قدرتها على استشراف الآتى ، والامتزاج بعناصر الكون حولها ، على لحظة قادمة يستطيع فيها التغلب على كبريائه والاعتراف بالهزيمة ، لكى يبدأ من جديد. وانتظرتها بصبر عرف عنها مدى الحياة . تمنت فى أوقات كثيرة أن يكون زوجها طه عمدة المنتهى على قيد الحياة ، حتى يساعد محمود على اجتياز أزمته ، "لو كان طه حياً لعرف كيف يضع يده على الجرح ويفتحه ليجف ، ما عهدت خبرته عند مخلوق قط . كيف كنت ستواجه هذا الموقف يا طه ؟

علاقة الأبناء ببعضهم تختلف كثيراً عن علاقة الأبوة، رغم تربيتنا لهم على الحب ، هرستهم زحمة الحياة . كلمتك يا طه كانت ستنزل علينا جميعاً مثل سيف يحدد دور كل منا تجاهه ، خلق محمود سياجاً من الصمت منع

الاقتراب منـــه ، مسافة خدعت أخوته فظنوا أنـــه تائـــه ، واســـتكانوا للتفسير الأسهل ليريحوا ضمائرهم" .

تتذكر فى وقت أخر عجز طه عن منع أخيه رشدى من الابتعـــاد إلى الخارج ، بعد أزمة سلاح الفرسان ، واختلاف وحدات من الجيـــش مع عبد الناصر ، ثم تركه للجيش نهائياً بعد ذلك : "رشدى ومحمـــود لا يختلفان كثيراً ، كأن محمود هو ابن رشدى وليس ابن طه ، ماذا حـــدث لى؟ كنت أتقبل الأمور حولى وأتكيف معها ، أين راحت قدرتى علـــى التبسيط ، وانتظار الحلول من داخل المشاكل ؟ أصبحت أقل صبراً بعد أن قلت المسئوليات وكادت أن تنعدم ، محمود فى حاجة إلى معجزة وهـــى ليســـت كثيرة على الله وإلى أن تأتى هذه المعجزة ، لا بـــد أن تبقـــى صورته كما كانت دائماً ."

تقول عمته نعيمة أم حلمى ، حين تراهـــا منهمكـــةً فى ترتيـــب احتياجات زهدها الرجل من زمن :

ـــ ما فائدة كل هذا الهندام لكى يجلس فى الشكمة يا وديدة ؟!

تبكى الأم مدافعة :

ـــ محمود هو محمود ، الله يجازى أولاد الحرام .

تسلل طفلان من أحفاد طه المصيلحى حافيين إلى شكمة الـــدوار الخارجى ، التى كانت تعج قديماً بزوار العمدة ، وفضا سكونها بحـــذر . رأياه من فتحة الباب الموارب . كانا قد درســا عاداتـــه ، وقـــررا أن يعرفـــا ما يخبئ ، بعد نقاش طويل انتهيا إلى أنه لابد قد تصالح مع الشبح الذى يعيش فى المكتب ، حيث استشهد جدهم عبد الحكيم . قـــررا أن

يختبرا ردود أفعاله ، ربما أجابا على الأسئلة التى لا تستطيع العائلة أن تصل إلى حل لها :

هل هو راغب فى الصمت ؟ أم إنه لا يدرك ما يـــدور حولـــه ؟ باختصار .. هل هو طبيعى ؟ وإذا كان طبيعياً ، لماذا لا يعمل ؟ لمـــاذا لا يدير أملاك أبيه ؟ أو يديـــر شركـــة ، والضبـــاط الآن يديـــرون كـــل المؤسسات؟!

كان واقفاً أمام موقد صغير يغلى قدر الحليب ، ويعـــــد الشـــاى بنفسه فوق صينية فضية عليها فنجان ذو تلبيسة من فضة أيضاً . أخـــرج من الدولاب بقسماطات خشنة وقراقيش فى طبق بجوار البراد ، وجلـــس يتنـــاول إفطاره وحيداً ، فوق الطاولة التى كانت تعج يوماً بضيوف جده الحاج عبد القادر . جفّا من الخوف وهما مقرفصان تحت الطاولة حين هم بالوقوف ، ثم ذهب إلى غرفته . تحركا بحذر لكى يواجها الأحــــداث . أخرج من درج المكتب علبة ورنيش ، ولمع حذاءه بقوة ، ثم تركه يجف . ودخل الحمام حيث نقع بعض المناديل القطنية فى الليلة الماضية . وجـــد خنافـــس طافية فوق الإناء ، حملها من المـــاء إلى صنـــدوق القمامـــة ، وأكمل غسل المناديل . نظر الطفلان إلى بعضـــهما ســـاكنين ، وهمـــا يشاهدان حركته الهادئة فى التخلص من الحشـــرات الــــتى وضعاهـــا ، وأكمـــل عمله . ثم ذهب إلى حجرته ، وراح يرتدى الحـــذاء الـــذى جف طلاؤه . انتهزا فرصة انشغاله بارتداء ملابســـه ، وهربـــا ، فوقـــع كرسى محدثاً ضجيجاً نبهه، فرآهما ، وهما على أعتاب الباب ، ثم ظــــهر أنيقاً فى الشـــكمة كالمعتاد حتى آذان الظهر . قام بعده إلى وديدة وجلس أمامها فوق المصطبة ، وهى تعد غداء العمـــال ، لا يتكلـــم . تجنبتـــه

العاملات ، ودخلن إلى غرف المطبخ الداخلية يكملن العمل .

قالت صبحية لستيتة : هو قاعد لنا مثل العمل الرضى ، لا شغلة ولا مشغلة . ربنا يفوت الأيام على خير .

قالت أمينة : لمى لسانك إنت وهى ، شهلن .

قالت صبحية ضجرة : أنا قلت حاجة ؟ أنا غرضى المصلحة .

أجابت أمينة : طحين ما هو لك .. لا تحضر كيله .

صاحت وديدة التى لا تسمع كلماتهن ، بسبب ضعف فى أذنيها أصيبت به فى شيخوختها : احضرن صينية غداء .

دقت الواحدة حين جلس معها وحيداً يتناول الطعام . أخذ منها ما تقدمه ، لا يمد يده إلى غيره ، تابعته صامتة ، تملأ طبقه بما تشعر أنه يحتاج . تعرف رغباته طوال العمر ، تجهزها ، لا يسألها أبداً ، ولا يرفض لها طلباً ، ثم عاد إلى المكتب لينام قيلولته اليومية المبكرة .

كان صباح ذلك اليوم لا ينذر بشىء ، بل بدأ طبيعيا سلساً ، ومملاً أيضاً . ارتدى محمود "شورتا" ، أبيض نظيفا ، بعد أن تأكد للمرة الثانية من جودة كيه ، والتفت إلى المرآة مستطلعاً التناسق العام لزيه، اختبر مرونة الحذاء بالضغط على أصابع قدميه صعوداً وهبوطاً، ثم دقق النظر فى شاربه ، ورتب حاجبيه ، ومرر كفه اليمنى على ساعده الأيسر ، مطمئنًا لقوته ، قبل أن يحمل المضرب ، والكرات الصغيرة . خرج من غرفة خلع الملابس ، متجهاً إلى الملعب ، ينثر قدمه أمامه فى دقات منتظمة ، عُرف بها مدى الحياة . طويل مفتول العضلات ، مصفف الشعر الأسود القصير دائماً ، وسيم ، قمحى

البشـــرة ، وله أنف طويل يميزه ، وعيون سوداء مستديرة ، يضيق بياضها بسوادها . ركض حول التراك عدة مرات ، وسخن عضلاته بتدريـــات مرونة أنهاهـــا بسرعة ، مجففاً عرقه بمنشفة ، حرص على حملها حـــول رقبته ، محافظاً على حركة ســاقيه المنتظمتين . فتح صدره ، وســاعديه للهـــواء النقى ، ونظر إلى ساعتــــه ، ثم اتجـــه مبـــاشرةً إلى ملعـــب الاسكواش فى موعده تماماً . حيا بعض رواد النادى بهزة مـــن رأســـه ، كالمعتاد ، حتى أن أياً منهم لم يلحظ تغيراً على هيئته ، ولم يتصور حجم التغيير الذى طرأ على حياته .

لم يكن فى انتظاره سوى الحوائط ، التى اعتاد أن ينازلهـــا بمـــهارة الخبير . رقص فى منتصف المسافة ، برشاقة غزال برى ، رغم ثقل جسده، وقذف بالكرة إلى زوايا محددة ، ثم راح يقلبها ، ويزيـــد مـــن صعوبـــة حركتها ، ثم يستعيد هدوءها . والسؤال حائر يتردد فى رأسه :

ـــ هل التقاعد هو نهاية المطاف ؟ أم يلفقون لى تهماً أخرى ؟! .

عاد الصوت المنعكس من الحوائط إليه مردداً الكلمات .

ابتسم بازدراء : لم أكن أستطيع غير هذا ، حتى لو حاكمونى ألف مرة .

تنفس بعمق ، مدركاً الاعتداد بالنفس الذى يســـرى فى دمـــه ، وتلقى رد الحائط على قذيفته باتزان الخبير . داعبها بلمســـة روّضتـــها ، فطارت خفيفة ، وحطت فوق كف المضرب ، ناعمة . أعـادها مـــرة ثانية تتهادى ، ثم فاجأها بضربة مباغتة :

ـــ لم تخدعنى الحفاوة فى مكان ، أو التلويح بالعصا فى مكان آخر.

التناقض بيننا وصل مداه .

وصلت الكرة تلهث ، تلقاها بعنف ، وهو يكز على أسنانه ، محافظاً على ثبات ملامحه ، ثم أعادها للحائط مرات . جفف العرق الذى غطاه تماما ، وهو يتحرك ، ولا يترك الكرة التى فاجأته بانفجارها ، ووقوعها للمرة الأولى أمام قدميه ، مشقوقة البطن ، منحرفةً عن مسارها المتوقع . التقطها ، وضغط أصابعه فوقها ، ثم استبدلها بكرة أخرى ، أخرجها من جيبه ، وعاد إلى مصارعة الحائط ، والكرة حائرة بينهما .

ــ لم أكن فى أية لحظة مستعدًا للمناقشة . كنت أعرف حقيقة الصراع منذ عام ثمانية وأربعين .

نطط الكرة فوق الأرض مرات ، ثم أعادها إلى الهواء ، وهو ينظر إلى ساقيه المتبلتين تماما بالعرق .

ــ لواء على المعاش ، فى مطلع الأربعين ، لا بأس .

استغرقه التفكير فى مصيره ، حتى لم يعد يرى الكرة ، تتبع مسارها من لمسة يده للمضرب ، من صوت ارتطامها ، محدداً زوايا انحرافها . وانتظرها فى مكان عودتها ، دقة لرد الفعل لا متناهية .

ــ أحتاج إلى راحة .. راحة طويلة . للمرة الأولى سأستمتع بحياتى الخاصة . ربما أعود إلى المنتهى قليلاً ، بعدها أفكر فى المستقبل .

حرك رأسه يميناً ويساراً ، وهش الصور التى تلاحقت فى ذهنه ، وتابع الحوار مع الكرة . تسللت دقاتها إلى أعصابه فخدرتها ، وانسابت

سخونة بطيئة تلفه .

ـــ لا بأس .

استعاد النشاط ، وأنهى الجولة بمعركة ، فاز فيها الحـــائط بقـــوة الصمود ، وفاز هو بالسرعة والمهارة التى يكتسبها فى كل لقاء . ألقـــى بجسده المنهك إلى الماء الساخن ، وتلقاه بهدوء ، وهو يردد هـــذه المـــرة بصوت مسموع :

ـــ لا بأس . سنرى !

اطمأن على أشيائه الذهبية : ساعته ، نظارته ، أزراره ، ونعومـــة قميصه الحرير الذى يبرز تقسيمة عضلات الكتف ، واتساع الصـــدر ، الذى ترك له زرين مفتوحين ، رغم لسعة الـــبرد الخفيفـــة ، فظـــهرت سلســـلة ذهبية ، تحمل دلاية محفور عليها اسمه . حمـــل البلوفـــر فـــوق ساعده، وانطلق بالسيارة ، حتى توقف أمام مدرسة ناصر ، وهو يردد مع الشريط ، "تامى بوركوا بارتيه ، تامى ريجارد موا" . أشار للحـــارس أن يحضر الطفل ، ونزل من السيارة ، وأشعل سيجاراً قبل أن يقرر عبـــور الشارع ، والتفت يضع القداحة فى مكانها . باغته شعور خفى ما بخطـــر قادم ، فاستدار ليواجهه ، لمحه ، وأدرك مصيره ، وهو يطير فى الهـــواء . وسمع قعقعة ضربات هائلة فى رأسه ، وخيل إليه أنه يتفتت ، ويـــذوب ، وهو يحاول أن يمسك بمقدمة السيارة ، والضوء يختفى ، تحت لهيب خارج من عينيه ، قبل أن يغيب عن الوعى .

لم يستطع أحد أن يحدد نوع السيارة ، أو رقمها ، رغم ضجيـــج

الشارع ، وسرعة حركته . وأقسم بعض المارة أنها لم تكن تحمل أرقاما على الإطلاق ، ولم يحددوا ملامح السائق ، وإنما انقسموا حول كونه رجلاً ، أو امرأةً ، وتساءلوا إن كان مخبولاً حتى يسير بمثل هذه السرعة فى شارع مكتظ بأطفال مدرسة . قال واحد أنه رأى السيارة واقفةً عن بعد، وأنها بدأت فى الحركة بمجرد ترجل محمود من عربته ، اختلفوا، وتركوا للبوليس قضيةً محيرة لم يستطع فى النهاية أن يحل لغزها أبداً .

عاش فى المستشفى العسكرى سنتين من الصراع مع مثلث مغلق : كسور فى الرأس أدت إلى إصابة مركز الذاكرة . وقرحة فى المعدة ، والتهاب كبدى وبائى ، نقل إليه عبر الدم المنقول.

قال الطبيب بعد أن أجرى عملية تربنة سريعة :

ـــ يهمنى المحافظة على حياته أولاً ، بعدها نرى كيف تعود الذاكرة .

خرج من المستشفى فاقداً ثلاثين كيلو جراماً من الشحم ، تكوين هرم ممسوخ لرياضى قديم ، يكشف عن عسكريته إذا وقف أو تحرك . طال شعره الأسود الذى كان حريصا على قصه بشدة ، وتفتحت بشرته عن بياض لم يعرف عنه طوال حياته ، حتى أن أخته كوثر حين عادت من السعودية علقت ضاحكة :

ـــ منقوع فى مترد لبن .

رفع إليها عينين صائمتين عن الكلام ، ولم يرد .

اعتاد أن يجلس بينهم متطلعاً إلى قدميه . مقوس الكتفين ، اللتين

كانتا تزهوان بقوة عضلاتهما ، صامتا . يرد حين تنهال عليه الأسئلة :

ــ لا بأس !!

اختار الدوار الخارجى مكاناً لمعيشته ، أصر على أن ينـــام علـــى (كنبة) فى مكتب أبيه المهجور . حاولت وديدة إقناعه باختيار إحـــدى غرف الضيوف الملاصقة له ، لكنه رفض ، فاضطرت أن تنقـــل ســـريراً خفيفاً ، وتضعه فى الركن المواجه للمكتب . عاش فيه لا يغـــير عاداتـــه اليومية أبداً ، يصحو مع نداء ديك الفجر ، يغتســـل بالماء البـــارد ، ثم يخرج إلى الحقول ، حيث الخضرة ، والخيل ، والركض فـــوق الطريـــق الترابى، الذى يوصل إلى جرن الغلة ، ثم يعود إلى اغتسال آخر ، وإفطار ، وصحف قابعة فى انتظاره ، ثم سكون فى الشكمة حتى يحين موعد الغداء. ولا يختلف نصف النهار الثانى كثيراً عن ذلك ، باستثناءات قليلة حـــين تأتيه وديدة تشـــكو له وحدتها ، ومتاعبها مع ابنها إسماعيل ، وزوجتـــه التى قسمت الدار دون سبب ، رغم أنها لا تنتظر أن يقول لها رأيـــاً ، أو يتحدث مع أخيه فى شئ ، وتكتفى منه بهزة رأسه التى تشعرها أنه ما زال على قيد الحياة .

عاد اليوم من القاهرة بعد أن قبض معاشه — زيارته الشهرية الوحيدة التى يغادر فيها الدوار— لم يجد وديدة فى انتظاره كالمعتاد ، جالسةً على المصطبة أمام المطبخ فى الحرملك ، فصعد إليها ظناً منه أنها مريضة ، استقبلته وحيدة ، وقد انتهت منذ دقائق من توديع ضيفة حملت رسالة من كوثر فى السعودية . هزتها فرحة رؤيته أخيراً فى المكان الحميم . اصطحبته إلى جلسة العصر القديمة، حيث كانت العائلة تجتمع مساءً حول مشنّة ذرة أو أعواد قصب ، أو سهرات شتاء حول راكية النار فى العراء . افترشا حصيراً فوق السباط المطل على ساحة الحوش الداخلى ، جلسا صامتين كل يتبتل فى عالمه المغلق . لحظة صفاء وسكون قلما يجود بها هذا الوقت من النهار . كف منذ الحادث عن الدخول إلى الحرملك ، والصعود إلى الطابق الأول ، والاختلاط بالعائلة . سألته عن رحلته، وصلتها الإجابة حدساً ، وليس صوتاً :

— لا بأس .. لا بأس .

أسلمهما الوقت إلى الصمت . هى وقد غاب عنها ضجيج العالم بعد أن راحت تفقد السمع تدريجيًا ، حتى كاد يغلفها الصمم ، وهو وقد غابت عنه رغبته فى الكلام . اكتفيا بما يشع من كل منهما تجاه

الآخر ، وانسحبا إلى عالمين داخليين منفصلين . تأملته "كيف انتهى بك الحال إلى السكون ، وأنت الذى جئت إلى الحياة صاخباً جريئاً فى العراء وسط المطر ليلة الغطاس ، والسماء تلح على الأرض بماء مدرار؟".. تذكرت ليلة ميلاده كأنها حدثت بالأمس .

التهب الطلق دون أن يدفع الجنين إلى الخلاص . حايلت الداية قنوع العظام التى تعودت أن تتفتح معها دون جدوى ، قالت جزعة والعرق يتصبب منها رغم البرد :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ، لم تعد لى حيلة ، لا بد من الطبيب.

يئس طه من وصول سيارة الإسعاف ؛ حمل وديدة ملفوفةً فى بطانية ترتجف من الصقيع فى الكارتة . ركضت الخيل على طريق المحطة ، ثم تعثرت فى العتمة وزلق الأرض التى كانت ممهدةً منذ أيام ، وتحولت بفعل المطر إلى أنفاق ، وحفر ، ثم هدأت حركتها وهى تتحسس دروب العجلات التى سبقتها ، متجنبةً أخدوداً طويلاً ، ومتعرجاً ، أشعل بطؤها سعيراً فى أفئدة ركابها . ووقف طه ممسكاً بالسوط ولسع ظهرى الحصانين ، لم تره وديدة فى حياتها يقسو على الخيل إلا فى تلك الليلة ، قائلاً للخفير بسيونى:

ـ أسرع الله لا يسيئك ، أم عبد الله فرفرت فى أيدينا .

أجاب بسيونى بفزع : ليلة غبراء . المطر سيل ، وخائف الخيل تتزحلق ، السماء تقذف الماء "بالزِلَع" .

قلقلة العربة وهى تتمايل فوق قوالب الطمى المتعرجة رمت وديدة بين يدى قنوع ، التى لم تكف عن الإمساك بها فى حضنها ، وحمايتها

من الرجرجـــة . التفت طه إلى وديدة التى تعانى من آلام الولادة العسرة، وقال:

ـــ دقائق ، شدى حيلك ، سنصل حالاً إن شاء الله .

وقف مرةً أخرى ، ولسع الحصانين بغضب .

قال بسيونى : على مهلك يا سيدى . ستقابلنا عربـــة الإســعاف حالاً. المركز عنده خير من ساعة .

ـــ كيف أهدأ ، والبنت تروح فى شربة ماء .

مالت وديدة إلى الوراء ، وأمسكت بأعمدة السقف ، ثم مـــددت ساقيها أمام مقعد العربة ، وصرخت :

ـــ الحقينى يا خالة !!

انزلق الطفل ، فتلقفته قنوع بين يديها ، دون أن تلتفت للمطـــــر الذى بللها ، والربكة التى أحدثتها صرخة الأم ، وقالت :

ـــ أوقف الكارتة . جاء فرج ربنا .

أمسك بسيونى باللجام بقوة . أوقف الخيل ، فكادت أن تقـــذف بالركاب إلى الأرض ، نط طه غير مصدق ما حدث ، وراح يحكم الغطاء حـــول وديدة التى ترتجف بشدة ، دون أن يلاحظ المولود الذى خبأتـــه قنوع فى حجرها ، تحت الشال .

ـــ مبارك يا بنى ، مبارك ، تربيه فى عزك إن شاء الله .

قال بسيونى الذى جلس فى المقدمة لا يستطيع الالتفات ستراً لهم ،

وكله شوق لرؤية المولود :

ــ يابركة أم هاشم ، لن نحتاج إلى طبيب ولا ديـــاولو ، نرجــع أحسن يا سعادة البك ؟

لم تصله إجابة . تردد فى السؤال ثانياً ، ثم قال :

ــ ما رأيك يا خالة قنوع ؟ نذهب إلى المستشفى ؟

تلفتت الداية حولها ، اكتشفت أنهم فى منتصف المسافة بين القرية والمحطة ، ما يزال الخلاص عالقاً فى الأم . لاحظت العتمة رغـــم ضـــوء الفانوس الصغير المعلق فى الكارتة ، وقوة ضربات الماء للأرض ، قـــالت ساهمة :

ــ يا ليلة ، انزل يا بسيونى بنا الجزيرة ، تحت شعر البنت هناك ، اعمل لنا دروة .. أنزل الخلاص ، وبعدها ربنا يفرجها .

أرقدت الأم الهمدانة ، وساعدتها على إكمال الـــولادة ، حـــتى انتهت.

سألت وديدة بصوت واهن ، وهى تحاول النهوض :

ــ ولد صحيح يا خالتى ؟ لك الحلاوة .

ــ ولد يتكايل بالذهب ، حلاوتى قيامك بالسلامة .

مالت وديدة فوق صدر قنوع ، وراحت فى إغفاءة طويلة ، رأت فيها الوليد فى كفيها وســط ريح تدور ، لكنــها لا تُطــيِّر ملابســه ، وجاءها صوت الهاتف القديم الذى ما فتئ يُذكِّرها "ارضِ بنصيبــــك .. ارضِ بنصيبك" ، لكنه هذه المرة قال لها :

ـــ سوف يعيش ، آيتك ألا يرضع من ثدييك . أرضعيه من نساء المنتهى ، كل يوم امرأة ، لا تنسى ، كل يوم امرأة !!

دارت الريح حولهما ، لكنها لم تطر ملابسهما ، ثم شعرا بها ترحل. حين أفاقت كانت الكارتة تقعقع برتابة هادئة ، وهى تدخل إلى صحن الدار فى الحرملك ، وأم طه باكية تفتح ذراعيها لاستقبال أم العيال، العائدة بسلامة إلى حضنها ، والزغاريد تنطلق ، وتلعلع فى سماء الدوار . بعد يومين ، خرجت أمينة وصيفة وذيدة ، ومربية أبنائها من الدوار حاملةً المولود ، ملفوفاً فى قماط كستور أبيض وبطانية مزركشة، منتهزةً فرصة الهدنة التى أعلنتها السماء ، وكفت فيها عن المطر لدقائق قبل أن تعاود قذف المياه بشدة لليوم التالى على التوالى . سرى دفء ما بين المطر ، كاشفاً صفاء الشتاء شديد الخصوصية فى المنتهى . هواء له لسعة تحبها أمينة ، لكنها لم تلتفت إليها وهى تقبض بساعدها على الوليد ، وتتمتم بدعاء خافت أن يستجيب للرضاعة من امرأة أخرى. طرقت باب أم هاشم ، والجامع يؤذن لصلاة العشاء ، وانضمت للعائلة الجالسة على المصطبة أمام راكية قوالح الذرة ، قالت وهى تدارى خجلها:

ــ حاولنا كثيراً ، لكنه رفض بعد يوم واحد ثدى مرضعته سكينة أم إبراهيم ، حايلناه النهار بطوله بالحلبة والينسون والسكر ، بدون فائدة.

ضربت أم هاشم بكفها فوق صدرها :

ــ يا ندامة !! يا أمينة يرضع ويأخذ حبة عينى .

قالت أمينة : اللبن فى بز أمه يتكيل بالكيل ، وهو عاص ، لا كان

على البال ولا على الخاطر .

تناولت أم هاشم الوليد ، وكشفت عن وجهه ، فانبعثت رائحة الحلبة مفحفحة ، ومعها خليط من روائح الغلة ، والذرة والمغات ، وربما التبن أيضا . نكهة خاصة تجمع بينهم ، وتشعرهم بشئ من الألفة، قربته من صدرها وبَسْمَلَت . شعرت بلفحة من دفء أنفاسه فمسحت شعره القليل ، وراقبت عينيه المغمضتين اللتين لم يفتحهما ، وهو يتحسس بشفتيه الطريق إلى حلمتها ، حتى التقطها ، ثم انشغل بالرضاع . سرت فى جسدها قشعريرة من وخزاته الناعمة ، ولم تستطع أن تحول بصرها عنه . استسلمت لدبيب هادئ سرى فى دمها منسقاً نغماته مع إيقاع قلبها ، وقلب الطفل الذى ينبض فى صدرها اللحيم ، حتى اكتفى ونام .

شربت أمينة كوب الشاى المغلى بعد إلحاح .

قالت أم هاشم : رزقنا الله بهاشم بعد سنين نترجى الخلفة . اتركيه، سأرعاهما معا .

ردت أمينة وهى تحمل منها الطفل : أعود به فى الصباح ، كثر خيرك .

لكن الطفل رفض الرضاعة منها بعد يوم واحد ، واحتارت وديدة ماذا تفعل ، بعد أن قضت ليلةً أخرى ساهرةً تحاول تهدئته ، أو إشباعه بسوائل أخرى ، دون جدوى . وكان صوته الذى يشبه ثغاء عنزة ضعيفة يرسل الحسرة إلى القلوب المحيطة به . جلست تهدهده حتى غلبها التعب ، وأسلمها للنوم متقرفصة ، تهز ساقها من تحته . انتبهت فجأة ، بعد

صلاة الفجر بقليل ، إلى صوت فتحية تنادى عليها من وسـط الـدار ، أجابت ناعسة :

ـ تفضلى .

دخلت تحمل ابنها ، وتبسمل :

ـ أرسلتنى أم هاشم لكى أجرب معه ، وقد يستجيب ، لبن صدرى قليل ، لكن أنتِ عارفة أنه سر ، الله وحده يعلم ما يخبئه .

مسحت ثديها وألقمته له ، فاختطفه بنهم وجوع ، سحب قلبها، وتقاطر الحليب يوقظ الشرايين التى جفت ، فتفتحت ، وتدفق منـها إلى النبقة الحمراء التى أشهرت رشاشـاً قويًا ، اندفـع إلى فـم المولـود ، وأشبعه، وسال يغطى وجهه كلما أشاح قليلاً ، يلتقط أنفاسه المتقطعة ، اغرورقت عيناها بدموع ، واهتز جسدها .

ـ كان ابنى عبد الرازق يصرخ جوعاً بعد دقائق من الرضاعـة ، الآن عندى ما يكفى ويزيد .

انتشر الخبر بين نساء المنتهى : "محمود بن طه المصيلحى" لا يقبل الرضاعة من ثدى لأكثر من يوم واحد !!" . احتارت النسـاء ، وقلـبن الأمر وهن يملأن الجرار من النهر فى الصباح ، وهن جالسات فوق الحصير أمام راكية النار ، وأيضا فى الغيطان ، وانتهين إلى أن يتبـادلن إرضاعـه مؤقتاً حتى يشبع منهن جميعاً .

قالت صبحية : ماذا سنفعل إذا مر علينا كلنا ؟ من أين سنأتى له بمرضعات ؟ هل ترحل به أمينة إلى العزبة ؟

قالت أم هاشم : يفرجها الله . نعيد رضاعته بنفس الترتيب ، ومن يعرف .. قد ينسى ، ويقبل !

يوقظهن من أحلى النوم هاتف يحثهن على الذهاب إلى الطفـــل . وكانت وديدة تفاجأ فى الليالى التى يصــاب فيها محمـــود بمغــص ، أو أرق، بدقات فوق الباب ، وتجد أمامها إحدى الأمهات جـــاءت رغـــم الظلام وليل الشتاء الطويل القارص ، وتقول لها :

ـــ جاءنى فى المنام من قال لى قومى اذهبى ، محمود يحتاجك .

كن يعرفن الطريق إلى مرقده فى الطابق الأول ، بعد أن خصصت له وديدة غرفةً تطل على ســاحة الدار ، لتضمن دخــول المرضعـــات إليهـــا فى أى وقت دون إزعاج لزوجها وبــــاقى العائلــة . يحملنــه ، ويرضعنه ، حتى ينام ، وتعود الواحدة إلى دارها وكأن شيئاً لم يكـــن . شهدت جلسات العصارى حكايات الوليد ، قالوا إنه يعرفهن ، ويـــهلل لهن ، وتحدثن عن بشـــاشته ، والرزق الذي جلبه لبيوتهن ، وأقســـمت عمته نعيمة أنه انقلب على جانبه الأيســر ليلة السبوع ، وأنها أرجعتـــه للنوم على ظهره فانتنب على جانبه الأيمن ، فصرخت تنادى وسط الدوار الذى امتلأ بالمهنئين . "الحقينى يا أمى ، الحقينى يا وديدة" ، فلمـــا علمت أمها عديلة بالسبب لفت الطفل فى بطانيته قائلة : "صلى علـــى النـــبى ، واكفنى على الخير مأجور" .. وراحت تقرأ ســـوراً من القرآن للطفــــل الذى وضعته فى حجرها ، حتى أخذوه منها ليبدءوا احتفال الســـبوع . وأقسمت أم هاشم أنها حين تعود إلى دارها بعد إرضاعه تجد فاكهـــة لا تعرف مصدرها ، وأن زوجها وأولادها يتصورونها هديةً من أهل المولود، لكنهـــا لا تذيع ســـراً إذ تقول أن الملائكة التي تحيط به هي التي تمـــلأ الدار بالخير ، خاصةً أن نساء القرية أقسمن برب العلا ألا يحصلن علــــى

أجر من إرضاعه. وقالت تريز : لا أجد فاكهة ، لكن مشنة العيش إذا أكلنا منها في يوم رضاعته لا تنتهي ، ولا تنفد ، وأعيد عدها فأجد الأرغفة بحطة يدى ، ملفوفة في البرسيم كما هي ، رغم أننا نكون جميعاً قد أكلنا وشبعنا ، كيف يحدث هذا ؟ لا أعرف، هي بركة المولود . وقالت "دواء" ، وهي تشير إلى جسدها : كنت ناشفة ومقددة ، وهبني الله القوة منذ دخل محمود يا حبة عيني الدار ، حتى جسمي أصبح فيه رخاوة وطلاوة مرأة ، لا أشعر بتعب بعد العمل يوماً كاملاً في الغيط . أشعر أني خفيفة . أنط من فوق لتحت . غسيل ونشر هدوم ، وخبيز ، كأني سخرت مائة حصان . وقالت فتحية : لم ينقطع الحليب عن ثديَّ بعدما حملت على أبني عبد الرازق . وكان ينقطع في الشهر الثالث من قبل .

نادى محمود كل نساء القرية "يا أمى" ، وسرح من بيت إلى بيت دون استئذان ، في رعاية كل الأطفال وكل الأمهات . تعلم المشي ممسكاً في يده كسرة خبز ، لا أحد يسأل ممن أخذها ، مستنداً إلى حوائط الدور، حتى إذا أفلتت يده رأى أطفال الحارة يخطفونه من فوق الأرض، ويقولون في نفس واحد :

ألف اسم الله

حملته النساء فوق أكتافهن وهن ذاهبات إلى السوق ، ولم تعرف أمه أو مربيته أمينة طريقه أبداً طوال النهار ، حتى إذا جاء الليل أعادته إحداهن إلى حضن وديدة .

عادت إلى مجلسهما فوق حصير السباط . تأملته وقد استسلم إلى السكون ، مستنداً إلى حافة الدرابزين ، يبدو لمن لا يعرفه مرتاحاً ، لكن الهدوء لا يخدعها . تتبعت خطوط الألم الخفية التي تمرح سراً تحت جلده :

"كيف انتهى بك الحال سجين نفسك وأفكارك ؟" . استدارت لكنكـــة القهوة وراحت تسويها ببطء . وقعت عيناها على فراء ثعلب ، يفـــترش عتبة باب شقتها ، تركت نظرها معلقا به قليلا ثم حولت وجهها لـــترى جلد الثعلب الآخر على عتبة باب مقعد الصبيان ، وتلفتت تتـــأكد مـــن وجودهم على عتبات الأبواب التى تفتح على السباط . تنهدت وهي تردد بين ضلوعهـــا الكلمات : "كلها من صيد محمود" . تذكـــرت حماهـــا الحاج عبد القادر عمدة المنتهى ، وهو يصرخ غاضبا وســـط الـــدار في سنواته الأخيرة : سأترك لك يا وديدة البلد كلها حتى ترتاحى. ماذا نفعل إذا وقع من فوق الحصـــان وانكسرت رقبته ؟ نقول يا ليت اللى جـــرى ما كان !

سألته وهي تبعد القهوة عن النار : قل لي يا محمود ، لماذا انقطعت عن الصيد ، رغم أنك مشيت الصحارى كلها ، والبلاد صغيرة وكبيرة ؟ ألم تحن للصيد ؟

هز رأسه ، وابتسامه تضئ وجهه ، دون أن يفتح شفتيه .

قالت : فاكر طيور العتر والثعالب ؟ فاكر أختك نازلى ، وهـــي تملح فراءها وتنشرها معك فوق السطح ؟

رفع وجهه مدققا النظر فى عينيها العسليتين . كانت النظرة كافية لتعرف كم يعانى من الذكرى ، قال :

ـــ أيام

ربتت بكفها فوق يده ، وهى تناوله فنجان قهوة صبته ، وأعادت الكنكة إلى السبرتايه لتصنع غيره . راقبته وهي تقلب الأمر الذي كثيرا ما

أتعبها في أوقات وحدتها : "أين مصلحة محمود ؟ هل هي في العـــودة إلى امتلاك كل الذاكرة بأحداثها ، حلوة ومرة ، أم بالوقوف قليلا على عتبة التذكر حتى يرتاح من اجترار الآلام التي فتكت به دفعة واحدة ؟" عادت تتبتل في عالمها، الذي لا تكف لحظة واحدة عن استجلابه ومعايشتـــه ، بعد أن تبث فيه الحياة . واعتصم هو بداخله يتأمله بهدوء .

" بلورات من الذكرى تلمع في سديم لا نهائي . تسرى متجاورة . يغريني تلألؤها بالإمساك بها . تركض في برزخ أعرف أنه الوصلة بـــين الماضي والحاضـــر . منفوشة بتجاربي الســابقة ، تتقلـــب بـــين البعـــد والاقتـــراب . تحز في قلبي مجهولا حميمـــا . أحب أن تلمســـه لكنـــها مخادعة . تهرب قبل أن تضيء الجب المظلم . تختفي في الغيهب ، وتـــترك وراءها فراغا . حلقات لسلسلة من ذكريات لا تكتمل . لم أعد أفـــرق بين ما أتعلمـــه الآن وما حدث في الماضي . أستقبل كل يوم وجـــهات نظر الآخرين ، ورؤيتهم في حياتي السابقة ، على الأصح ما يوافقون على تسريبه لي ـــ بعض المعلومات يراوغونني في معرفتها ، حتى كففت عـــن السؤال ، وأرجعتها إلى أنهم يتجنبون جراحا لا يودون نكأها الآن ـــ من يحكي لي تاريخي الذي يرفـــض عقلي أن أعرفه إلا لماما ؟! ماذا أصـــدق من الومضـــات التي تأتيني مثل شهب مغلفة بالحنين . أأعتبرها حقــــائق سمح عقلي بالاعتراف بها ؟ أم هي أحلام يريد عقلي أن يصل إليها .. . أو هي لا هذا ولا ذاك ، بل أوهام يخلقها خيالي لتحل محل مـــا فـــات ، وأرفضه ؟ أشعر أحيانا أنني لا أريد الركض وراء إحياء الماضي . أقـــف على الحافة ، بيني وبين داخلي سرداب طويل ، في نهايته بئر فارقها الماء ، وأصابها الجفاف ، فتشققت أرضيتها . لا أريد قطع الطريق ومواجهة هذا

المضيق . أدير رأسي عنه ، لا شئ غير الهاوية هناك . يغمرني في وقـــت آخر طوفان من الرغبة في تمزيق غشاء النسيان والامتلاء بجـــذوري أيًّـا كانت صفاتها : أهداب أو أشواك أو أوتاد حقيقية مغروزة فى تربة عميقة خصبـــة ، حتى لا أتحول إلى مجرد طحلب عائم على وجه الكون . أرصد كل يوم فروقاً في مشاعري إزاء هذا العالم الصاخب مـــن حـــولي ــ لم أشعر حتى الآن أنه يعنيني في شيء ــ صحيح أنها فروق طفيفـــة لكنـــها تمشى في خط صاعد أشبه بدرج .

بماذا يذكرني الدرج ؟ بحلم حلمته بالأمس وأذكر أنه تكرر معي من قبل : أراني على عتبة بناء عال كأنه برج أملس من الخارج مثل قلاع العصور الوسطى ، كيف أذكر قلاع العصور الوسطى ولا أذكر شيئـــاً يخصني أنا ؟ وهل تتكون الذاكرة من غرف بعضها مســـتعد للفتـــح ، والآخر مغلق ولا يريدني أن أدخله ؟ أدلف إلي البرج وأصعـــد الســـلم ، كلمـــا اعتليته زادت العتمة . أشعر باهتزاز وكأن البناء يتطوح ، أتوجس لكنني أكمل بإصرار على المعرفة ورؤية السطح ، يلتوي الدرج كحيـــة صاعدة إلى السماء ، كلما قطعت الدرجات ازدادت طـــولاً ، وازددت تعطشاً للوصول، أرى في نهايته نوراً ، وبيتاً يســـكنه أنـــاس أعرفـــهم ، وأحبهم ، يشيرون لي : تعال . يرتج البناء ، أعود متقـــهقراً إلى الـــوراء فيسكت. أسمع نداءهم فأعاود الصعود . أغمض عيـــنى ، وأركـــض ، تذوب الطوابق تحت هرولتى ، وأشعر بالبناء ، آلاف الخلايا الحية تتزلزل إلى مجموعات صغيرة تشغى . أتسمر ، ولا أستطيع نقل قدمـــى خطـــوةً أخرى . أحتار بين النظر لأعلى ولأسفل . سرداب وراء سرداب ــ من أين أتـــوا ؟ ــ ملهوف على الصعود ، أرفع ساعدىّ : أنا قادم . أجدنى

محبوساً بالخوف من السقوط والاختناق من الكتمة ، أسأل بصوت عال لا يخرج من شفتي : كيف تعيشون في هذا العلاء مطمئنين فرجين؟كيف وصلتم إلى هناك ؟

أسمعهم يصيحون : لا تتراجع . لقد قطعت الطريق الوعر . هنا الأمان . اصعد يا محمود . هذا صوت أعرفه ، لمن ؟ أشتهى الوصول لكننى غير قادر . يجذبنى الجُرف الأسود ، فأتراجع مرةً ثانيةً راكضاً ، والبناء يترنح يطلب منى النجاة من الدمار . أقف فجأة ، وأنا أتمزق حنيناً إلى النور . أتسامح مع هذا العبث . أقول بصوت رنان : ما الحياة إلا مغامرة . هل أستكين فأموت مثل زهور الحشيش فوق السفح ؟ — أين رأيتها ؟ — أعاود متابعة مشوارى ، وأنا أقسم أنني لن أنظر إلى الأسفل مرة أخرى . يغير الدرج مساره ، فأتردد لكنى لا أتوقف ، ألاحق الانعتاق.وأنا أسأل نفسي : هل مات عقلي يوم الحادث ؟ — أى حادث هذا ؟— تفاصيل يصلني منها شذرات ، وكأنها ليست حادثاً واحداً ، وليست في زمن واحد أيضاً ، وكأننى توزعت بين اماكن وأزمنة، قطعتنى فى لحظة واحدة ، ونثرتنى على طول البلاد — من الذي قطعوا جسده وفرقوه في الأرض ؟ وما الذي يربطني به ؟ — تسلل كشاف إضاءته تعمى البصر إلى داخلى ، عرفت مساره ، لمس نقطةً لم أكن أعى وجودها من قبل : أنا صائم العقل ، ولست ميت العقل . هناك فرق .. الصيام رحمة، تجميد لوظائف لا ضرورة لها على الأقل الآن . فحيح حيات يصلنى . تكاد ألسنتها الرفيعة الصيادة تقتنص جسدي . أشعر بمخابئها في مغارة السلم والجدران . لن تخيفنى ، ولن تغوينى بالعودة. سأداوم على التقدم إلى الأمام ، وإن تمدد الطريق أو تلاعب .

صام عقلي حمايةً له . لن أفتش فيه عنوة . لقد خرج مرةً من الغيبوبـــة ، وبعث بعض الدفء في خلاياه ، فلأكتف الآن برحلتي إلى هذا النـــداء ، تدفعني رغبة حقيقية في رؤية العراء من أعلى قمة . أصم أذنيّ عن أصوات الانهيار والتفكك ، وأعرف أنها لن تتحول إلي هشيم . هي خديعة لـــن تمسني بسوء إذا لم أسمعها . أصحو قرب الوصول إلي غايتي ..

من أنا وسط هذه المتاهة ؟

محمود المصيلحى، لواء سابق في الجيش المصري . مـــن مواليـــد ١٩٣٥ . خضت الحروب كلها عدا حرب يونيو، كنـــت مســـافراً إلي الاتحاد السوفيتي للدراسة في كلية الأركان . تخرجت من الكلية الحربيـــة بعد قيام الثورة بأسابيع . يؤكدون على أن جمال عبد الناصر وُمجلس قيادة الثورة أجلوا حفل التخرج حتى يحضروه بأنفسهم . مـــتزوج أو كنـــت متزوجاً من صافى زيدان ، الأمر ليس محسوماً تماماً بعد ، وفقا لما يتلـــى على من معلومات وأنباء . والمؤكد أن لى طفلاً وحيداً اسمه سمير ، ولد لي بعد عودتي من موسكو عام ١٩٦٨ ، أى أن عمره الآن حوالي الثانيـــة عشرة ، ويعيش مع أمه التى ترفض رؤيتى بعد الحادث .

حسب أقوال أمى ــ وهى المعلومات التى أصدقها على الفور ــ العمل كان حياتي الماضية كلها . تفرغت له تماماً ، وأحببته ، ولم يكن لي هدف منذ وعيت الدنيا في طفولتي سوى أن أكون ضابطاً في الجيـــش . تضحك وتقول عسكرى وليس ضابطاً ، وترجع ذلك إلى تعلقي بعمـــى رشدى ومواقفه، وحديثه عن الثأر بعـــد جرحـــه في حـــرب ١٩٤٨ . وحسب أقوالها أنا ابن المنتهى . ابن كل البيوت ، فقد آخيـــت الجميـــع

بالرضاعة ، وتمتعت بحب لم تره حتى مع أبي الذي حماهم من بطش الهجانة في أحد الأيام - رغم أنه كان العمدة ، أى أنه انقسم على السلطة ، وهو أمر غريب على ما يحمله عقلى من تاريخ العمد والمشايخ في القرى المصرية - فهل يرفض عقلى أن أتذكر ما يخص أبي أو عائلتي ، بنفس الدرجة التى يرفض بها مواجهتي بما يعرف عنى ؟ - الحب يسعدني ، يشيع في نفسي هدوءاً ممتعا ، أحاول أن أتخيل الملامح النفسية لهذا الشخص الذي يحبه الناس جميعاً ، فلما أستقر عليها تفاجئنى في وقت آخر بأن البلدة ترهبنى وأن حادثاً واحداً لا يقع أثناء وجودي في العطلات ! كيف يا أمي ؟ تصمت . وأعيد أنا غزل ملامح أخرى ، وتفلت من أختي كوثر ذات يوم جملة قالها أبي رحمه الله : " محمود اكتسب مهارتي في الصيد ، وعنادي في الحياة ، لكنه بلا قلب مثل جده عبد القادر ، ومحب للغندرة مثل عمه حيدر !" .

تتسع الفجوة بين الوجهين ، فهل كنت متناقضاً إلى هذا الحد ، أم أننى كنت اثنين ؟ تنفجر الحقائق فى وجهى ، وتبتعد الحلقات التى كنت أخال منذ لحظات أننى أصبحت أمتلكها .

عاد من الحوار مع نفسه السابحة في دهاليز السؤال ، وتهيأ للقيام . انتبهت وديدة إليه ، قالت :

- كنت أعتقد أن استشهاد عبد الحميد هو أمر وأقسى ما سأعيشه طوال حياتي . لقد احتملت فراقه ، ساعدني الله على الصبر ، وسأقضي باقي العمر أنتظر أن يصبح ابنه علاء رجلاً مثله. الشجرة مثمرة، وطبيعي أن يتساقط منها بعض الأوراق . لكنى رغم إيماني بما

يعطيـه الله لى ، لا أستطيع أن أحتمل أن أراك تذبـل أمـامى دون أن تساعد نفسك يا محمود . ابذل جهداً من أجلى .

نظر إليها بهدوء ، ثم انحنى يقبل يدها وقام من جوارها ، قالت له :

ـــ انتظر ، عندي لك شئ ، لا أعرف إن كان ما سأفعله الآن هو قرار صائب ، أم هو قرار مبكر . لن أطيل عليك . سـأحضره فورا .

غابت لدقائق ، ثم عادت وفى يدها دفتر صغير أنيق في بسـاطة ، وسلمته له :

ـــ هذه يومياتك .

قال دهشاً : أنا ؟! أنا كتبتها بنفسي ؟ متى ؟

ـــ لا أدرى . ربما تجيبك المذكرات نفسـها علـى التوقيـت . وجدناها فى السيارة يوم الحادث ، واحتفظت لك بها . كنت أتمـنى أن تستعيد ذاكرتك دون مساعدتها ، فسألت الطبيـب الـذى أخـبرنى أن الأدوية ستساعدك ، لكن بشرط عدم الضغط ، أو الاسـتعجال، فلـم أعرف إن كانت المذكرات تعتبر ضغطاً أم لا ؟

قال يطمئنها :

ـــ أذكر بعض الأشياء بنفسى . وأدرك أن أحداثاً بعينها تراوغني. أعرفها ، وأراها أمامى ، لكنى لا أسـتطيع أن أنقلـها إلى أسـماء ، وأماكن. لا أستطيع أن أحكيها لنفسـى . الغريـب أنـى أعـرف المعلومات، وأشعر حين تُذْكَر أمامى أحداث بعينها ، أن ما أشعـر بـه

حيالها ليس موقفاً حديثاً وليد اللحظة ، لكنه موقف له جذور ، له تاريخ، وأكاد أصدق أنه كان موقفى طوال الأعوام الماضية .

ــ صدق يا محمود ، وسيأتي وقت تعوض كل ما فاتك .

مدت يدها بالدفتر .

ــ هذا هو ، عدني ألا ترهق نفسك ، وألا تعبر الأحداث قــراءةً دون أن تربطها بما لم تكتبه . حاول أن تسترجع التفاصيل التى تكمل هذه الأوراق .

أمسك بالدفتر وفتحه على الصفحة الأولى ، قرأ العنوان المكتوب بحروف كبيرة : **١٩٥٦**

ــ تزوج عمك حيدر من كريمان قبل الحرب بأسابيع ، وحاربت أنت فى القناة ، ومرت أيام كنا متأكدين من استشهادك، لكــن عمــر الشقى بقى ..اقرأ ما كتبت ، وعد لأكمل معك الكلام عن هذه الفــترة أو غيرها .

قبل يدها مرةً ثانيةً ، وانصرف إلى غرفة المكتب .

أمسك دفتر المذكرات بيدين مرتبكتين . دقق النظر فى غلافه لعله يوحى له بألفة . ضباب يغلف صورة رجل يسعى إلى معرفته . لاحـظ تردده ، وعدم لهفته على فتح الأوراق : "كنت أتصور أننى سـأندفع إلى قراءة ما خطته يداى علنى أكتشف ما لا أعرف . ما الـذى يحـدث لى كأننى أمسك بيوميات رجل آخر ؟ حتى الفضول فاتر ، سـبحان مغـير الأحوال" . قرأ :

تقبلت الثورة بشىء من التحفظ ، وانتظرت الأحداث . أشجع ما يسـتحق التشجيع ، وأترقب نتائج القرارات التى أشـك فى صحتـها . أطلق قانون الإصلاح الزراعى سعيراً فى بيتنا ، فرغم أننا لم نحسب علـى طبقة الإقطاع الذين يملكون آلاف الأفدنة ، إلا أن تحديد الملكية قلـص مسـاحة الأرض فى حيازة أبى ، من ثلاثمائة إلى خمسين فداناً فى النهاية . أرض لم نرث معظمها ، أو تأتينا بالهبة من الباب العالى . اشتراهـا طـه المصيلحى بجهد وعـرق حقيقيين ، ورغم أنه كتب مـائة فدان باسـم عبد الله ، وقمر وعمتى نعيمة ، إلا أن انتزاع باقى الأفدنة جعله لا يسامح

الثورة أبداً ، ولا يرى فيها خيراً ، خاصة بعد أن رفعـــت الشـــوادر فى طرقات القرية ، وسهر الفلاحون الذين تغنوا بحياته طويلاً مع الصييـــت حتى الصباح ، قائلين أن لا كبير بعد اليوم .. تمزعت بين رغبتى فى العدالة الاجتماعية ، وأنا أعرف أن الثروة فى مصر يمتلكها نصف بالمائـــة مـــن السكان ، وبين إجبار أمثال أبى على التخلى عن ممتلكاتهم التى كســـبوها بعمل حقيقى . لكننى فى النهاية تقبلت الأمر باعتبـــار أن لكـــل ثـــورة ضحايا، خاصة أن أبى كان يعتمد على التجارة فلم يهتز وضعـــه المـــالى كثيراً ، وانتظرت ما تسفر عنه الأحداث . لكن موقفى من الثورة تغـــير كثيراً بسبب كلمة سمعتها من جمال عبد الناصر أثناء العدوان الثلاثـــى . كلمة جعلتنى أنتبه ، ثم أنحاز ولا أعود محايداً .

كنت فى منطقة برج العرب غرب الإسكندرية أُحكّم فى مشروع تدريب يتم ليلاً ، وأثناء التدريب عرفنا أن القوات الإسرائيلية هـــاجمت الكونتيلا على الحدود المصرية الفلسطينية . أُبلغنا بإيقـــاف التدريـــب ، والعودة إلى المعســـكرات ، لكن من كثرة ما حدث هـــذا مـــن قبـــل استمررنا فى تدريباتنا حتى الثالثة صباحاً . عدت بعدها إلى لواء الحـــرس الوطنى الذى أتبعه ، فوجدته يستعد للتحرك إلى القنطرة . ركبنا القطار . وفى منتصف الليل سمعنا الإنذار البريطانى الفرنسى ، ورفض مصر لـــه . فجَّر الإنذار كل مخاوفنا ، وتصاعدت الأسـئلة ، وراحـــت تـــدوى ، يعرف الإنجليز كل شئ عن مصر : أماكن المعسكرات ، حجم السلاح ، نوعه ، أماكن الكبارى ، والمصانع ، والطـــرق . كـــل المعلومـــات .

احتلال بريطانى آخر . نفس الحدوتة تتكرر ، انجلترا وفرنسا ، وسبعون عاماً لم تنته إلا من ثلاثة أشهر فقط . وإذا حدث ، ماذا نفعل ؟ هل نبدأ مرحلة كفاح سرى مسلح ؟ قفزت إلى ذهنى قصة عمى عبد الحكيم شهيد اليد السوداء .

وصلنا القنطرة مع انتهاء الإنذار فى السادسة صباحاً ، ورأينا مظاهر نشاط الطيران الإسرائيلى والبريطانى . نقلنا إلى المعسكرات ، وهناك عرفنا أن اللواء مكلف بهجوم مضاد على ممر متلا ، وتحرك قائد اللواء بجزء منه إلى السويس ، على أن نلحق به بعد ذلك . لم يغمض لأحدنا جفن . جلسنا معا نترقب ما يحدث ، حماس جماعى لصد الاحتلال بأى ثمن . لم أخش على حياتى ، ولا شعرت أن واحداً من الجنود أو الضباط متردد فى التضحية بها . فما حياة الضابط إن لم تكن للوطن . كان خوفنا على الثورة ، على الجنين الذى لم تكتمل ملامحه بعد ، على القناة التى دفعنا ثمنها مائة وعشرين ألف شهيد ، ماتوا أثناء العمل بالسخرة فى حفرها ، والسد العالى الحلم الذى سيغير المصير .

قال أحد الزملاء : ياه ، كل هذا التعاون من دول كبرى لاستعادة القناة ؟ ليست مسألة قناة ولا دياولو .

قال آخر : ألم يتسرع جمال فى التأميم ؟ .

ولم نعد نعرف من الذى يسأل ومن الذى يجيب . اختلطت أصواتنا حتى بحت ، ونحن نقلب الاحتمالات والمعلومات . هل كان من الأفضل أن يقبل عبد الناصر الدخول فى الأحلاف ؟ لماذا تريد

أمريكا مساعدة إسرائيل ! لماذا حصار السلاح والمال الجماعى هذا ، إن لم يكونوا قد نووا على شئ من قبل ؟ صبت أفكارنا كلها فى بوتقة واحدة أوصلتنا لنتيجة لم نختلف عليها ، هى أن ما يحدث مؤامرة مدبرة من قبل ، وليست وليدة الصدفة .

فى الليلة التالية جاء لنا صول من القيادة الشرقية ، ومعه أمر بتحرك اللواء إلى التل الكبير . وفى نفس الوقت ، وصل أمر من قائد اللواء بأن نبدأ الحركة إلى السويس . ارتبكنا ، وزاد من صعوبة حركتنا عدم وجود سيارات لنقلنا . أبلغنا بوجود سيارات النقل العام فى انتظارنا غرب القنطرة ، وكان علينا أن نحمل ما يمكننا من معدات سيراً على الأقدام ، ثم نعبر قناة السويس بالمعديات . ساد التذمر بين متطوعى الحرس الوطنى ، وطرحوا سؤالاً بديهياً :

ــ كيف سنحارب إذا لم نكن نملك حتى سيارات لنقلنا ؟

دبروا لنا سيارات بعد ساعات من الارتباك نقلنا إلى الاسماعيلية ، على أن يذهب أحد الضباط إلى القيادة الشرقية ، ويسأل عن وجهتنا بالضبط . رمانا الارتباك فى أحضان الخوف . خفنا على الثورة ، على الوطن ، على كل ما أحببناه من قلوبنا . رأينا الشراسة التى يعاملنا بها العالم ، وأيضا الوقاحة ، ولم يخل الأمر من رهبة وإحباط ، ونحن نحسب قوة الدول الثلاث مجتمعة . فى هذه اللحظة ، ونحن فى أشد الحاجة إلى النور، سمعنا خطبة جمال عبد الناصر ، خرج صوته متحشرجاً :

ــ أنا فى القاهرة ، سأقاتل معكم ضد أى غزو إلى آخر نقطة دم .

سنبنى بلداً ، وتاريخاً ، ومستقبلاً ، وسننتصر .

ثم أضاف : إذا كانت لديهم القوة ، فربنا أكبر .

انتشلتنى الكلمة من الغرق ، وأوصلتنى لبر الأمان . الله أكبر . لا أهمية لما يمتلكون من أسلحة ، وما خططوه لضربنا . وضعنى جمال أمام الله مباشرة دون وسيط ، وحدد دون أن يدرى مصيرى فى الخطوة التالية ، وربما مصير الآلاف من المصريين غيرى . لقد احترمته ، وأحببته ، بل وأصبحت من أنصار الثورة ، وليس مشجعاً لما يستحق التشجيع فحسب .

تحركنا إلى السويس . طيران بريطانى فرنسى فوقنا لا يضربنا ، لكننا ننتظر الضرب فى كل لحظة . أزيز دائم فى طريقه إلى المطارات ، وقلوبنا شعلة من جمر تود أن تطول السماء ، وأن تقذف به إلى الجحيم . تعطلت بعض العربات ، ونحن فى أشد الحاجة إلى الوصول السريع إلى هدفنا ، تركناها مشفقين على مصير أفرادها حتى وصلنا إلى المثلث ، نقطة تلاقى القاهرة الاسماعيلية السويس ، وتوقفنا . بحث القائم بأعمال اللواء عن حل ، قال :

ـــ أريد ضابطاً يتطوع بالعودة بالأتوبيسات الفارغة ، وإحضار باقى اللواء .

تقدمت إليه ، وفى ذهنى كلمة جمال عبد الناصر ، ربنا أكبر .

ـــ أذهب أنا يافندم .

وأتممت المهمة بسلام تحت مظلة الطيران المعادى المشغول بأشياء أخرى عن حركتنا . تمنيت أن تكون رسالتى ، التى تركتها لابن عمى حلمى فى الإسكندرية ، قد وصلته حتى يطمئن الأهل . واحتلتنى نهى بحيويتها المشتعلة ، ورنين ضحكتها الذى يتردد فى المدى ، حتى وصلت إلى اللواء ، مصطحباً الفريق الذى تخلف فى الطريق . لكننى فوجئت بأن القيادة تخلت عن فكرة الهجوم المضاد ، وقيل لنا أنه سيتم إنزال قوات بريطانية ، فى جنوب السويس ، وعلينا منعها . تحركنا والارتباك يسود كل شئ ، وحين دب النظام ، وتوحدت أعضاء اللواء ، جاءنا أمر بالعودة إلى القاهرة .

ـــ إلى أين ؟

ـــ لا نعرف !

ركبنا الطريق ، تأملت ما يحدث حولى ، والأنباء تتوالى ، ومشاعرى تتمزع بين الإحساس بالارتباك، والعدوان ، والمقاومة ، والهزيمة ، والنصر ، والتراجع ، والتفوق ، والتآمر علينا ، ودفعنا إلى فخ لسحقنا . ورحت أنسحب تدريجيا للاختناق ـــ عرفت بعد ذلك بأيام، أن جمال عبد الناصر وجد أن إرسال قوات إلى سيناء يعنى التضحية بها بين القوات الإسرائيلية من الشرق ، والقوات الإنجليزية الفرنسية المشتركة التى تستهدف احتلال القناة فتحصرها من الغرب ، فقرر سحب قوات الجيش إلى منطقة القناة ، لتقف مع الشعب فى دفاعه عن حريته وقناته ، بدلا من دفعها إلى سيناء وهى ثُمن مساحة مصر كلها ،

والقوات المتيسرة ليست كافية للدفاع عنها ، فى ظروف تفرض الصحراء فيها متاعب إدارية وفنية كبيرة . قابلنا على مشارف القاهرة أركان حرب اللواء ، فأمرنا بالتحرك إلى الهرم . نمنا فى العربات إلى أن وصلنا فى السابعة صباحاً أمر بالتحرك إلى العباسية . وهناك عزفت عن كل شئ حولى ، وفضلت العزلة عن الزملاء فى أوقات الراحة . وأذكر أن جاء زميلى عبد الموجود ، وسألنى :

ـــ لماذا أنت حزين بهذا الشكل ؟ هذه مباراة . خسرنا جولة ونكسب جولة .

لم أرد ، ولم أستطع أن أرى ما يراه . اتصلت بأختى قمر فى بيتها بالعباسية ، وفوجئت بحالة الجزع الشديدة عندها . أخبرتنى أن رسالتى التى تركتها لحلمى فى الإسكندرية أثارت فزعاً فى العائلة ، إذ سرت شائعة تقول أن كل من عبر القناة من الجنود والضباط قد استشهد . وسألتنى لماذا لم أحاول الاتصال بها قبل ذلك ؟ قلت بهدوء : نحن فى حالة حرب يا قمر ، اتركيها لله ، وعدت إلى عالمى أترقب ما يحدث ثانيةً بثانية، أبحث عن منفذ دون جدوى . تخرجنى من الضيق أحياناً أغنية جميلة تقول :

دع سمائى فسمائى محرقة

دع مياهى فمياهى مغرقة

واترك الأرض فأرضى

دع سـمـــــائى دع
ســــمــائى

خففت الأغانى الوطنية من ثقل الموقف ، وكان لها فعل السحر ، لـكنها لم تستطع أن تصد سيل الأحداث المنهمر علينا . إنزال بريطـانى فى بورسعيد ، وأمر تكليف بالحـركة لصد العدوان ، بدأنا الاحتشاد له، لكن الموقف تغير ، وسافرت مجموعة من الصاعقة ، وبعض الضبـاط البورسعيديين أو الذين خدموا فيها وقتاً كبيراً ، وتم تنسيق العمل الفدائى بسرعة بين مجموعات العسكريين والمثقفين وعناصر أخرى ، وبقينا نحـن فى العباسية نتسقط أخبار الأحداث فى مدن القنـاة الثـلاث . إنـزال إنجليزى، وإنذار روسى ، دوت كلماته بيننا مثل طلقة مدفع ، تمهد لأزيز الطائرات ـــ إنا عاقدون العزم على استخدام القوة لسـحق المعتديـن ، وإعادة السلام إلى الشرق ـــ حرب عالمية ثالثة ؟! سرى السؤال فى أفئدتنا كالنار، لكنه بعث فينا روحاً جديدةً . أخيراً قوة أخرى ستقف معنـا . ليست بالهينة . انتعشنا ، وتناقلنا قصص مقاومـة النـاس للإنـزال فى بورسعـيد مستخدمين كل شئ حتى أغطية الأوانى النحاسية . وجاءنـا أمر ليلة السـابع من نوفمبر بتوزيع قـوات اللـواء علـى الاسماعيليـة والسويس مع إعلان إيدن وقف القتال ، وكان من نصيـبى الحركـة إلى السويس . قائد سرية برتبة يوزباشى فى الحادية والعشرين مـن العمـر . سافرنا بروح أخرى ، وانهمرت علينا كل الإمكانيـات الـتى طلبناهـا لتحصين المدينة فحولناها فى غضون أيام إلى ثكنة عسكرية كبيرة لا يمكن

اختراقها .

انتهى العدوان دون أن أرى من العدو سوى الطيران . إسرائيل لم تعبر المضايق ، ولهذا رغم وجودنا على القناة لم نرها على عكس ١٩٦٧ . انسحبت بعد تدمير كامل لمنشآت سيناء . آبار ومناجم وخطوط سكك حديدية وصهاريج ، ومبان . وأصبحت أكثر قبولاً لجمال عبد الناصر من ذى قبل . إذ أدركت حجم الصراع الذى يواجهه ، وأصبح بالنسـبة لى رمزاً لمصر كلها. وعدت إلى مدرسة المشاة حتى أعلنت الوحدة . وفتحت لى مـرحلة ثانية للاقتراب منه . فى عام ١٩٥٦ عندمـا أعلـن عـن الاستفتاء على رئيس الجمهورية والدستور ، لم أوافق لا على هـذا ولا على ذاك . لم أكن أتبين الطريق بعد ، وفضلت انتظار ما تسـفر عنـه الأحداث القادمة . فى فبراير ١٩٥٨ ، وافقت على الاستفتاء على الوحدة بحماس لبطل الجلاءين وسبب الوحدة .

هكذا تغيرت علاقتى بعبد الناصر والثورة .

ما لم يتغير فى حياتى هو أنتِ . أنتِ يا نهى .

توقف عن القراءة ، وراح يحدث نفسه بصوت عال يعرف أنه لا يصل لأحد وسط هذا السكون :

ـــ معنى هذا أننى لم أكتب هذه الأوراق فى حينها . بل كتبتـها على الأقل بعد ١٩٦٧ . لا ، ربما كتبت بعضها ، وأضفـت تعليقـات فى زمـن آخر ، أو أننى استعنت فى كتابتها يوماً ما بيوميـات كنـت أكتبها ساعةً بساعة .. لماذا الاستعجال . حتماً سأكتشف .

ما لم يتغير فى حياتى هو أنتِ . أنتِ يا نهى ، يامهرتى الجامحـــة . أراك فى ليلة صافية تمرقين مثل شهاب يضئ العتمة ، تكشفـــين فى قلـــبى اللوعة ، وتهربين إلى السحب . أحسب الأيام كى أعـــود إلى المنتـــهى ، وألقاك . لا أعى يوماً واحداً فى طفولتى أو صباى دونك ، ولا أذكـــــر أننى فرحـــت بنجاح إلا لأهديه لك . متى اكتشفنا هـــذا الحـــب ؟ لا أعرف. أتصوره موجوداً منذ وعينا الوجود . طفلان يتسلقان الشجـــر ، يجمعان التوت والجميز ، ويخبئان الثمار فى القـــش . يترعان فى النـــهر ليلاً ونهاراً ، ويتابعان جامعى القطن ، ويغوصان مـــع شتـــلات الأرز . يتدحرجان وســـط أكوام التبن ، ويختبئان معا من الثلة . أصدق أحيانـــاً أننى أحببتك فى السابعة من عمرى ، وأذكر هذا اليوم جيداً . كنـــت فى الشكمة وسط رجال العائلة ، نستقبل تهانى عيد الأضحى ، ثم وصلت إلى الحرملك ، وتلكأت أشاهد الحوش الهايص بالعائلـــة : حلمـــى ونـــازلى يركضان وراء ديك رومى ، وقمر تنهرهما وهى مشـــغولة مع الطباخين، ونينا وديدة تتهم عمتى نعمة بأنها تحكى حكايات فارغة ، حتى لا تمـــد

يدها بالمساعدة ، وعمتى تضحك وتقول أنا مرأة أبيك وعمتك أخت زوجك وعليك الطاعة . شهلى .

قلت لنينا : أسرعى بإعداد الإفطار لأبى وضيوفه لأن جدى عبد القادر يتوعد فى الخارج بنفى الجزار إلى الجزيرة التى نفى إليها سعد زغلول .

قالت : من عينى .

سمعت صوتك تقولين :

ـــ البيضة يا ماما ..

لم أرك ؟ وأعدت طلبات جدى لجدتى عديلة ، فقالت :

ـــ حاضر . النهار فى أوله ؟ الكوانين محمية على آخرها .

ـــ البيضة يا ماما .

تلفتُّ حولى ، فلم أعرف أين أنت . سألت نينا :

ـــ أين نمى ؟

تتبعنا مصدر الصوت . رأيناك تتحدثين إلينا من بين خشبات درابزين الطابق الثالث . لم يكن عمرك ذاك الوقت يزيد على سنتين ، وربما ثلاث . وقفت مثل عصفور صغير ، وسط قفص كبير يستطيع الطيران من بين فتحاته ، تمسكين ببيضة فى يد ، وبطرف فستانك المشلوح ليغطى بيضات أخرى فى اليد الثانية .

ـــ البيضة .

صرخت عمتى نعيمة : حاسبى

قالت أمى : اذهبى إلى الفرخة . هاتى بيضة وبيضة

تردين ببراءة ، لا تعرفين ما ينتظرك إذا تحركت : أخذتها من الفرخة ، ركضت إلى الدرج ، وسبقت الراكضين إلى السطح، وما زالت أمى تحاول إبعادك عن السور . رأيت الباب مغلقاً ، فلم أفهم كيف دخلت. فتحت الثقالة بصعوبة ، وتسللت على أطراف أصابعى ، واحتضنتك قبل أن تتقدمى خطوةً أخرى إلى الهاوية ، ونزلت بك لنلتقى بنصف الموجودين على بسطة السلم ، وصراخهم الذى يصل إلى ضيوف العملة . وعرفنا أنك زحفت إلى العشش من تحت الباب الخشبى المرتفع قليلاً عن الأرض . اختطفتك أمك من بين ذراعى ، وما زلت تحكين عن البيضة ، والبطة والفرخة ، ولا تدركين سر انزعاجهم. فهل نصبت نفسى مسئولاً عنك منذ هذه اللحظة المفعمة بالخوف ، فرحت أحملك وأدور بك بين أيامى ؟ أم أن إحساسى بك انبعث فى لحظة أخرى ؟

معاً . دائماً معاً . أطفال أشرار نوقع حلمى فى شراك صغيرة ونهرب ، ونسمع شتائم عمتى نعيمة تلعن اليوم الذى لم يربنا فيه أبوانا، وتتوعدنا بالقتل جزاء ما فعلناه بوحيدها . اكتشفت يوم زفاف أختى قمر وفريد شوكت كم أنت جميلة بهذه الخطوط السوداء المحددة لملامحك فوق بشرتك الخمرية ، حين بحثت عنك وسط البنات فى زفة العروس.

رأيت شعرك المطلق السراح من الضفيرة لأول مرة . غجـــرى يســابق الريح. شق قلبي الطريق إلى الأحشاء ، وأطلق فيها سعيراً . عرفت لحظتها أنني سألاقي صعوبةً في رؤيتك بعد ذلك . لقد نضجت ، وأصبحت فتاةً، وستنضمين إلى عالم الحرملك . لكنك أبداً بقيت طيراً حراً يغني النمو بين الشجر ، لا تكاد قدماه تلمسان الأرض قط ـــ حطي قليلاً يا نمي حـــتى ألمسك ـــ معلقة العينين دائما بفضاء ، كأنك خلقت خطأً كائناً برياً ..

تعرفنا على الأشياء نفسها معاً ، عشقناها معاً ، ومللناهـــا معــاً أيضاً. شئ واحد لم تشاركيني فيه أبداً، وقفت على عتبتـــه ، تشــاهدين وترتجفين : الصيد .

أسمع استدعاءه لي في الأفق . أتتبعه بخطى وئيدة حذرة ، تشـــدني إليه لعبة الغفلة . الغافل يخسر حياته أو صيده . أبحث عن سبيل المواجهة. أجن بلحظة القنص ، وأشتهي فرحة الإطلاقة الصائبة . أركض نحوهـــا فائزاً منتصراً . تعلمت الذوبان وسط الكائنات حتى تـــأمن الفريســة ، وتكسب حريتها ، فأنقضُّ عليها . لا تدركـــين أن الصيـــد والخـــلاص صنوان، ولا تعبئين بفرحتي ، وأنا عائد بطيور العتر ، والبط العراقي شتاءً، والثعـــالب صيفاً . تتسمر عيناك في العينين الزجاجيتين لهـــا . تتابعينـــها بحزن لا أفهمه . تهربين من الدم المسفوك ، إذا كـــان الطـــير ســاخناً ، تشيحين عنه وعني . تتبخر قوتك التي تزهين بها أمام الآخرين ، مدعيةً أن لا شئ يخيفك . راقبتك كثيراً ، وأنت تفرين من تجمعات الصيد ، حـــتى الأسماك التي لم أجد في صيدها متعةً كبيرةً ، كنت تمرين بهـــا مبتعـــدةً،

وتتأملينها بيؤس لا يناسب الحدث . تقولين لى :"ليس الخوف ، بل الحزن على إهراق حياة كانت ترتعش بالأمل منذ قليل !" . لم أتأمل كلمـــاتك أبداً ، أو أقف عند التماعة دموعك التى تترقرق فى مقلتيـــك ، تعميـــنى الفرحة بحصيلة رحلتى ..

أنتظر العطلات لنلتقى . لم أنتبه ـــ إلا متأخراً ـــ إلى أنك الوحيدة من بين البنات التى لم تطبق عليها القواعد الصارمة للعائلة، ولم أســـأل لماذا ؟ خرجت من الباب الرئيسى للدوار مروراً بالشـكمة التى يجلـــس فيها الرجال ، ولم تنتظرى السيارة أبداً داخل الحرملـــك . مشيـــت فى الطريق العام نهـــاراً إلى الدور الأخرى ، ولم تنتظرى ســـــتر الليـــل . قررت أن تعملى بعد انتهاء الدراســـة ، ولم يعترض أحـــد ، رغـــم أن الجميع تهكم ، حين طرحت قمر وكوثر نفس الفكرة .. لعبت وســـطنا لسن أكبر كثيراً مما تتوقف عنده البنات . قالوا إنك لا تصـــبرين علـــى أعمال البيت ، لكننى ما رأيت أكثر منك نشاطاً وعملاً وسط تجمعـــات العائلة ، فى أفراحها ، وأحزانها ، ثم تختفين بعدئذ من الحرملـــك لحـــين حاجة حقيقية إليك ، فتترعين وسطها .

أحببتك وكفى ، أيتها الفراشة الشرسة .. نعم الشرسة ، فلم يمـــر يوم واحد دون صدام ـــ هل كنت فى حاجة إلى أن أقطع كـــل هـــذه السنوات من العمر كى أدرك أن ملاحظاتى لم تكـــن مجـــرد تشذيـــب للصورة ، وتقريب لوجهات النظر كما كنت أعتقد ، لكنـــها كـــانت محاولات للتغيير فى بنية الشخصية . ولم أدرك ساعتها أن هنـــاك أسســـاً

وأعمدة إذا تداعت بمعاول الآخرين انهار كل شئ فى الداخل ـــ احتجت تجارب العمر كله كى أدرك ذلك. يا قطتى الوديعة الحانية ، التى لم أحس بمثل حنانها إلا مع أمى ـــ القط أيضا كائن له شروط يفرضها للاقـــتراب منه . تبعثرنا الســـيارات إلى مدارسنا فى المدن وننتظر الأعياد لكى نلتقى، إلى أن تخرجت . أدركت ساعتها أنك عائلتى الـــتى أود أن تشـــاركنى فرحتى بالتخرج قبل الآخرين ، وقررت أن أذهب إليـــك فى المدرســة. أتذكرين فرحتك ، حين استدعتك المديرة ، فوجدتنى أمامك ـــ لمـــاذا لم نفعل ذلك قبل هذا الزمان ؟ ـــ لم أكن أملك كلمات لأقولها . أردت أن أراك فحسب . سألتك :

ـــ أتريدين شيئاً من المنتهى ؟

سكت ، فأعدتُ السؤال :

ـــ مسافر الآن . أتريدين شيئاً ؟

ـــ نعم .

ـــ ما هو ؟

رفعت نحوى عينين صامتتين ، ما عهدت فيهما كل هذا الجمال ، وهذا الهدوء المفاجئ . أشعلتا بهدوئهما كل ما تسترت عليه من عواطف، فندمت على مجيئى فى هذه اللحظة ، فما تمنيت شيئاً قـــدر مـــا تمنيـــت احتضانك ، ووقفت مأسوراً بالمديرة ، والمدرسة ، والتقاليد .

رحلت بعدها من المنتهى إلى منطقة العوجة الدولية ، وحملت معى

النداء القاهر من عينيك ، وهناك اقتسمت المكان مع ضـــابط الاتصـــال الإسرائيلى . لم أقبل أن أتبادل معه كلمةً واحدةً . فما جمعنـــا ليـــس إلا ظرف اســـتثنائى فرضته اتفاقية هدنة ١٩٤٨ ، الـــتى اعتـــبرت منطقـــة العوجة الدولية منطقة منزوعة السلاح تقيم فيها هيئة مراقبـــة الهدنـــة ، وتتكون من مراقب من الأمم المتحدة ، وضابط اتصال مصرى هو أنـــا وآخر إسرائيلى ، بالإضافة إلى حرس مـــن الجنـــود يحرســـون المنطقـــة بالتناوب.

أيقظتنى خطوات الضابط الإسرائيلى ، فى ممر البناء الذى ســـكنّاه معا ، من أحلامى ، وذكرتنى بالواقع . لم أكن أعى فى هذا الوقـــت أن هذا الضابط الإسرائيلى ، سيقف حائلاً بينى وبين اســـتمتاعى بالحيـــاة ، والحرية ، ربما منذ جرح عمى رشـــدى قبل هـــذا بســـنوات ، وأنـــنى سألعب معه لعبة الغفلة . أقصد الصيد ، لأن وجود أحدنا ينفى وجـــود الآخر .

قطع محمود شوطاً طويلاً فى القراءة . شعر بفوران ، لم يستطع أن يحدد مكانه . هل يبدأ من رأسه ، ويتزل إلى الأمعـــاء ؟ أم أن أعضـــاءه كلها تبدل أماكنها مع الرأس . قال محدثا نفسه :

ــ أشعر أنى موجة ، تنقلب على الرمـــــال ، تنفــرط إلى آلاف القطرات ، تنبسط ، ثم تعود حاملة الذرات إلى عرض البحر. فيها بصمة الاحتكاك والانسحاب ، والالتحام من جديد ، لكنها هذه المرة ترســب فى القاع ذكريات أخرى ، وينفلت بعضها ليرى الشمس . لن أكتفـــى بهذه السياحة فى الأحداث . فى داخلى صوت يردد أن المسألة ليست مجرد احتياج لتفتيت شظايا دم ، تجلطت فى شرايين الرأس من الحادث . بل إن هنـــاك جلطة ، تحوصلت داخل بئرى ، الذى يبدو لى صافياً من الخارج، تنتظر الكشف عنها . ضابط مشاكس ، هذا شئ أرضى عنـــه تمامـــاً ، يتوافق مع رغبتى فى الصورة التى أود أن أكون عليها فى السابق . دبيب ما ينبهنى إلى أننى فى حاجة إلى أن أخوض اللجة ، لأصل إلى جزيرة المعرفة . أخوضها بنفسى وأواجه الخطر الذى يتربص بى فى المياه العميقة السوداء ،

وأهزم الكائنات السرية التي تظن أن بإمكانها الاختفاء عني طويلاً .
يدفعني الفضول لاستكمال القراءة، ومعرفة المزيد عن هذا الإنسان اللغز الذي كنته . لا شئ حتى الآن يشير إلى ذنب ما ، إلى هزيمة . لا شئ يشير إلى انكسار . حياة عادية لضابط يتنقل من خطوة إلى أخرى في ثبات . يتعلم العبرية وينتقل من مدرسة المشاة إلى هيئة التدريب ، ثم رئيساً لفرع التربية العسكرية ، ويضع تخطيطاً لمنهج يُدرَّس في جميع المدارس ، ويمارس عسكريته كأحسن ما يكون — طبقاً للأوراق المسجلة أمامي الآن — ينقصه شئ واحد ، هو الرغبة الدائمة في العودة إلى التشكيلات ، والوحدات ، ويطالب بها رؤساءه ، لكنهم يرون صعوبةً في الحصول على مدرس ، وكان مدرساً .

أين ما أبحث عنه ؟ هل جاء بعد هذه الفترة ؟

توقفت في القراءة عند نقلي إلى الكلية الحربية في مارس ١٩٦١ ، يكفي هذا القدر الآن . أحتاج إلى شئ من الراحة ، تزداد رغبتي في إعادة قراءة كتبي التي أشعر بأنفاسي الماضية تتخلل أوراقها ، ولمسات هذا الكائن الذي أتعرف على ملامحه ، ولا تكشف لي المرآة إلا ظلاً لصورته، أتأمل الخطوط الدقيقة التي خطها في السنوات العابرة تحت كلمات بعينها.

— لماذا أهتم بهذه الملاحظات ؟

— ربما لأنني أشعر بألفة ما ، وتواصل مع الأفكار التي تختصر أفكار الكتاب ، وتضع قلبه أمامي بصورة صحيحة . أو ربما لأني أشعر

أن حياةً مرت من هنا .

قرأ فى فن الحياة للوزير بتاح حتب وزير ملك الوجـــهين القبلـــى والبحرى؛ أسيس الحى على مر الزمان وإلى الأبد ، تحت عنوان السـعادة ما هو مخطط .

(أتبِع رغبتك على امتداد حياتك لا تفعل أكثر مما هو محدد لك ، ولكن لا تختصر زمن التقييد بالقلب . إن إبادة لحظة هو أمـــر يمقتـه (كا). لا تصرف نشاطك إلى الأعباء اليومية بدافع من الاهتمام المبالغ فيه بشـئون دارك ، وعندما تأتى الثروة ، اتبـع رغبتك لأن الثراء لا يكتمل إذا لم يكن المرء سعيدا .)

تأمل العلامة الصغيرة فوق لا تفعل أكثر مما هو محدد لك .

ــ لم أقبل إذن أن أفعل المحدد ، فماذا فعلت لكسر هذا المحدد ؟

تنقل بعينيه إلى الإشارة الأخرى .

ــ هل كنت سعيداً ؟

أغلق الكتاب وسحب ورقة ، لاحظ أنه نقلها بخط يـده . قـرأ عنوانها من الترنيمة العظمى لآتون كتبها إخناتون :

"وتعود الحياة من جديد ، عندما تشرق ، ويضئ قرص الشمس فى النهار ، ويصير كأنه أتون نار ، ويختفى لذلك الظـلام، ويتمـزق رداء الليل، وإذا بقطريها يتهللان ، ويفيق الناس مـن غفلتـهم ، وإذا هـم

يغتسلون ، ويلبسون ثيابهم ، ليتجهوا إليك..

لاحظ التاريخ المدون على الورقة . اكتشف أنه تاريخ الشهر الماضى .. ابتسم !!

قام إلى أمه ، إلى جلستهما وحيدين فى السباط ، والتى أصبحت يومية الآن بعد أن فتحت القراءة شهيته للمعرفة أكثر ، تركها تحكى ذكريات الدار ، وأدركت هى ما يريد . تذكرت أن مذكراته تبدأ فى الفترة التى تزوج فيها عمه حيدر من كريمان ، بعد أن رحلت زوجته إقبال أثناء ولادة بيللا .

حكت وديدة ، استدعت شخصيات ومشاعر ، واختلطت بينهما الصور ، وسرى الدفء يلف المكان ، ويفتح الباب للحنين.

.. ..

.. ..

انتقلت كل المتعلقات الصغيرة لإقبال زوجة حيدر الراحلة إلى غرفة بيللا . أصرت وديدة أن ينتقل أثاث غرفة النوم أيضاً ليحل محل أثاث الطفلة ، وقالت إن من حق بيللا أن تعيش وسط عالم أمها ورقة تفاصيله . أشرفت بنفسها على تحويل الحائط إلى متحف للوحات التى كانت تهواها إقبال ، مستنسخات مايكل انجلو ، ومانيه ، وجوجان ، وغيرهم ، تتصدرها صورة كبيرة لإقبال فى ثوب الفرح بدت فيه كفراشة طافية فوق الريح ، وخصصت رفوفاً ناعمة للتحف الإيطالية ،

والمنمنمات التى تصور العذراء فى أبهى صورة، وفردت مساحة واضحة لمطرزات القطيفة المنثورة باللؤلؤ التى طرزتها إقبال بنفسها ، وجمعت اسطواناتها فى دولاب خاص ، ثم وزعت باقى أثاث الجناح على مختلف أرجاء الدوار فضاع ، واندثر وسط الغرف الكثيرة ، وراحت بهجة تناغمه وانسجامه معا التى كانت مضرب الأمثال فى يوم ما.

جاءت مفروشات العروس الجديدة كريمان لتغير ملامح المكان ، وسرى بين أفراد العائلة شعور ما بأنه منحوس ، حتى أعلنته نعمة صراحةً لوديدة وهى خائفة :

ــ عتبات فرحة وعتبات طالحة .

غرقت وديدة فى الكلمات ، فكادت أن تدوس عنتر الرابع الديك السارح وراءها فى كل مكان فزعق .. ابتلعت ريقها وهى تهش الفكرة التى تدق رأسها ، وانشغلت بربط قرطتها التى تدلت على حاجبها فجأة .

ــ هو قدر والله أعلم

وراحت تبذر الحب بيديها ، دون وعى ، فهاص الحوش بالطيور .

ــ لماذا لا نفتح الطابق الثالث ، ونعمر شقة عبد الحكيم ؟

ــ تركته أمك لابنته عديلة ، ولن يجرؤ مخلوق على مخالفةً رغبتها بعد رحيلها ..

ــ أتصدقين أنها تعود ؟

ـــ من يدرى ؟ الدم يحن ..

انشغلوا بترتيبات استقبال العروس ، دون أن تجرؤ واحدة منهن على أن ترفع صوتها بالغناء لتحية الحدث ، رغم أن وديدة أصرت على إقامة فرح فى القاهرة ، إكراماً للعروس العذراء . وبذلت كل ما تستطيع لكسب ودها ، بعد وصولها ، حتى أنها أعادت بيللا لأحضانها ، لفترة، كى تعتاد كريمان حياتها الجديدة. وعاد حيدر لجلسته ، فى الصباح المبكر ، على المصطبة ، فى حوش الدار أمام بيللا ، ووديدة تمشط ضفائرها السوداء الطويلة ، التى تغطى خصرها قبل اصطحابها إلى المدرسة.

لا يتذكر واحد من أهل الدار ، متى نزلت كريمان ذات صباح ، إلى هذا المجلس اليومى ، لتمسك بالمشط بدلاً من وديدة، وتصفف لبيللا شعرها ، وتدعوها إلى العودة إلى غرفتها . كل ما تذكروه هو السعادة التى ترفرف على الطابق الذى عاش حزيناً طويلاً . قالوها وهم يستعينون باسم الله ، من الشيطان ، خوفاً من الحسد . وجد حيدر راحته أخيراً . نجاح فى مكتبه ، على بعد كيلومترات من المنتهى ، وهدوء فى البيت ، وزوجة ممتنة للمعجزة التى جعلت أباها يوافق على زواجها ، قبل أخواتها الثلاث ، اللاتى فاتهن سن الزواج ، وأنقذها من عنوس محقق بعد أن أصبحت فى الثلاثين ، دون بارقة أمل فى أن يغير أبوها رأيه فى تزويج الابنة الكبرى أولاً . وكانت الثانية أجمل منها كثيراً ، يطلبها الجميع ، ومع تكرار رفض الأب نضجت الأختان الأصغر وزاحمتاها ،

ورغم كل المحاولات التى تمت بعد ذلك لإخفاء البنات الثلاث ، وتقـــدم أختهن للمجتمعات ، فشلت فى الحصول على عريس . وانصرفت العائلة، والأصدقاء عن البنات أجمع ، باعتبار أن رفض الأب أمر مفروغ منـــه ، حتى فكرت فيها نعيمة ابنة خالتها ، وهى تحاول جاهدةً إقنـــاع حيـــدر بالزواج مرةً أخرى، بعد رحيل إقبال ، وقالت لطه :

ــ كريمان فتاة قوية ستساعده .

ــ لن يعترف زوج خالتك الآن بأنه أخطأ .

ــ لدىّ حل ، إذا نجحت سأخبركم به .

ركز طه بصره فى عينيها مستفسراً ، وفهمت أنه موافق ، وهزت وديدة رأسها ، تفكر فى خطة نعيمة التى لم تفصح عنها .

يومان ، عادت نعيمة بعدهما بخبر موافقة زوج خالتـــها ، الـــذى فوجئ به الجميع ، مطالبةً إياهم بمساعدتها فى إقناع حيدر ، الذى استسلم فى النهاية .

كريمان هى الوحيدة التى علمت بأمر الاتفاق ، الذى تم بين نعيمة وأبيها ، والذى قايضت فيه نعيمة زوج خالتها زواج صغرى بناته بزواج ابنته الكبرى ، وقدمت له عريساً قادماً من أمريكا للزواج من مصريـــة ، والعـــــودة فوراً . ووعدت بأن تحل مشكلة الأختين الأخريين ، بالسعى إلى زواجهما . لم يجد الأب مفراً من الموافقة أمام هذا العرض المغـــرى ، الذى تم تنفيذه بسرعة، وأصبح حديث العائلة ، حتى أنهم تندروا لزمـــن

طويل ، قائلين : أين كانت نعيمة لكى تفك النحس ، بـــل إن بعــض النسوة بدأن فى التودد إليها ، حاسبات أنها قادرة على الســـعى لإيجـــاد عريس معتبر لبناتهن ، فى سرية ، ودون حرج ، رغم أنهن لم يعلمن عـــن الاتفـــاق، بل أدركته ، وربطن بين الأحداث بعد ذلك ، واســـتخدمن كل الدهاء ، كى تفصح نعيمة ، أو وديدة ، عـــن التفـــاصيل دون أن يظفرن بشىء .

ظهرت العروس وسط الدار . قصيرة القامـــة ، ربعـــة ، بيضـــاء البشرة، حادة الملامح ، تشبه كثيراً خالتها عديلة وابنتها نعيمـــة . تهتـــم بشعرها الأسود ، خفيف التجاعيد ، وتقصه عند كتفيها ، وتصففـــه ، كما تصفف ريتا هيوارث شعرها الأحمر . كانت جميلةً هـــذا الجمـــال الأرستقراطى الرزين ، وصفوها قائلين : "بنت عاقلة ، يفر الثعبان مـــن تحتهـــا دون أن تهتز" . لم تكن مرحةً مثل إقبال ، أو مرهفة الحس مثلها، لكنها كانت مريحةً ، تعطى للمتحدث معها شعوراً بإمكانيـــة الاعتمـــاد عليها .

حملت كريمان بعد سنة من زواجها ، وأحيطت من أهلها بفـــرح غامر فى انتظار الحفيد الأول . فلم يمر أســـبوع إلا ووصـــل أحدهـــم للاطمئنان عليها ، وإغداقها بالهدايا . الغريب أن هذا الحمل تســـبب فى انقلاب العلاقة ـــ على غير المتوقع ـــ بين حيدر وعروسه . ورغم أنـــه التزم الصمت ، و لم يوجـــه كلمةً واحدةً تدل على غضب أو تـــبرم ، إلا أن حاله لم يخف على أحد ؛ فقد بدا كأن مساً حوّله من رجـــل فى

منتصف العمر إلى عجوز محنى الظهر، زاغت نظراته ، وطال تفكيره ، ولم يعد الدوار يسمع مداعباته مع بيللا .

قالت نعيمة التى تزور الدوار لوديدة :

ـــ كبدى .. حتى عند رحيل إقبال ، لم يكن على هذا الحال . ماذا جرى له ؟

أجابت وديدة ، وهى تفتت كسرة خبز للكتاكيت أمامها :

ـــ هل يفكر فى رحيل إقبال يوم الولادة ؟ لكن كريمان عفية ، وكل شئ نصيب .

احتارت نعيمة ، ولم تصل إلى نتيجة ، وطال صمت حيدر، حتى أن كريمان سألته ذات يوم إن كان لا يريد المولود ؟ فأجاب متزعجاً : "أريدك أنت" . لكن الإجابة لم تطمئن العروس، التى رصدت هزاله المستمر وابتعاده عنها ، بالانطواء التام على نفسه ، فى غرفة مكتبه ، أو البقاء لساعة متأخرة يعمل فى الخارج . توجست من حالته ، وأوعزتها إلى خوفه على ابنته من تغير الأحوال ، بعد قدوم المولود ، ووصلت إلى نتيجة ، لم تستطع الأيام تغييرها : "أن حيدر لم يرغب فى أطفال منها !"

لاحظت وديدة فى تصرفات كريمان ارتباكاً كثيراً ، خاصةً فى علاقتها ببيللا ، إذ بدأ ينمو بينهما نفور غير منظور ، أرجعته وديدة أول الأمر لتوتر الحمل ، الذى كثيراً ما يصيب النساء ، وحاولت تعويض

بيللا بحنان أكثر ، لكن الأمر ازداد سوءاً ، باقتراب موعـــد الــولادة ، وابتعاد حيدر الذى لم يعد يشاهد مع زوجته أو ابنته .

حين انطلق هدير دبابات الآلام الموجعة الــتى تفتــت عضــلات كريمان ، وتفتح طريقاً لخروج الجنين ، صـــرخت فى بيللا أن تبتعد، رغم أن الطفلة كانت تسألها عما بها ، وهى ترتجف خوفــاً عليــها ، دون أن تفهم ما يحدث . اختطفت وديدة بيللا مـــن الغرفــة ، وأرســلتها إلى جناحها، راجيةً من أطفالها إغلاق الباب عليهم حتى تعود ، وحـــاولت تهدئة كريمان التى تزأر بزئير مكتوم غاضب ، وتمزق حاشيةً فى يدهـــا ، طالبةً حيدر ، الذى وصل مع انطلاق زغرودة طويلة تعلن عن وصـــول المولود ســالماً . حمل الأب الطفل الأحمر الشعر بين يديــــه ، وابتســم لكريمان ، التى شعرت أن زوجها عاد إليها ، وقال :

ـــ يشبه أخى عبد الحكيم ، الله يرحمه .

انطلقت الزغاريد ، فأطارت صواب الأطفال ، وفكت أسرهم ، فوصلوا مهرولين ، ودللوا الطفل قائلين : حكم . وانسحب حيدر وحيداً إلى الصالة ، واستدعى فى دخيلته أخاه الذى رعاه فى صباه ، أثناء سنوات الحرب العــالمية الأولى فى باريس. كان فى الثانية عشرة حــين أرســلته العائلة ليلتحق بأخيه عبد الحكيم طالب الطب ، ومنعتهما ظروف الحرب من العــودة لسنوات ، اتخذه مثله الأعلى ، وقدره ، لكن دون أن يقلده. كانا مختلفين بشدة ، وكان حيدر يعرف أنه لا يستطيع أن يشبهـــه ، أو يصل إلى ما وصـــل إليه . تذكر أيضاً أنه كان قد عـــاد إلى بـــاريس

وحيداً ، حين استشهد عبد الحكيم فى المنتهى ، فلم ير الأحـداث الـتى تناقلتها المنتهى عن الثائر الأسطورة ، الذى دمر معسـكرات الإنجليـز ، وترصد الجنود فى كل مكان ، ثم استشهد بعد ذلك ليحمى قريتـه مـن انتقام العسكر ، وطار جثمانه ليستقر ، وسط الغيطان ، وترجـل مـن نعشه، ووقف على قدميه ثم دخل القبر ماشياً ، لتستوى الأرض وحدها ، وتعـود لسيرتها الأولى . ويعود الثائر فى كل أزمة يحل المشاكل ، ويشفى الأمراض ، ويعين المحتاج، أو ينقذ مصاباً من كارثة .

تجسد له عبد الحكيم قائلاً مبروك المولود ، احتضنه ثم اختفى كما ظهـر . قال له وهو يرحل : ليته يكون مثلـك ، فـاغرورقت عينـاه بالدموع . ثم انتبه لكلمات وديدة :

ـــ زارتنى أمك فى منامى ، وأوصتنى أن يكون المولود الجديد عبد الحكيم !!

ربت على كتفها ومضى ..

أشرفت وديدة بنفسها على ترتيب احتفال كبير للسبوع ، أوصت بإحضار حلبة حصى ، ومغات هندى ، وبخور جاوى وأنبتت فول نابت فى ماء حمام حكم وثقبته ، ولضمته فى خيط ، وصنعت منـه حلقـات علقت واحدة فى صدره وأخرى فى صدر كريمان ، وصنعـت للمولـود حجاباً من سبع حبوب ، وانشغلت العائلة فى مـلء أكيـاس الملبـس والشيكولاته والنُقْل ، وفى المساء خطت كريمان فوق البخور المشتعل سبع مـرات ، والجميع يرددون وراءها ، وقنوع الداية تلقنهم : الأولة بسم

الله ، الثانية رقوة محمد بن عبد الله .. ثم خطت فوق حكم النائم مستكيناً فى الغربال بجـوار السكين . بعدها هزته قنوع بعنف كأنها تغربل طحيناً، ثم تركته فوق الأرض ، ودقوا حوله الهون وحملوه ، بعـد أن لقنـوه أن يسمع كلام أمه وأبيه ، وخالته ، وسته ، فى زفة وهم يرشون الملـح فى كل مكان ستخطو فيه ..

انتعشت كريمان ، ونسيت كل ما صدر منها فى شـهور الحمـل الأخيرة ، بعد أن عاد حيدر إلى طبيعته ، إلا شيئاً واحداً لم تسـتطع أن تدبره بكياسة ، هو خوفها غير المبرر من اقتراب بيللا من المولود ، وهـو ما دفـع بيللا إلى خوف غريزى ، لا تدرى كنهه، يجعلها تقـف أمـام سرير أخيها دون أن تجسر على لمسه ، وهى فى شدة التوق لملاطفته .

عاد إلى دفتر أوراقه ، متلهفاً على المعرفة .. مرتاحاً لما يستوعبه عقله بسرعة من معلومات فى العلوم المختلفة .. قرأ :

عدت إلى الكلية الحربية مدرساً . استعدت سنوات الدراسة ، زملائى وأساتذتى ، وطرائف الحياة الجماعية . أحلامى فى الجندية . طفل صغير ، لا يتجاوز الخامسة ، يربط فرع شجرة أطول منه بحبل ، ويعلقه فى رقبته . تنادى أمى تعال يا حضرة الضابط خذ طعامك ، أرد غاضباً عسكرى . وأسدد إليها فرع الشجرة مهدداً . كبر معى الحلم ، وتشبثت به ، لم أحلم أبداً بغيره ، ربما من تأثير عمى رشدى ، وحكاياته الكثيرة عن الجيش فى طفولتى ، وانتظارنا الدائم له ، والفرح الذى كان يقلب الدوار ، ويبهج جدتى عديلة ، وجدى عبد القادر حين يصل . ربما كانت حكايات جدتى عن أبيها الحكمدار فى السودان . ربما ارتباط الجندية فى بيتنا بالعزة والكرامة ، لا أدرى . لكننى ما نسيت أبداً عودة عمى رشدى فى سنة ثمانية وأربعين ، ولا إصابته ، ولا ثورته وهياجه ، التى فتتت أكبادنا أثناء الحصار ، ورغبته فى العودة إلى

زملائه المجاهدين فى الفالوجا ، واصطدامه بعجزه بسبب الجرح . كنت فى الثالثة عشـــرة من عمرى . أتابعه من قريب ، ومن بعيد ، وأشعر بأزمته، وبأننى أفهمه تماماً ، وأكظم الغيظ ، وأمنى النفس بأن لى دوراً فى الثـــأر سأؤديه . ربما لا يكون هذا ولا ذاك . بل كان مجرد حلم لصبى أراد القوة والشجاعة ، دون إدراك ، فلما تعلمهما فى الجندية ، عرف أنه أصـــاب الهدف الذى يريد . ربما بسبب استشهاد عمى عبـــد الحكيـــم الــذى يتكتمون حقيقة موته ، ويذكرونها بأسى . نشروا صورته فى كل الطوابق مجللةً بالسواد ، وقالوا فى الخفاء : حتى لا ننسى شـــهيدنا ، ولم يذكـــر واحد منهم شيئاً عن رسالته . لا أعرف من الذى وضع صـــورة ســـعد زغلول فى مكتب أبى ؟ ومن الذى وضعها فى غرفة الضيوف فى الفيـــلا الصغيرة ، بجوار رجال العائلة. يكاد غير المدقق أن يتصوره واحداً مـــن أفرادها . أحياناً أدرك أننا وضعناها فوق الجدران لننساها ؟ كأن زمانهـــا أبعـــد ما يكون عن الحقيقة ، وكأن الأحداث الدامية التى مـــــرت فى بيتنا ما مرت . كثيراً ما تأملت صور الرجال الباهتـــة ، ليـــس بســـبب التراب، لكن بسبب طبقات من نسيج النسيان ، تسللت فـــأخفت مـــن وجوههم وهج الحياة ، فلم نرهم ، واكتفينا بأنهم هناك معلقون فى طرف خيط ، وإطار بيضاوى . ما الذى جعلنى أتذكر هذا ؟ رغبتى فى الجندية ؟ ربما ..

تذكرت وأنا فى طريقى إلى الكلية الحربية عائداً إليها مدرســـاً ، وليس طالباً ، ما كان يعجبنى فى المدرســـين ، وما لا يعجبنى ، وتمنيـــت

أن أستطيع تجنب كل ما كان يثيرنى ، وأنا طالب ـــ ترى ما الاسم الذى سينعتنى به الطلبة ؟ احتلتنى الأسـماء التى أطلقناها علـى أسـاتذتنا : اللبان، الصياد ، عكننة . أسماء للسخرية البريئة . تخوفت قليلاً ، لكنـهم أسمونى العنتيل . لا بأس.. تلاحقت الأحداث حولى بسرعة . سـنوات الوهج والمفاجآت على كل المستويات .

توقف أمام الأوراق . شعر أن ضوءاً يلح على عقلـه ، نظـر إلى الأفق أمامه ، رآه مشتعلاً ، ويحرك فى فؤاده أملاً . قام إلى المطبخ يحضـر فنجاناً من القهوة ، مدركاً رغم الغموض ما هو مقبل عليه . خـرج إلى الشكمة مسلماً رأسه إلى الفضاء الداخلى ، الذى توشك سفينته أن ترسو على قاعدته . رأى نفسه فى الكلية الحربية ، يلملم ألم طعنة الانفصال عن سـوريا . الطلبة السوريون يتمردون علـى المحـاضرات ، يرفضـون الانصياع لأوامر الكلية . يتجمعون فى الحوش احتجاجاً .. الإدارة قررت جمعهم فى أرض الطابور ، ونقلهم إلى معسكر أشبه بمعتقل لحين صـدور أمر بترحيلهم . جاءه أمر بتفتيش الطلبـة ، ومصـادرة الممنوعـات ـــ ترانزستور ، سجائر ، ولاعات ، وغيرها ـــ وتسليمها لقيادة لواء الطلبة. وقف قادة السرايا ينفذون الأمر ـــ أذكر . نعم أذكر ـــ أخذت الأشياء، ولم أسلمها ، وأخبرتهم بأن يأتوا يوم سفرهم لتسلمها مـنى مباشـرة حفاظاً عليها . فى نفس الليلة تولت الشرطة العسـكرية ترحيلـهم إلى معسكر خارج الكلية . تعرض الطلبة ، وهم يصعـدون إلى السـيارات للضرب والإهانة . يا إلهى ، بعض المدرسين شـاركوا فى هـذا . لا

أصدق أن يضرب مدرس طالباً ، كان بالأمس فحسب تلميذاً له . ماذا فعلت لأرد عنهم هذا ؟

ــ لم أفعل شيئاً ؟!

بحث فى الأوراق أمامه عن هذه الواقعة التى احتلت رأسه فلم يجد، أعاد تقليب الأوراق . قرأ عناوين كثيرة ، ليس من بينها ما حدث .

لا شيء فى ذاكرتى أزيد من هذا . انتهى المشهد بهذا الألم الذى يتر قطرةً قطرةً . فهل بدأ عقلى يكشف المخزون المر ؟ ربما .

مر بسرعة على رأيه الذى سجله فى حرب اليمن ضمن الأوراق . اكتشف أن الحرب لم تقنعه ، لكنه لم يعارضها :

كنت ناقداً ، ولست رافضاً لها . شعرت أن جزءاً كبيراً من الشعب اليمنى يريد أن يتحرر من الحكم ، ويثور عليه ، وأن من واجبنا حماية هذه الثورة ، ومساعدتها . لكن كيف ؟ هذا هو السؤال المطروح .

توقف طويلاً أمام ملاحظاته التى كتبها عن رفضه لأسلوب رشوة القبائل ، أو إساءة معاملة بعض اليمنيين ، وأحياناً استخدام أسلوب غير علمى فى إدارة القتال فى أرض جبلية ، أو تكسب بعض الضباط من السفر ، ودخول الوساطة فى اختيار الضباط المشاركين فى الحرب . وردد دون أن يدرى أنه كتب نفس الجملة بعد ذلك بصفحة واحدة :

كان الهدف كبيراً ، واكتسب الجيش خبرةً لا يمكن إنكارها .

قلب الصفحة ورأى نفس الكلمات مسطرةً أمامــــه . عــرف أن خلايا عقله ، قد سمحت أخيراً بتسرب صور هو فى أشد الحاجة إليــها ، وأن عليه أن يصدقها فوراً !!

دخلت أمينة إليه حاملةً طبقاً من الفاكهة ، ترك الأوراق من يده ، وقام يأخذه منها ، قبلت يده ، فقبل كتفها . تركته ومضــــت بعــد أن ربتت فوق كتفه صامتة . تابع انصرافها ، يشعر بحنين غريب نحوها كلما رآهــا . أخبرته وديدة أنها مربيته التى كانت تحمله كــــل يــوم إلى دار ليرضع من نساء المنتهى ، وأن ابنها الوحيد سالم يسبقه فى العمر بسنتين ، وأنها تعيش الآن على أمل الاطمئنان عليه فى بغداد ، بعــد أن انقطعــت الرسائل بسبب الحرب مع إيران . أراد أن يقول لها شيئاً يطمئنها، لكنه لم يستطع .. فعاد يقرأ ..

تلاحقت الأحداث فى الفترة التى يقرأ عنها محمــــود فى يومياتــه سريعة ، تفتت ما سكن لسنوات ، تقلب الأرض ، وتعيد تشكيل المجتمع. خرج الفلاحون المعدمون من الشرنقة التى جمدت حياتهم ، فراشاً حـــراً سعيداً ، لا يعرف إلى أين يتجه ، أسلم مصيره للنداء الذى منحه الحياة فى النور ، فى حين غرقت دواوير العائلات الكبيرة المجردة من السلطة الفعلية، والنفوذ بعد قوانين الإصلاح الزراعى ، فى الصمت .

كمن البعض استناداً إلى خبرة الثعلب فى الحياة ، وانتظاراً للآتى ، وحمل البعض العائلة ، وما تبقى من أموال إلى خارج البلاد ، كما فعـــل

الشـــرابى الإقطاعى الوحيد فى المنطقة بعد أن وزعت الحكومة أرضه على الفلاحين ، وتحوصل الفريق الثالث بسبب ضيق ذات اليد النـــاشئ عـــن الوضع الجديد . إذ تحول اسم العائلة الذى كان يفتح الأبواب إلى عـــائق يغلقها . انتشرت شائعات تقول أن عائلات الدواوير خزنـــوا أموالهـــم وذهبهم فى جرار دفنوها فى أقبية ، ودهاليز سرية ، لا يعرف الطريق إليها إلا كبير العائلة وحده .

احتمى أهل الدواوير بماض بات الآن غابراً ، احتفلوا فيه بالحيـــاة بإسراف لم يبق منه شيء . وراحوا يحفظون حكايات هذا الزمـــان عـــن ظهر قلب ، ويلتقون فى مســـاء الخميس من كـــل أســبوع فى بيـــت أحدهـــم، يجترونها باستمتاع وحسرة على مهل ، وهم يشربون القهوة . نسوا تدريجياً التفاصيل عمداً أو قهراً ، وأضافوا تفاصيل أخرى غـــيرت ملامحها ، ومدت فى عمر القص دورات أخرى ، ينهونها فى كـــل لقـــاء بقصص جديدة عن تدهور الحال ، كما يرونه ، دون أن يجـــرؤ واحـــد منهم أن يجأر بشـــكوى ، وأن يقول أنه وسط هـــذا الفـــرح الشعـــبى الحقيقى بتـــوزيع الأرض ، وتمليكها لصغار الفلاحـــين ، والتعليم المجانى، لا يســـتطيع هو أن ينفق على تعليم أولاده فى العاصمة بســـهولة ، أولاً لأن الأرض مؤجرة بسعر زهيد ، وثانياً لأنه ببساطة لا يستطيع أن يتنازل عن مظاهـــر الأبهة التى اعتادها فى رعاية الأبناء فى المدن الكبيرة من قبل . وشيئاً فشيئاً ، تقوقعوا حول ذواتهم ، واعتزلوا اللقاءات الجماعيـــة إلا فى مناسبات الأفراح ، أو العزاء ، وحل محلها لقـــاءات فرديـــة متبـــاعدة ،

حرصوا فيها على الظهور بمظهر غير المهتم ، وأنفقوا عليـــها ـــ إذا مــا فاجأهم ـــ كل ما تحت أيديهم فى هذه اللحظة ، لإنقاذ المظاهر .

جاءت الضربة الأولى لهذا التحوصل الاجتماعى ، وبنيته الداخلية على يد طه المصيلحى ، الذى أصاب مجتمع أرستقراطية الريف بذهــــول حقيقى ، وغضب جنـــــونى ، وأصاب الفلاحين بالدهشة ، حين قبـــل أن يزوج ابنته بنورة أجمل فتيات القرية على الإطلاق إلى نبيل بن إبراهيم حسن . ولم يشفع لطه أن نبيل هو أول البكالوريا على مستوى القطـــــر المصرى ، وأنه قابل الملك فاروق شخصياً ، واســـتلم جـــائزة التفـــوق العلمى، وأن أهله يحتفظون بصورة تخلد اللحظة ، وأنه دخل كلية الحقوق التى تخرج فيها مصطفى كامل ومحمد فريد . إذ ظل نبيل هو ابن فــــلاح تملك عائلته كلها عشرة أفدنة .

الثورة التى قابلت بها العائلات موقف طه لم تكن بسبب أن نبيـــل لا يستطيع أن يمنح بنورة حياةً مماثلةً لحياتها ، لكن لأنهم أدركوا أنه وضع أول مسمار فى تفكك الطبقة ، وحماية وضعها الاجتماعى بالتبسط مــــع الفلاحين . لكن طه قال بصبر "هو ابن ناس طيبين" ، واضعــــاً بذلــك الدســـتور الذى جعل دوار المصيلحى ـــ رغم تناقضه المباشر مـــع مــا يحدث خارجه ـــ يبقى محتفظاً بنمو شبه طبيعى ، وبثبات دفـــة ســـفينته وســـط التيار الجارف الذى حطم سفناً أكبر كثيراً منها . باختصــــار ، لقد تصالح عملياً مع ما يحدث على المستوى الشخصـــــى ، والمســـتوى العملى . إذ داوم على تطـــوير زراعته ، والاستفادة من كـــــل جديــد

تطرحه وزارة الزراعة ، واستعان بالخبراء لمساعدته على زراعة سلالات جديدة ، وللحماية من الأمراض ، وجرجر القرية وراءه للاستفادة من هذه الخبرات، فتحولت المنتهى إلى الزراعة النموذجية فعلاً . ومع هذا لم يتسامح أبداً مع تقلص مساحة أرضه ، ومع تثبيت أسعار المحاصيل، وظل يقيم المشاكل ويقعدها مع الجمعية التعاونية ، ونجح فعليًا فى إرهاب موظفيها ، ووقفهم عن ابتزازه .

لكن نفاذ بصيرته ، ووضوح رؤيته ، لم يعفه من مواجهة التناقضات الداخلية فى عائلته ، بسبب انتمائه الطبقى من ناحية ، ومصاهرته للعائلات الكبيرة فى المنطقة من ناحية أخرى . وإن كان قد اعتاد على مواجهة ثورة عائلته ، باتخاذ طريق مغاير فى الحياة منذ وعى وجوده ، واختار أن يصبح تاجراً للحبوب ، وأن يشرف على زراعة أرضه بنفسه ، مديراً ظهره لمظاهر الترف ، والفخفخة التى كان يعيشها أبوه وسط سلطة العمدية ، حتى أتت به الصدفة وحدها عمدةً للمنتهى فاتخذ منهجاً ، ودستوراً مختلفاً ، التصق فيه بالفلاحين ، وعمل وسطهم يداً بيد ، فاكتسب شعبيةً ما عرفتها المنتهى فى تاريخها قط ، ولا عرفتها الناحية كلها . إن كان هو قد اعتاد ذلك ، وأرغم عائلته على احترامه، فإن بنورة واجهت منذ اللحظة الأولى لقبولها هذا الزواج معركةً مع أختها قمر استمرت مدى الحياة .

إذ فوجئت قمر التى تزوجت من فريد شوكت سليل الحسب والنسب ، بعد انهيار ثروة عائلة زوجها ، باضطرارها للعيش بدخل

موظف عادى بمرتب ضئيل فى وزارة المالية ، فى حين انتعشـــت الحيــاة المادية لبنورة ، بالنجاح الذى حصده نبيل ، بسبب مركـــزه الوظيفــى الرفيع، كصحفى يساند النظام الجديد ، فصبت جام غضبها على ما فعلته الثورة بأولاد الناس فوق رأس بنورة ، فى كل لقــاء يتم بينهما ، حــتى أنها حــاولت جاهــدةً أن تمنع أختها من رعايتها ، وزيارتها ، وحاولت أن تعطى لأولادها حقوق السيادة على أولاد بنورة ، الــتى ردت علــى محاولات كسر الأنف هذه الصاع صاعين ، حين أخبرتها ذات يوم أمــام العائلة كلها أن أجداد أولادها قد يكونون فقراء بالفعل ، لكن لم يصــل بهم الحال للاستدانة من أحد ، مشيرةً بذلك إلى الأزمـــة الــتى أدت إلى حجز البنك على ثروة عائلة فريد شوكت ، وبيعها فى المـــزاد العلــنى ، وفرض دين استمرت قمر وفريد شوكت فى تسديده للعائلـــة لســنوات كثيرة بعد ذلك . وانتهت المشـــاجرة إلى تحديد العلاقة بالتحية فى المجالس العامة ، ولم ينته أبداً إضرام النار تحت الرماد فى المجالس الخاصة .

وكانت الحكاية قد بدأت فى صباح ربيعى لعبت فيه الصدفة دور الخاطبة . كان نبيل عائداً من القاهرة ، والشمس تشــرق بألوان مازالت شاحبة . توقفت العــربة عند المحطة ، وسأله الســائق إن كــان يريــد تاكسياً لدخول القرية ، لكنه شكره ومضى يقطـــع الطريــق ماشيــاً . كيلومتران اعتاد ســيرهما وحيداً . خايلته خضرة الجزيرة التى طرحـــها النهر بعد أن شح ماؤه . جذبته تماوجات جدائل شــعر البنـــت الــتى اتسعت فكشفت عن الأرض المغلفة بالندى والطزاجـــة ، ثم انضمــت

فأضفت عليها الغموض . قرر النزول إليها متجنباً انحدار الطريق الشديد ، لاحظ الحصان الواقف بجوار الشجرة ، وسمع صوت حركة صادرة من الخميلة . تمهل ، لكن الوقت كان قد فات للتراجع ، وظهرت بنورة المصيلحى مثل شهاب يلمع فى الغبشة ، تأملته بنظرة ثاقبة غير مترددة ، وانتظرت بثقة أن يعلن عن نفسه .

تقدم منها ، ثم توقف على بعد خطوات . حياها برأسه أولاً ، وقال وقد باغتته المفاجأة :

ـ آسف . أرجو ألا أكون قد أزعجتك . نبيل إبراهيم ، صحفى.

ـ لا .. تفضل ، كنت على وشك إكمال رحلتى بالحصان .

ـ أنت من القرية . أظن أننا تقابلنا من قبل ؟
ـ نعم . بنورة من بيت المصيلحى .

ـ بنت العمدة ؟

ـ لم يعد للعمدية فى مصر كلها معنى .

ـ لكن أباك عمدتنا ، و لم يكن لنا عمدة أبداً غيره .

ـ أنت مجامل ، أشكرك .

سحبت الحصان ، وصعدت فوق المنحدر بهدوء ، ثم انطلقت تركض على الطريق الإسفلتى ، واختفت فى الأفق ، والشمس تكشف

عن خيوط جديدة تراوغ المنتهى .

سأل نفسه : ما هذا الارتباك أمام فتاة صغيرة ؟ فتاة ؟ بل فلقة قمر .

وصل إلى الدار دون أن يشعر بطول المسافة أو يتذكر إرهاق السفر ، والسماء تكشف عن جمال ما عهده فيها ، والعجل الصغير المولود من أمه الشمس يسرع ليلون أرجاء المنتهى بالأصفر والأبيض ، طاردته عيناها العسليتان ، وشعرها الكستنائى الطويل ، المعقود بإهمال بشريط ساتان خلف ظهرها . لم يعرف أنها صورة من أمها وديدة فى شبابها ، وأنها من بين بناتها الأربع قمر وكوثر ونازلى التى تشبهها بهذا الشكل ، رغم الاختلاف الواضح فى الطول ، إذ ورثت بنورة طول عمتها نعيمة .

قامت أمه ترحب به ، احتضنها فصرخت أن يبتعد ببدلته عن جلبابها المعفر بالدقيق . قبل يدها وهو يسألها :

ـــ بنورة بنت العمدة مخطوبة ؟

قالت وهى تفلفص من بين يديه : يريدها ابن عمتها ، وأم عبد الله تردد أنه لم يخطبها ، لكن أنت تعلم الأقارب .

التفتت اليه كأنها تنبهت لشىء لم تكن قد لاحظته ، وسألته :

ـــ لماذا تسأل عن بنورة ؟ وأين رأيتها ؟

قال : لا .. قابلتها على الجسر ، فوق الحصان .

ـــ حلوة ، لكن بعيدة يا نبيل . لا احنا من ثوبهم ولا هم من ثوبنا.

ـــ الدنيا تغيرت .

انتظرها فى الفجر عند الجزيرة أمام شجرة شعر البنت ؛ قال لها دون مقدمات :

ـــ ليست صدفة ، أتيت لرؤيتك .

أجابت ، وقد باغتتها المفاجأة :

ـــ أتقطع الطريق على بنات الناس ؟

ـــ حاشا لله . أردت أن أسألك إن كنت مرتبطة ؟

نظرت إليه طويلاً دون إجابة ، وقالت وهى تلوى عنق الفرس باللجام فى يدها ، وتلكزه فى جنبه :

ـــ لا .

خيل إليه أنه رأى ابتسامةً ناعمةً كشفت عن سنتين متعانقتين .

انتشر الخبر فى المنتهى . لم يصدق عاقل واحد ، حتى الذين يعرفون طه جيداً تساءلوا لماذا يقبل هذا الزواج ، وابنته جميلة وذات

حسب ونسب ، ويتصارع عليها شباب العائلة ؟ قال طه لوديدة ، وهو يجلس على المصطبة فى فناء الدار الداخلى :

ــ أعجبنى . جاءنى صباحاً فى التكمة ، واستأذن فى الجلوس معى، ثم دخل إلى الموضوع مباشرة ، قال لى : لست غريباً عنك . دخلت الجامعة لأننى أول دفعة البكالوريا . ليس لحسب أو مال ، وتفوقت ، وتخرجت أول دفعتى . اخترت العمل فى الصحافة ، وأرى فيها مستقبلاً معقولاً يتماشى مع رغبتى فى متابعة ما يحدث فى البلد ، والجريدة تعطينى فرصاً كثيرةً والحمد لله . باختصار أريد الزواج من ابنتكم الصغرى بنورة . لا أدعى أننى سأهبها حياةً رغدةً وإنما حياة كريمة. أعرف أنه لم يحدث أن ناسب العمدة عائلةً أقل منه جاهاً أو مالاً، لكننى أشعر أنك لن تخذلنى . أتيت وحيداً لأجنب أبى وخالى موقف الضعف ، فإذا قبلتم جاءا .

أضاف طه ، وهو يتناول فنجان القهوة من يد وديدة :

ــ كنت أرقبه وهو يتكلم ، وأتأمل جلسته الواثقة ، وإحساسه الشديد بالكرامة ، قلت له : اشرب قهوتك ، نحن يشرفنا نسبك . أما رأيى فستعرفه بعد أسبوع ، وإن كان لك نصيب فيها أتيت وأهلك فى عطلتك القادمة .

استمَعَت إليه ، تريد أن تفهم بكل كيانها أبعاد الموقف الذى اتخذه. كانت تشعر أن طه يريد أن يهرب ابنته من العائلة ، لكن شباب العائلات الكبيرة يودون خطبتها ، فلماذا هذا القرار السريع ؟ لكنها لم

تسأله .

قال طه : تعبت من زواج البنات فى العائلة يا وديدة . أريد لبنورة أن تكتشف فى الدنيا عالماً آخر ، ونبيل شاب عاقل ، ورزين ، وحليوة ، وأظنه أعجبها . أما أختى نعيمة ، فأنا كفيل بمراضاتها . بنورة لم تقبل حلمى فى أحد الأيام . عاشت معه كما عاشت مع أخويها عبد الحميد ومحمود ، وأنا الآن أشيخ ، وأريد الاطمئنان على وجودها فى بيت زوجها .

وخز خيط النور الأول الذى وصل المنتهى نوم الطيور . تمطت أجنحتها ، تزيح الدفء عن الجسد ، وأفسحت مكاناً لقشعريرة نشاط، كى تتسلل إلى الروح . انفلتت نقنقة خافتة ، والقرية ترسل طقوس صحوها إلى الفضاء . كان فجراً ليس مثل كل فجر . شعرت باختلافه الكائنات جميعها . قامت وهاماتها موجهة نحو السماء ، تتبع ذبذبات تدرك ، ولا تسمع . كانت غيمة . ليست غيمة ، هى تتف بين الأبيض والرصاصى ، وصفار مشوب بحمرة خجل ، تتلوى ، تخترق الكتل الهلامية التى تتشكل إلى عالم خرافى . حددوا ملامحه بعد لأى . تصوروه مدناً ، وصحارى ، وبحاراً ، أنهاراً وبشراً ، وأخيراً واحة.. واحة من سراب سرمدى ، فى كون آخر ، غافلهم ، وانفلت ، وتاهت ملامحه وتحورت ، ثم عادت تتشكل من جديد ، والبرتقالى ينبض، هنا وهناك ، حتى اتضحت الصورة حين اكتمل عدد الفلاحين ، وانتبه الكل صغاراً وكباراً إلى العصافير الخضراء التى تزور المنتهى ، كلما استشهد الأبناء ، وقبل أن يغيبوا فى جب الموت إلى الأبد . كانت الحرب

بعيدةً ، فلم يفهم الأهل سر الزيارة . راحوا يكذبون قلوبهم التى ترى عيون الشبان ترسل نشوة الرغبة فى الحياة ، رغم أسر الموت .

رفعوا الأيادى ، وفتحوا أحضانهم ، حين تأكدوا أنهم هم الشهداء.. طالبوهم بالاقتراب أكثر وأكثر ..

رقصت العصافير فى مكانها ، حبيسة غلالة شفافة ، فوق بخار . حاولت اختراق المدى المفتوح ، فتخبطت فى حائل لا تراه . تحولت سماء المنتهى إلى سجن كبير ، دارت فيه العصافير ، وأجنحتها مغلولة بقيد ، جفت أجسادها من الألم ، صرخت :

ــ ساعدونا . فكوا أسرنا .

قال الفلاحون : ما بكم ؟ من قيدكم ؟

قالوا : حملتنا أحلامنا فى الصباح ، وقتلتنا فى المساء .

نظر الفلاحون حولهم غير مصدقين ، قالوا :

ــ الحلم نصنعه بأيدينا .. هذا زمن تحقق الأحلام ، والبقاء فى سمائنا ليس قيداً !!

ــ لم نختر السجن . أردنا المشاركة .

احتار الأهالى ، وقفوا فوق أسطح البيوت ، واعتلوا الأشجار لكى يتحققوا مما يرون .

اقترب أبو مندور من الواحة ، كلما تناقصت المسافة ، انفتحت

فيها طاقة صغيرة ، توافدت إليها العصافير ، واتضحت ملامحها .
كانت كلها ملامح مندور الذى اختفى وزملاؤه يوماً قبل أن يبزغ نور الفجر فى الأفق ، حمله العسكر إلى مكان مجهول .

رأى الفلاحون تفاصيل الغيمة . أرض خضراء ، وسط صحراء مقفرة ، سألوا :

ـــ من أنتم ؟

قال مندور : نحن سجناء الكلمة . سجناء الحلم الوحشى الذى يخترق الأفق ، ويبنى عالماً حراً .

قال الناس : تعلموا الصمت ، وعودوا لنا . صرخت العصافير :

ـــ سنقولها لأننا نعشق الأرض ، وإن حملنا موتنا فوق أكفنا .
سنقولها لأننا جذور الثورة ، بذور الثورة ، وقود الثورة ، ولن نسمح لأحد أن يحرمنا المشاركة فيها بطريقتنا ، وليس كما يريدوننا أن نكون .

قالت المنتهى ، التى لم تلاحظ أن أبا مندور نكس الرأس ، وانسحب :

ـــ الأرض معنا ، والأفراح فى كل مكان . لماذا الكلمة التى تغضب ؟ اتركوها لهم ، وانعموا بالراحة والحرية .

شهقت العصافير :

ـــ اعطوا للثورة دماً آخر ، لا تحقنوا وريد الخوف بالسكوت .

هصرت الشمس الغلالة ، وانتصبت مارداً جباراً ، فى السماء . اختفت العصافير خلف الضوء الحارق ، ونسيت القلوب مكانها .

تسللت إلى المنتهى أخبار السجون التى ظهرت فى الواحات الغربية، بعد مسيرة ألف كيلو ، ويزيد . قال البعض أنها بجوار الغرود ، حيث بحر الرمال الأعظم الذى ابتلع يوماً جيش الغزاة ، هناك بجوار الاستراحة العتيقة ، حيث كان الملك ــ أى ملك ــ يرتاح من رحلات الصيد ، ويستحم فى البئر الأحمر ، الذى يفيض من الأرض ساخناً ، بلون الدم .. يعيشون هناك .. يزرعون الصحراء ، ويدافعون عن الثورة بالكلمة التى لا يملكون غيرها ، وينتظرون .

قال البعض : أوهام .. هذه أوهام .. وتناسوا رحلة "أم مندور" التى تقطعها فى قطار هزيل إلى القاهرة ، تتوه بعدها فى الزحام ، ثم تركب قطاراً آخر أكثر قدماً إلى أسيوط ، ثم سيارةً هرمةً ، تقطع بها الرمال ، التى تفور أحياناً ، وتثور أحياناً ، وتمنع الرؤية حتى تصل إلى الواحة .. خمس سنوات ، والرحلة هى الرحلة ، والمعالم لا تتغير على الطريق ..

انشغل الفلاحون فى مفاجآت الفرح الذى علقت مصابيحه فى سماء المنتهى ، تبرق كل يوم بأمل جديد فى حياة جديدة ، أنستهم ما تساقط فى الطريق من أبناء للمرة الأولى منذ زمن بعيد . كان العالم عالمهم ، تعلموا غير مصدقين أن يحلموا ، وأن يحققوا الأحلام ، انتظروا كلمات الزعيم ، وحفظوها ، وذابوا معاً فى نشوة قالوا إنها الكرامة .

تعودوا ظهور واحة السجناء ، فى السماء قبل الفجر ، مثل

الســراب ، كلما اختفى واحد من شباب المنتهى فى سيارة الشرطـــة ، تأتى العصافير لترقص رقصتها ، وتضــرب بأجنحتها الفضاء ، وتعصـــر القلوب المتعطشـــة للأبناء ، فيصدقوا وجودها ، حتى إذا طلعت الشمس، هشـــت اليقين بها ، كف الناس عن الرغبة فى الرؤية ، والرغبة فى المعرفة. شــاهدوها ، وما أبصروها ، و لم يلاحظوا أخاديد الآلام الهائلـــة الــتى حفرها السجن فى وجوه العصافير .. وما عادوا يسمعون لها صوتاً .

قالوا ، وهم يستعرضون الأرض الـــتى امتلكوهـــا ، والمصـــانع والمدارس والمستشفيات .

ـــ لم نعد نفهم ماذا تريدون أكثر مما نحن فيه ؟

قالت العصافير ، وهى تختفى : قتلتمونا مرتين .

لكنها رغم الألم واليأس الهائلين ، لم تكف عن زيارة المنتـــهى ، وسط حائل شفاف حجب الصوت عن الأهل والأحبة .

جلست وديدة وحيدةً ، فوق المصطبة فى حوش الدار ، تبث اللبن الرائب فى الردة لأكل البط الصغير ، وتنتظر موعد غداء محمود . خـــلا المكان من الجميع . ذهبت مساعداتها بعد أن انتهى العمـــل الصبــاحى مبكراً، حتى أمينة التى لم تكن تبتعد عنها ليلاً أو نهاراً عادت إلى دارها .

لم تعد أمينة أبداً هى أمينة التى عرفتها وديدة أم عبـــد الله طـــوال حياتها ، كانت كمن يخفى ســـرّاً يخاف أن يطلع الناس عليه . لم تعـــد تحزن لعودتها إلى الدار كل يوم ، و لم تعد وديدة تحتاج أن تحثـــها علـــى

الخروج من الدوار . للمرة الأولى تصمت ، وتطيع ، ثم تذهب . حدث هذا التغيير لمجرد أسبوعين قضتهما وديدة فى القاهرة مع أولادها للعلاج .

اكتشفت أمينة خصوصيتها داخل الجدار الحى فى دارها الصغيرة ، وكانت تظن أن مالها هو فى هذا البناء ، وهذه المرأة وهؤلاء الأولاد ، والأحفاد . لم تشعر أبداً بالغربة عنهم ، لكنها تعرف الآن أنها تمتلك شيئاً خاصّاً مغايراً . ليس مرتبطاً بآل المصيلحى .. شئ ألهاها عن التفكير فى ابنها سالم ، وفى وحدتها ، وغربته فى العراق وسط الحرب مع إيران ، التى لم تسمع عنها فى حياتها من قبل .

تطلعت عينا وديدة فوق جدران الحوش . صَمْتُ الطوابقِ كلها ، ذكرها ببيلا ابنة حيدر ، التى تقسم فى كل زيارة لها أنها ستعود لتعمر بيت أبيها :

ـــ كبدى يا ابنتى ، عشتِ غريبةً طوال العمر .

تذكرتها فى اليوم الأول لدخولها المدرسة ، حين سألها مدرس الفصل عن اسمها ، فأجابت بتأفف شديد ، واستنكار :

ـــ أنا بيللا بنت سيدك حيدر .

ضحك الرجل قائلاً :

ـــ سيدى وتاج راسى ، اجلسى .

ظلوا أياماً يتندرون بالواقعة ، ويعيدونها فى كل وقت ، وكان يحلو لطه أن يناديها ، ويجلسها فوق ساقه ، ويدللها ، كما لم يدلل أحداً من أبنائه ، ويقول لوديدة ضاحكاً :

ــ كان لابد أن ترضعيها ؟ كنا زوجناها لأحد الصبيان ، وإلا كنت تزوجتها أنا !!

تذكرت وديدة زواج حيدر من كريمان ، وميلاد حكم ، وكيف نسيت كريمان الكل ما عدا صغيرها بعد ذلك ، وتوقفت عن الاهتمام ببيللا ، حتى أنها حاولت أن تقص شعرها ، تخلصاً من تضفيرها كل صباح ، وهو ما دعا وديدة للتدخل لإنقاذ الشلال الأسود الربانى . كتمت وديدة توجساتها ، حتى فوجئت بنعمة تفجرها أثناء إحدى زياراتها للدوار :

ــ هذا الوضع لا يعجبنى يا وديدة . زوجناها وهى تعلم أن له ابنة.

هزت وديدة رأسها دون كلام ، واستمرت فى تصفيف شعر بيللا.

ــ فريتى كبدى ، تكلمينه أنت أم أكلمه أنا ؟

ــ البنت يا نعيمة فى عرضك . اذهبى يا بيللا وانتظرى أباك فى الشكمة .

التفتت إلى نعيمة :

ــ مهموم يا حبة عيني من يوم التأميم . والمكتب بــلا زبــائن .
أخبرني الصبيان أن التجارة إذا ركدت تجرجر المحاماة من ورائها .

ــ تلم حالها يا وديدة ، كلنا كنا فى رغد وتغيرنا مع الأحوال .

نزلت كريمان إلى الحوش تطمئن على هدايا زيارتهــا لأهلــها فى القاهرة ، جلســت أمامهما فى الجهة المقابلة ، وأخذت حكــم الــذى اعتلى كتف مربيته رغم أنه تجاوز الرابعة بجوارها ، سألت فى ضيق :

ــ أين ذهب السائق ؟ نريد أن نصل مبكرين . لم أعــد أطيــق الحبس هنا ، لو تزوجت الواحدة منا "عســكرى" فى القــاهرة؛ كــان أحسن من شغل الفلاحين وهمومهم .

استفزت نعيمة :

ــ وما منعك ورماك على الفلاحين وقرفهم ؟

ــ عيشة والسلام .

قالت وديدة : البطر على النعمة سوء يا كريمان .

قالت كريمان : لماذا نبقى هنا ؟ حيدر محامى ، يفتــح مكتبــاً فى القاهرة أحسن ، الأرض مؤجرة ، والفلاح راكبها وانتهى الموضـــوع ، الدوار كئيب ، عتمة من المغرب ، وماء من الطلمبة ، ونزح مجـــارى ، وناموس . ليت حيدر يوافق على نقلنا لمصر .

قالت نعيمة : (اللى شايل قربة مخرومة .. . !!)

دخلت ستيتة ، وكريمان توشك أن ترد ، قائلة :

ــ السيارة جاهزة .

مرت الأيام ، وتمكنت كريمان من إقناع حيدر ببيع الأرض والانتقال إلى القاهرة . تنهدت وديدة تبعد آلام الذكرى ، سمعت أصوات ركض فى الدهليز ، فانتبهت إليها مستطلعةً ، سعيدةً بالقادم الذى سيكسر الملل . دخل حفيدها علاء ، وارتمى فى حضنها ، فلما حاولت تقبيله ، ابتعد قائلاً :

ــ لا يانينا ، أنا كبرت !

وضحكت ليلى ، أرملة عبد الحميد ، وهى تقبل يد حماتها ، قائلة:

ــ حد يكبر على جدته ؟ تعال هنا .

قالت وديدة، التى فوجئت بدخول ليلى وبنورة والأولاد :

ــ يا صلاة النبى ، مبكرين على غير العادة .

قالت بنورة : عندنا عطلة قلنا نقضيها معكم . أين محمود ؟ إن شاء الله يكون بخير .

ــ بخير والحمد لله .

حانت الساعة .

دروب القرية المتعرجة مزدحمة بأصوات عـــودة مبكـــرة ، قبـــل المغرب. همهمات تتوافد من كل صوب ، همـــــهمات ودودة ، ولـــودة بالكلا . عن بعد ؛ أشـــباح تتأرجح ، يلفها تعب النهار . ولد يزيــــح أمامه طات صغيرات "تحاجى" أمهن عليهن من كل جانب . يهشــــهن أمامه إلى باب الدار ، يدخلن فرحات مرتعشـــات الذيـــول ، دجاجـــة تصيح كاك ناهرةً كتكوتاً شارداً . أنفـــاس مترعـــة بالغبطـــة تسـفح الابتـ ســامات ، وتمرقها ، ويظل رنينها عالقاً يمطر الدفء على السائرين. كهول افترشوا الحصير أمام الدور . كوانين تطقطق وتأكل الحطب . النار صلت فى العرصات محاشر[1] الأرز ، والطبالى تدحرجـــت إلى وســط الدور. الحمام يرفرف ، يحوِّم فى جماعات مثلثة ، يحرث السماء ويعـــود للانطلاق نحو الأفق كسهم شحذ سنه على حجر صلد ، ثم يعاود الظهور

[1]) محاشر: صوانى

فوق سـقف القرية بعد قليل . قبرات وزرازير تسـتحلف الضـوء أن يبقى، ويعطى للعائدين من الحقول الفرصة ليصلـوا بسـلام ، قبـل موعدهم اليومى بقليل . الليلة ليست أى ليلة ، صرير مبكـر ، ونقيـق مبكر، وعصافير بالمئات ، تشقشـق فى صوت واحد متقطـع ، وهـى تعتلى خيوط السلك التى امتدت للمرة الأولى من أعمدة الكهرباء ، تجرب أن تقف فوقها ، ثم تطير جماعات ، وتختفى وسـط الشجـر ، مطلقـةً ضجيجها اليومى البهيج . النهار يشـيح بوجهه بخجـل احمـرت لـه السماء، ويفسح الطريق لليل . أفواج الفلاحين تخطط الأرض الممـهدة فوق الجسـر بمحاذاة النهر . جاموس ملول لا يعرف شيئاً عن الحـدث الكبير ، حمير محملة بالبرسيم ، وبقر يفور الزبد فوق شفاهـه السـوداء الغليظة . شجر شعر البنت يمسح وجه النهر ، تاركاً جروحاً تلتئم بسرعة النسيم ، والصفصاف ناشراً أجنحته الصغيرة ترفرف .. أبواب الـدور مفتوحة للأخبار ، والكلاب تنبح ، ثم تزوم وتصمت ، تدور حول ذيولها ثم تجلس تحت النوافذ . كروان يشـرخ صمت السماء "لك لك لـك لك" . شهور منذ دخل العمال المنتهى ليحفروا الأرض بجوار الطريـق ، وينصبوا أعمدة الكهرباء . حوم الفلاحون حولهم بالأسئلة ، نـاوشوهم بأكواب الشـاى وأرغفة الخبز الطرى ، وقطع الجبن القريش ، ومنحوهم فى بعض الأيام عسلاً أسـود . أكلوا معهم جذور اللفـت المخلـل ، وفحول البصل والفجل .

قالت صبحية لرئيس العمال ، حين شرع يخطط بالجير قريباً مـــن دارها :

ـــ والنبى تزحزح العمود حد الدار .

قال ضاحكاً بصخب ، وهو يرتشف كوب قرفة ناولته له :

ـــ أى عمود فيهم ؟ هو عمود الدار بطَّل يشتغل ؟!

لكن العمود بقى على حاله كما خطط له المهندس ، ونامت البلدة تحلم كل ليلة ، وفى الصباح تسأل : متى ؟

كسبت القلوب الصافية الفرحة ، وأخرجت بيوت الأزقة التحايا، كأنها زفة عروس ، وغنى الصعايدة مع الفلاحين :

هــــــــيلا هــــــــيلا لـــــــــيصـــا

يابت يـــاللى بتحـــى	مالك كدة ماشيـــة تـــدبى
أنا لا فى جيـــبى ولا فى يـــدى	هيـــــلا هيـــــلا يـــــــا الله
يـــابت يـــاللى بتعومـــــى	اســـتنى لمـــا اقلـــع هدومـــــى
ده انـــا سمـــارة مـــن يومـــى	هيـــــلا هيـــــلا يـــــــا الله

سهروا على المصاطب بعد آذان العشاء ، يتصورون شكل القريـــة بعد دخول الكهرباء . قال محمود الفحام :

ـــ غدا تصبح المنتهى مثل المدن ، ماكينات كهربائية ، ومصـــانع

ولمبات فى البيوت بدلاً من الجاز والصماد والهباب ، ويمكن سينما !

علت الضحكات ، تذكر عبد المهيمن أمراً ، وسأل بصوت خافت لفت لرعشته الانتباه :

ـ أين تسكن الجنية إذا أضاءت الكهرباء الليل ؟

قال مسعد : صحيح ، النور يحرقها .

قال أبو كحيلة : أعمدة النور ستلف الناحية . والغيطان ستبقى كما هى ، والجنيات تعشش تحت السواقى والجسور ، مالنا ومالهن ، يكفينا الله شرهن .

سأل مرسى بشغف : متى تضاء كشافات الشارع ؟ العمل انتهى، فلماذا الانتظار ؟

قال بسيونى غفير طه المصيلحى : سمعت من عبد الله المصيلحى شخصيًّا أن الكهرباء ستدخل يوم الخميس ، قبل فرح محمود ابن العمدة بأسبوع ، وأن التجارب ستبدأ فى النهار قبل ثلاثة أيام .

وقد حدث . نورت الأعمدة عند صلاة ظهر الثلاثاء لمدة خمس دقائق ، هلل الناس رغم أن الضياء كان باهتاً ، ولم يستطع أن ينافس الضياء الربانى ، ثم عاد يشع فى اليوم الثانى والثالث . اقتربت اللحظة المنتظرة ، "عدى" النهار الذى حلموا برحيله .. الريح تمسح خطواتهم من فوق السكة ، والأقدام تخطها بشقاوة . قرروا دون اتفاق مسبق أن يقفوا تحت الأعمدة ساعة آذان المغرب، حتى لا تفوتهم اللحظة .

وصلوا قبل الميعاد بوقت كاف ، إلا سعفان ، لم يستطع أن ينهى الرى فى غيطه إلا قبل الغروب بدقائق . عبر شرايين الحقل الـــتى دهســـها آلاف المرات راضياً عن تقسيم قنواته الهندسى الدقيق ، تأملها بشغف المحـــب . فرحته بزراعة النصف فدان الذى أخذه من الثورة لا يعادلها حـــتى ليلـــة "دُخلته" على نفيسة ، ولا رزقه أولاداً ثلاثةً جاءوا كـــراً فـــوق رؤوس بعض، حتى بعد أن قطعت نفيسة الخلف . حمد الله على عطيته ، وعلـــم أولاده فى المدارس . حلم لم يخطر على بال جد جـــده الـــذى بالكـــاد أدخل حفيده الكُتاب ليحفظ جزء "عم" . قضى النهار يـــروى ، قـــال لنفســـه : البقرة موجودة ، والساقية موجودة ، ولا لزوم لأجرة نفـــر . دين فى رقبته يسدده بالعمل المتصل عند الخلق ، ويترك لنفيسة تدبير الحال فى الغيط حتى يعود إليها بعد شـــقاء النهار ، فيخلع جلبابـــه الكـــالح، ويعمل فى أرضه ، وتعود هى بالبقرة للدار ، حتى يستطيع تدبير نفقـــات الأولاد الذين سيرحلون بعد سنوات إلى القاهرة ليلتحقـــوا بالجامعـــة . "ياســـلام لو يتحقق الحلم !!" . شرق بأمنيته ساعة لقاء السيل المندفـــع من النهر بفصوص الطين ، زغردتها حين تنتفش وتطفئ عطشها فتتشبـــع النباتات بالندى .

اشتهر حقله بالنظام والنظافة ، ينقيه من الحشائش ، ويقلبه بعناية حتى عرف "بالحرتفة" [1] وسط الفلاحين . يضحك على ملاحظـــاتهم قائلا :

---

[1]) الحرتفة : شدة النظام .

ـــ حد طال ما طالنا ؟!

سعادته أثناء جمع المحصول لا تزيد كثيراً عنها ، وهـــو يعـــزق أو يحرث ـــ هذه توصل لتلك كانت فلسفته ـــ نظر إلى عبث الرصــــاصى الذى يتلوى فى السماء ، ويبتلع البرتقالى . وتذكر أنه تأخر عن موعـــــد وصـــول الكهرباء . غذ السير ليلحق بالجماعة . الشمس تسحب أشعتها وتترك براحاً دافئاً تنفثه بمحبة ، لهب يســـــافر ولا يمـــوت ، شخصـــت مخلوقات صغيرة إلى السكون واستسلمت لرحيل الوميـــــض . صدّقـــت الثعالب أن وعداً قادم ، فأخرجت رؤوسها من الحفــــر متلصصـــة ، ثم عادت مترددةً إلى الجحور . شاغبت الريح الصفصاف ، فعادت عيــــون الثعالب لترنو إلى الفضاء المسحور بالنبوءة ، وسرت فى الحقول نـــداءات لمخلوقات لم يسمعها سعفان . حمل فى المقطف المربوط بحبل فى كتفـــه : خس وز [1] ، وفجلاً ، وأنتود المحراث [2] . خايلته أشجار المانجو عـــن بعد ، قبل أن يصل إلى طـــريق المعاهدة ، المحاذى للنهر ، القرية البعيدة ما زالت باهـــتة تحت الضوء الراحل بسرعة . أخبرته نفيسة أن العمود الذى جاء بالصدفة أمام بابهم سينير الدار كلها ، خاصة إذا فتحوا الشبـــــاك ، وأن سلك نور واحد يمتد إلى الحوش يساعد العيال على المذاكرة . ردد : "نعمة ، والله نعمة" . لاحظ هرج سرب أوز يسرع بالسباحة فى النــــهر نحو القرية يقلقه شئ ما ، قال : حتى أنت متعجل !!

---

[1]) خس وز: نبات برى يشبه الخس .

[2]) أنتود المحراث: قضيب خشبى يستخدم لربط جزئى المحراث .

ـــ مساء الخير ياأبو سعفان ، شيِّلنى الله يسترك .

التفت إليها ، رآها منحنية فوق "الزلعة" [٣] على حافـــة النـــهر وسط الغاب . لم يعرف صوتها ، رغم أنه يعرف نساء المنتهى كلـــهن ، فأجاب قبل أن يتبين ملامحها :

ـــ مساء النور ، حاضر .

قبض على أذن الزلعة بيد ، وعلى قعرها بيده الأخرى ، وســندتها هى بكفيها ، ثم رفعاها معاً ، فوق الحواية [٤] التى تعتلى رأسها . اهتزت فاندلق الماء ، وأغرق جلبابها المشجر بورود صغيرة . تأمل القماش ، الذى شرب دفقات الماء بسرعة ، وذرفه دموعاً تتلألأ . شريط الخرز يلمع فوق كشكشـــة القماش على صدرها ، الفتحة المربعة تظهر عنقاً يلفه عقد من الكهرمان الخالص . هاله جمال عينيها الفاجرتين . لم يستطع أن يســـألها "بنت من أنت ؟" . ساعـــدها على استقرار "الزلعة " الـــتى كـــادت أن تقع، فصرخت من طرطشة الماء فوق وجهها ـــ فلقـــة قمـــر ـــ ردد فى نفسه ، وهو يزداد تمسكاً بجسم الفخار المنتفخ . الشمس رحلت ، والليل غزل زفرات شهباء ، خشخش الغاب حولهما وتلاعب . سندت الزلعـــة المائلة بيـــد ، وأراحت يدها الأخرى على كتفـــه لتصعـــد المنحـــدر ، طـــوحت جسده بدلال ، فألقاها فى حضنه ، أزاحته لتتقدم نحو الطريق، راودته رغبة أن ينزل بها إلى الماء . أنزلت "الزلعة" من فوق رأسها فوقعت

---

[٣]) الزلعة : الجرة .

[٤]) الحَوَاية : قطعة قماش توضع فوق الرأس لتحميها من حمل ثقيل .

الطــرحة ، وفاحت رائحة استحمامها فى النهر طرية . شعرهـــا حــد كعبيها . بوغت ، فتراجع إلى الوراء خطوة وتقدمت هى .

ــ يوه !!

ــ تاخدى رطوبة .

ضربت صدره براحة يدها ، فلم يحتمل . شمر جلبابها فكشف عن قميص أبيض "باتسيتاً فوق جسد بض . سددت إليه نظرةً قتلت إمكانياته فى المقاومـــة ، التى لم تخطر له على بال . مد يده إلى صدرها ، فتمنعت، ودخلت الغاب . انغرست قدماها فى الطين ، الماء يضرب حافة النـــهر ، وأعواد البوص الخضراء جارحة.

ــ حاسبى !

ضحكت ، سرى صوت غنجها فى المدى بشقاوة أشعلت ناراً فى رئتيه . ركض وراءها حتى لحق بها ، منكفئة فوق البوص الذى يصفـــر للغياب . لف ساعديه حول خصرها ، وراح يفتق القميص .

ــ على مهلك !

ظهر منحوت من شهب ، يعكس لونه سحر الغروب الذى انطفأ.

ــ يا ليلتك يا سعفان !!

قالها بشغف ، فازدادت ضحكاً ، دون أن تهاب سريان الصوت ، اطمأنا للسكون ، وفرحا به . حملها إلى أحجار قريبـــة ، مرصوصـــة ،

نظفهــا الماء ، وانحسر عنها ، يحفها البوص من كل ناحية . كان قد ترك المقطف بجوارها حين هم بمساعدتها على حمــــل "الزلعــة" . مشغــول بفلفصتها الماجنة . منّى نفسه بمتعة مجانية أرسلتها له السماء ، حلـــم أن يركب براقاً يلف بهما الكون إلى الأبد . سفحت جســـــدها لتمنحـــه كنزها المكنون، كلما لمسها برقت ونزت مسامها عسلاً فضياً ، توهـــج بالدغدغة ، واجتاحتها حمى هممة ، وتضرعت خائفة بلهفــة أن يســرع لعناقها . دس رأسه فى حضن رؤوم ، ما زاده إلا شبقاً . التفتـــت إليـــه متوقدة الحدقتين، تهذى. عشقها كما لم يعرف العشق . مــــد أطــراف أصابعـــه إلى وردتى ثدييها ، جائعاً ، زائغ البصيرة ، مطلقـــاً لفتنتـــها العنان. تأمل جسدها المدهون بعطر اللذة ، فارتجف من الرهبة . كأنهـــا مهرة جامحة ، متخفية فى جســـد امرأة . ابتسمت بخلاعـــة ، دعتـــه أن يتوغل ويتوغل . مفتون بالشـــهوة الجارفة ، بصوصوتها الفاجرة ، بالليل، بطزاجة الشهيق ، ونيران الزفير ، بصخـــب المجازفة . تقـــــدم مبـــهوراً يريد أن يرتشف رحيق ثمرتها القرمزية. تحينت اختلاجة رأسه التى حملتــــه إلى غيبوبة سريعة قصيرة ، وتسللت إلى جسده ، وكشفت عما يواريـــه الخجل . دفعت عناصره إلى جحيم الهياج الخارق فاكتملت دائرة الغواية. انكشـــف المكان أمام عينيه التى تغيب رويداً . رأى الجسد الممشـــوق ، وقد أضاء ممدداً يصـــارع جحيم الأعماق . برقت ربلة الساق البضـــة ، فضمها بعنف . ســـرحت نظراته إلى كاحلها ، تملّت العـــين فى صنعـــة الخالق العظيم ، فاصطدمت بقدم عنزة . ارتجف ، اختلج جسده ، فظنتها الشـــهوة، تعلقت به أكثر فأكثر : "ياليلة غبراء ، جنيـــة !!" ، ردد فى

نفســه دون أن يجرؤ على ترطيب شفتيه اللتين تحجرتا فجأة . احتار ماذا يفعل ، ربت على ظهرها وهو يعدل رقدتها على جانبها الأيمن . قفــزت إلى ذهنه كل الآيات التى يعرفها ، والدعوات ، وطالب ذاكرته بشفاعــة النبى محمد ، ومار جرجس قاهر التنين ، وسيدنا المتولى . تذكر الأنتود فى المقطف ، مد أطراف أصابعه إليه بحذر ، حتى أن لمســـته ســـرت فى جسده كأنها صاعقة كهرباء ، تلوت بسببها مفسحةً له الطريق لاعتلائها. أمسك الأنتود ، فشعر به يحرق كفه من شدة الخوف . رشقه بمــهارة فى موضع العفة فتأوهت . انسحب بهدوء حتى لا تفتح عينيــــها ، تراجــع فلمست قدماه أرض الطريق ، طار بصخب إلى القرية ، مطارداً الظـــلام الذى أطبــق على الكون دون أن يشعر به ، حافياً ، عارياً ، ناسياً الفأسَ والمقطف .

انتبهت ، صرخت عليه :

ـــ ارجع يا ابو سعفان ، نسيته فىَّ

لم يلتفت ، ودقات قلبه تعزف لحناً إفريقياً ، قال :

ـــ أنتود المحراث ، اشبعى به .

وصل إلى القرية لاهثاً ، لحظة أن ضغط شخص ما ، فى مكان ما، فــوق زر النور ، فصرخ الفلاحون، وهم يرفعون الــرأس نحــو سمــاء الأعمدة ، فى نفس واحد :

ـــ يا صلاة النبى !!

•

•

سمع محمود صوت الجرس يعوى تحت ضربات متتاليــة لـيــد غريبة : تن تا .. تن تا .. رفع الغطاء عن جسمه ، كانت العروس نائمة، يحلق عطرها فى سحابة تنفث زخات ناعمة .. تمطى .. الحمد لله أننى لم أغرق فى النوم . غفوة لم تكتمل . ترى من الطارق ؟ نبهته السعادة التى ترفرف حولها إلى الإســراع بمغادرة الغرفة ، وإغلاقها وراءه، ليوقف هذا الطرق قبل أن يوقظها . مر بالصالة ، فاجأته عقارب الساعة الفوسفورية التى تشير إلى الثالثة صباحاً . أدرك أنه نام لساعات طويلة ، فتح البـــاب متوجسا . كانت هى ، بلا رتوش أو مقدمات . كاد أن يلقى بنفسه إلى ذراعيها كما اعتادا أن يندفعا ليتلاصقا بعنف . أوقفته نظرة فى عينيـــها ، يعرفها .. نظرة تسبق الوثوب المتحفز :شعرها غجرى ، تعود أن يلويـــه ويهوشه حتى ينتفش ، ويتطاير بلا نظام . على وجهها سؤال أدركـــه ، ابتلع الهواء ، دفعةً واحدةً قبل أن يرحب بها. دخلت كعاصفة ، أزاحتـــه كأنها تعرف الطريق . أليست هذه شقته ؟! لم تسمع كلماته أو تنتظرها ، اخترقت حواجز عدم المعرفة باحثةً عن هدفها ، ثم أعلنته بوضوح :

ــ أريد أن أراها ، هذا حقى!!

كانا قد توسطا الصالة بضوئها الخافت السهران ، استدارت إلى الجدران .. كل التفاصيل توحى باهتمامه ، ولمساته.. تماماً كما تخيلاه معاً . لم تشعر بغربة .. لكن بغيرة . اجتاحه هذا الشئ الهائل ، الذى لا يعرف من أين ينفجر داخله ، ويحتله بشموخ فى وجودها . كانت هى كما كانت دائماً ، حبيبة عمره المشتعلة . فى ضحكته التى اعتاد أن يرد بها على عواطفها المجنونة ـــ هذه اللحظة ـــ مرارة خنقته، لكن الضحكة البائسة انتشرت رغماً عنه ، لفهما رذاذها . اليوم ، دون باقى الأيام ، لا يستطيع أن يحتويها ، ويمتص فورانها فى جسده ، يموران معا كرحىً ، يدور ، يطحن نفسه ليتداخلا أكثر فأكثر حباً وكراهيةً . لم يعرف إن كان يريد إسكاتها بشفتيه ، بكل العنف الذى تجادلا به طوال الحياة ، أم أنه يفضل الصمت ، والانتظار . تعب من وطأة الرجرجة ، مرقت حربة الوجع تفتت أعضاءه . أعلنت بلا هوادة كم يحبها ، وأنه لا خلاص . أراد أن يقول لها أحبك ، وأن يحملها ، ويدور بها مجلجلاً فى الحقول ، كما كان يحدث بعد كل خصام بينهما . لا ، لم يكن حبه أكثر امتلاكاً لوجدانه من الآن .

سحبت كفها من قبضته ، وسألته متحدية :

ـــ أين هى ؟

أجاب بشهوة تحترق ، لم يخمد لهيبها يوما ، وكما لم يقل لها أحبك طوال حياته :

ـــ يا شعنونة .. يا ..

فرد جناحه ليتلقى دفئها ، كاتما الرغبة فى الصراخ ، ضاغطا على جسمها بكل آلام جرحه النازف ، تشبثت به بأصابع ساطت ظهره، ثم اندفعا متباعدين ككرتين تصادمتا لتنفصلا ، ترنحا ممسوسين بصاعقة ، أرادا البكاء ، "ماذا فعلنا بأنفسنا ؟!" ، اجترا الأنين معا ، فلم يسمع فى البيت الهادئ غير صوت ضعيف يمزق ركام الحب المتصاعد دخانه : آآآآآآه!!

ارتعشت بين يديه اللتين أمسكتا بكتفيها ، سقطت رأسها، وهى تحاول أن تدارى ألما غير بشرى أطاح بكل محاولاتها للتوازن. رفرفت كطائر تمرغ فى وجدانه ، ينقر قدرته على التماسك . قبلها فوق خدها . استسلمت ، وجلست على أقرب مقعد ، لكنها لم تخفض عينيها عنه ، ضغط على مفتاح النور ، فاكتشفا كم هما بعيدان ، غريبان . ظهرت على العتبة فتاة ناعسة ، بريئة ، كمهرة لم تسرج بعد . ابتسمت للضيفة دون أن تسأل عن الوقت ، وسر الزيارة الغريبة ، تقدمت نحوها ، وصوت زوجها يعلن :

— نهى ابنة عمى .. صافى زوجتى ..

احتضنتها بود ألجم العاشقين ، وسألتها إن كانت قد وصلت مرتاحة ، ثم راحت بتلقائية شديد ، تبعث اليقظة فى أركان البيت النائمة. ولم تجد نهى غير إطار السيارة لتحمله عبء دخولها المفاجئ فى هذه الساعة .

لم تستطع أن تحضر حفل زفافهما ، لم تقو أن ترى غيرها فى المكان الذى حلمت به طويلا ، كانا قد خططا لكل تفصيلة ، صغيرة

وكبيرة ، حتى تصميم فستان الفـــرح الملائكـــى ، والطرحـــة ، ورداء الوصيفات ، وقائمة المدعوين ، وفقرات الحفل ، ورسما شكل البيـــت ، وحددا ديكوراته، وألوانه ، واحتياجاتهما . جلست فى بيت أبيها الذى لا يبعـــد كثيراً عن الدوار ، معلنة أنها لا تهتم لزواجـــه ، وأن انفصالهمـــا كان حتمياً بعد أن أدركا أنهما لا يصلحان كزوجين ، تلبسها إحســـاس زائف بالكرامة، جلست تحت الشرفة تتأمل نقط الضوء الهلامية التى تنفذ من تعـــريشة الجهنمية الزرقاء ، وتسقط فوقها ، تبرقش المكان بلمعـــان ماسى، يتغير شكله مع كل هبة ريح . أمسكت غصنا جافا مدببا ، نزعته من الشجرة الأم ، حفرت فى التراب خطوطا لا معنى لها ، ثم سرحت فى دوائر تتســـع لتضيق ، وتعود إلى المركز . مســـحت الأرض بكفـــها ، وعادت تدور حـــول نقطة تخشى الاقتراب منها ، حتى رأت النـــور الأصفر يتلألأ فى المصابيح التى أضاءت الدوار للمـــرة الأولى ، بعـــد أن ســـرقت الظلمـــة خيوط الشمس . رفعت رأسها تســـتطلع أصـــوات الدفوف التى تدق الصمت عن بعـــد . مر بها أفراد أســـرتها فى كـــامل زينتهم ، وأشـــاروا لها أنهم ذاهبون ، لم يستطـــع أى منهم ســـؤالها إن كانت قد غيرت رأيها لتصاحبهم إلى الحفل ..

أقفر البيت ، وسكت الطنين الذى كان يحتله قبل دقـــائق ، ارتعشت لبرودته ، واستمرت الخطوط التى ترسمها على الأرض تتوالـــد وترتجف خاطرا وراء خاطر ، ادعت أمام نفسها ، والعائلة حـــين طـــال الخصام بينهما ، وتقدم لخطبة فتاة أخرى ، أن الأمر لا يهمها ، انتظرته ، دون أن تخطو خطوة واحدة ، لإصلاح ما فسد بينهما . كانت موقنة من

حتمية زواجهما ، وأن ما يحدث مجرد لعبة فى مسرحية لا علاقـة لهمـا بأبطالها ، فلما حدد موعدا للزواج، كان الوقت قد فات لتـتراجع عـن موقفها .

. فرقعت طلقات الرصاص فى السماء .. وصلت العـروس ..
ابتلعت ريقها بصعوبة كادت أن تزهق روحها ، وحركـت كتفـها فى حركة لا إرادية ، ثم أهالت التراب فوق رسوم انفجاراتهـا الداخليـة . مسحت بأصابعها المساحة المتاحة أمامها ، وخطت بيتـاً، وحديقـةً ، ومدخنةً ، تصاعد منها حلم الدفء . رأت نفسها ممددة، ورأسها مرتكن على ساقه ، يعبث بشعرها ، صفاء لم يتمتعا به كثيراً . كم مرة أقسما ألا يتعاركا ، أو يحتدما دون جدوى . لم يعرفا أبداً من أين ينفجر الصـدام ولماذا . كم مرة لامت نفسها على حدتها معه، " لكنه لا يترك أمراً دون أن يحاسبنى عليه ، كل هفوة، هذه الغيرة اللعينة .. من أين جاء بها ، وهو يعرف أننى لا أحب سواه منذ ولدنا ؟!"

تسلل إليها خدر لذيذ ، سرى تحت أصابعه التى تعرف كيف تعزف على مشاعرها ، حين رقصت فراشة بين خصـلات شعرهـا ، ولامست رقبتها . اشتهت أن تستدير ، وأن تعدل وجهها لتمكنه مـن شفتيها ، وأغمضت عينيها لتستقبل مروضها . دقت الدفـوف بقـوة ، غطت على صوت المطربة ، فوصلها خافتا متقطعا .

" على عش الحب وطير يا حمام "

ما زالت أصابعها تعبث بالرماد الجاف . جسدها ساخن . صوت الموسيقى يعبث بوجدانها . سامحته .. فتحت عينيها ، قالت بصوت سمعته وحدها :

– " قول للأيام أنا جاية أوام "

قررت أن تصالحه ، وأن يعودا معاً ، وأن يكون هذا عرسهما. قفزت إلى ذهنها صورته ، ممسكاً بعروس لا ملامح لها، رأت الحديقة موشومةً بلهيب الحب ، المقتول على مذبح العناد .

– هل يمكن أن يشاركه الغرباء هذا من دونى ؟! أنا وحدى لى الحق فيه ..

انكفأت تلملم أبنية الهذيان ، احتلتها صحراء ممتدة ، غلبها الحنين، لم تستطع أن تثبت الغطاء فوق مرجل أيامها أكثر من أسابيع بعد أن تم زواجه . فى ليلة لم تحسب فيها ساعات الطريق إلى القاهرة ، قفزت إلى السيارة ، ووصلت إلى بابه ، لم تفكر فى رد فعل العروس ، أو تتصور أن من حقها الاعتراض . أرادت أن تراها ، أن تعرف من هى هذه الفتاة التى اختارها ، لتعيش معه مدى الحياة .

مرت بحقول القطن ، حيث كانا يراقبان الجميعة ، ويتلصصان عليهم أطفالا ، ثم يحاولان المشاركة صبية . تعريشة العنب على النهر ، وهو ينهرها لأول مرة ويأمرها أن تعود إلى البيت . لم تتذكر سبب العراك، لكنها تذكرت أنها قذفت بكل الأسماك التى اصطادها مع الأولاد إلى النيل ، وتخاصما ، واستمرت جالسة مكانها ، حتى حلت الشمس جدائل شعرها ، ونشرتها قبل أن تنعس . فاجأها

باعتذاره ، لم تكن فى حاجة للكلمات ، سامحته لحظة أن وقعت عيناهـــا عليه ، مرت بالعيـــون التى تفور أمام حديقة المانجو ، حيث حلمـــها أن يبنيا عشهما معا فى هذه البقعة لترى المدى الأخضر :

ـــ أريد برجا عاليا يجعلنى أطالع رؤوس الأشجار .

عبرت السكة الحديد ، رأت صبية ترفض أن يساعدها على النزول من القطار الهرم الذى توقف قبل المحطة ، وكان عليهما القفـــز إلى الأرض .

وقف فوق القضبان ينتظر أن تقفز وحدهـــا كمـــا أرادت ، قال:

ـــ هل تعلمين لماذا أحب اصطحابك معى إلى كل مكان ؟

ضحكت ، وهى تقفز فى الهواء :

ـــ وهل كنت تستطيع غير هذا ؟

قال : لأننى لا أحب البنات المرتعشات .

لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة ، وهى بعد العاشرة بقليل، حين استطاعا وسط التقاليد الصارمة أن يفرضا رغبتهما فى أن يكونا معا دائما ، وألا يمنحا لأحد الحق فى مناقشة هذا . اكتسبا حنق رفاقـــهما ، الذين لم يستطيعوا التقدم للحصول على ما يريدون، أو بمجرد المحاولـــة ، واكتفوا بحدود الممنوح لهم .

وهاهى تقتحم بيته فى الثالثة صباحا ، لترى العروس .

للنهر فى كياك سطح مدبب بموجـــات صغـــيرة ، منتبهـــة كأشواك صبار الصحارى . قليل الحيلة ، يضج بالملل ، فلا هو شحيـــح الماء صائم ، ولا هو عفى يفيض . ازرق لونه وهو يرتعش شوقاً للتجدد ، فى انتظار السيل الأحمر الذى يجرف فتافيت صخر الجنوب ، ويهرســـها تحت وطـــأة ضرباته ، ويبعث الشباب فى أوصال النهر . فر الفلاحـــون من حوله ، وهجروا البورصة بعد أن شكشك البرد الأبدان ، و لم تفلـــح راكية النـــار فى حمايتهم من عصف الريح بعـــد غـــروب الشمـــس . اعتصموا بالمزارع ، ونقل أولاد المصيلحى مجلسهم إلى الفيـــلا الصغـــيرة داخل أسوار الدوار ، جهزوها لاستقبال التجار ، وتركوا الشكمة لمحمود حتى لا يفضوا عزلته .

تنفس الليل فى أرجاء المنتهى ، باضطراب ما عهدته ، إلا فى أوقات شدتها . زفر القلق فى أزقتها ودروبها ، وبلغ مداه وسط الغيطـــان فى مزارعها ، إذ لم يصل خبر واحد عن سيارة أنابيب الغاز، التى خرجت مع بداية النهار ، كعادتها كل يوم تستبدل الفارغ . انعكس القلق علـــى البورصة ، التى دبت حولها الأقدام فجأةً على غير العادة فى هذا الوقـــت من الشتاء ، وترنحت بين الدوار وخارجه . قلب الفلاحـــون الأســـئلة ،

وأعادوها مرات ، حتى تأكدوا أن أوراق السائق سليمة ، وأن مستودع الغاز فى المدينة يعمل بكامل طاقته ، وأنه لا سبب للتأخير . تعلق فى سماء القرية احتمال وحيد ، هو وقوع حادث ، ولابد من مواجهته قبل أن ينتهى الغاز من الدفايات ، ويلح الاحتياج للأنابيب المنتظرة . أرسل إسماعيل سائقاً آخر للسؤال فى نقاط المرور على الطريق ، وفى المستشفيات ، إن استدعى الأمر .

علا رنين الهاتف الذى حبس إسماعيل إلى جواره ، وجاءه صوت حسين أبو كحيلة سائق السيارة ، يقول إن شرطة المرور فى المفارق ، على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً ، قد أوقفته ، واصطحبته إلى المركز ، وأن الضابط يريد ما يثبت أن هذه الأنابيب غير مسروقة .

ترك إسماعيل خبراً فى البورصة ، وآخر فى الدوار ، بأنه ذاهب لتحرير السيارة ، وانطلق .

رجَّت الريح النوافذ بأزيز غاضب ، منذرةً بليلة شديدة البرودة . هلت بشائر طوبة "التى تجعل العجوزة جلدة والصبية قردة" ، فبعثت الخوف فى قلوب أصحاب المزارع ، التى بدأ الغاز يشح بها ، وتجمع بعضهم فى الدوار بحثاً عن حل ، وخرج آخرون إلى الطريق بحثاً عن السيارة . لحق بهم عبد الله المصيلحى ، ولم يمض وقت طويل ، حتى التف عشرون رجلاً حول الشاويش ، يطالبون بالأنابيب . وصل الضابط المناوب إلى المركز ، بعد طول عناء فى انتظاره ، وسأل مستنكراً:

ـــ ما سر هذا الاهتمام بسيارة أنابيب ، اذهبوا وسنفرج

عنها فى الصباح ، عندما يأتى وكيل النيابة .

قال إسماعيل : منذ ثلاث ساعات وأنا أحاول إقناع زميلك أننا نحتاجها . ستموت الكتاكيت إذا انطفأت الدفايات . طلب ما يثبت ملكية الأنابيب ، وقلت أنا ضامن ، وأصحابها وصلوا منتظرين فى الخارج، ماذا نفعل لتصدقنا ؟

استراب الضابط فيما يراه من قلق وما يسمعه من أزيز ، كان جديداً على المنطقة ، ولم ير مزرعة دواجن واحدةً فى حياته . مر بينهم مستفسراً متفحصاً ، حاولوا إقناعه بالذهاب معهم لأقرب مزرعة ، ليشرحوا له الأمر على الطبيعة ، فلم يقبل ، ثم استدار فجأة إلى صول قائلاً :

ـــ أرسل المخبرين ليفرغوا السيارة من حمولتها ، ويفتشوها قطعةً قطعة .

قال عبد الله : سنترك لك السائق والسيارة ، ونحمل الأنابيب فى سيارة أخرى ، إلى أن تنهى إجراءاتك غداً .

ـــ فى الصباح .

ـــ فى الصباح لن نحتاجها ، سيكون أكثر من مليونى كتكوت قد هلكت .

ـــ هه ، دخلنا فى "الأونطة" .

صرخ عبد الله : سأحملك المسئولية الجنائية ..

ـــ لا توجد مسئولية جنائية ، لى الحق فى الاشتباه فى أى سيارة تمر على الطريق ، والتحفظ عليها .

ضرب عبد الله كفًا بكف ، والرجال من حوله يهدئونه دون جدوى . خرج إسماعيل يتابع تفتيش السيارة ، واقترب بهدوء من أكبر العساكر سنًا ، ووضع فى جيبه مائة جنيه .

قال الرجل لزملائه : كافى . السيارة سليمة ، وكله تمام .

ذهب إلى الضابط مستطرداً : تمام يا حضرة الضابط .

تنحنح الضابط الشاب ، وهو ينظر إلى عيونهم المتوسلة ، وصرخاتهم تملأ المكان : سقنا عليك النبى تحلها قبل ما تموت الفراخ.

قال الصول : الناس متعشمة فيك يا باشا .

زفر الضابط : اذهبوا .

ركضت السيارة على الطريق ، وخلفها هيصة وزيطة ، حتى وصل الجميع إلى القرية ، ووزعوا الأنابيب ، ودخل عبد الله إلى الدوار يجأر ، يكاد يفتك بإسماعيل :

ــ رشوة فى آخر الزمان .. يا نهار أغبر ..! رشوة ؟!

وإسماعيل الذى حايله طوال الطريق ، دون جدوى ، يرد باقتناع ودون خجل :

ــ مائة جنيه عمياء ، بدلاً من الخراب المستعجل .

ــ الرشوة رشوة يا عم إسماعيل ، لعن الله الراشى والمرتشى..

سمعوا صوتاً فى الخارج يردد بحزن : الغاية .. الغاية .. والوسيلة .

انتبهوا إلى أنه صوت محمود .

قال عبد الله : تعال يا سيادة اللواء ، احضرنا .

قال محمود مكملاً سيره دون أن يلتفت إليهم : تصبحوا على خير .

قالت وديدة ، التي أقلقها الغضب ، وهي تشرف على إعداد العشاء مع ليلى زوجة ابنها الراحل عبد الحميد :

ــ صلوا على النبي ، ربنا حلها ، والأنابيب وصلت ، ماذا تريدون ؟

دخل علاء الذي أصبح يشبه أباه عبد الحميد كثيراً ، وجلس بجوار عمه عبد الله منكساً رأسه ، محاولاً إخفاء بشرة وجهه التي تبرقشت بجروح صغيرة .

قالت أمه ليلى : ذقنك مصيرها تبقى غابة ، لكن لها أوان.

ابتسم الجميع ، واحتضنه عبد الله قائلاً :

ــ كلنا عملناها ، وجرحنا أنفسنا .

قال علاء الذي غير مناخ الغضب دون أن يدرى :

ــ نفسى تخشن .

ردت ليلى ضاحكة : أنف الريحاني .. يحلم طول الوقت بأنف الريحاني .

قال علاء وهو يكور كف يده فوق أنفه :

ــ كبيرة ومفلطحة!

قالت وديدة ، التي لاحظت اكتئاب سوسن زوجة إسماعيل:

ــ حد يطول السمسم ؟ أنت أحلى واحد .

غضب علاء : أنا حلوا هو أنا بنت ؟ والا عيل ؟

قال إسماعيل : مستعجل .. بكرة تكبر وتشبع وتشيل الهم.

استيقظ محمود المصيلحى ، برغبة عارمة فى الصحو ، دفعته للوقوف بحركة واحدة ، فوق أرض الغرفة ، مستنشقاً قدراً كبيراً من العبير الفواح للأزهار التى وضعتها وديدة فى المزهرية ، أمام صفوف الكتب المجلوبة من بيته فى القاهرة ، والمرصوصة بعناية من يعرف صاحبها، حتى خيل إليه أنه وضعها بنفسه ، من زمن طويل . لم يلحظ تراكم الألفة فوق الجدران ، ولم يعرف من أين تسلل الحنين إلى زمن يتوق إلى معرفته، مدركاً أن رحلته فى السفر الطويل ليست رحلةً واحدةً، لكنها مراحل ومحطات ، وأن خطوطها ليست مستقيمةً تماماً ، وليست نهائية . فالمحطة الواحدة تحتاج للمرور عليها أكثر من مرة ، وعليه أن يقبل بالخريطة التى يسير عليها القطار ، إذا كان يريد أن يصل سليماً معافىً ، إلى خط النهاية .

تطلع ، وهو يرتدى ملابسه ، إلى اللوحات المعلقة فوق الجدران . وترك عينيه تحنوان على صورة ابنه سمير الملتقطة له أمام شمعة سنته الأولى ، ثم تنتقل إلى العرائس الخشبية الصغيرة المتدرجة الحجم ، التى تحمل نفس الملامح للفلاحة الروسية ماترويوشكا ، أقلام الرصاص المبرية المجمعة فى كوب من الأبنوس الإفريقى الأسود، الشُّعَب المرجانية المتناثرة

فوق الكتب ، و"أباجورة" الودع التى تفِحّ بصوت البحـــــر ، وشوشـــةً وحســـاً . استعد للخروج يداعبه أمل ، يعرف الآن مصدره . على طريق المعاهدة ، شاهد الفلاحين يخلعون نبات الهالوك ، من جذوره ، من بـــين شجـــيرات الفول ، قال لنفسه : نبات جميل لكنه قـــاتل ، كثـــيراً مـــا أشرفت على حرقه بنفسى ، على رأس الغيط ، مع رئيس العمال .

وصل إلى سبيل الشيخ سلامة ، واستدار عائداً . أثار انتباهه نضارة أوراق الفول وقطرات الندى المتلألئة فوق أزهاره البيضاء ، الـــتى تخفى عيوناً سوداء ، محدقة ، وعاد إلى الدوار بمشية عسكرية ، واثقـــة ، استعاد فيها قامته المشرعة نحو السماء . قبل يد وديدة التى لاحظت صفاء عينيه ، ولم تعلق على استعجاله العودة إلى الشكمة. جلس إلى مكتـــب أبيه، وفتح الأوراق . دارت عيناه فى محجريهما، لتستقرا فـــوق العنـــوان المكتوب :

الرحلة إلى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٦٥

ناوشته صورة لمدينة أكبر من كل المدن التى رآها فى حياته، وازدحمت فى رأسه أسئلة هشها بسرعة ، ممسكاً بخيط الكلمات التى بين يديه :

لم أكن أعلم حين أقلعت الطائرة ببعثة الضباط إلى الاتحــــاد السوفييتى عام ١٩٦٥ ، وأنا من بينهم ، أن رغبتى فى الحصــــول علـــى أركان حرب ، ستتأجل مرات ، حتى أكون فى هذا الوقت بالذات خارج مصر، وأن أمر بما مررت به هناك .

لعبت الصدفة دورها فى دخولى امتحان البعثة . كنت قـــد تقدمت لاختبارات كلية أركان حـــرب عـــام ١٩٥٩ ، ورســبت فى الكشف الطبى . خذلتنى عينى اليسرى ، تضايقت ، وحملت هـــمّ هـــذه العقبة التى ظهرت فجأة ، فلم أتقدم عند الإعلان عن الدورة التالية ، عام ١٩٦١ . فلما أعلن عن دورة ١٩٦٣ ، كان من بين شروطها أن يكون الضابط حاصـــلاً على دورة "قائد كتائب" ، وألا تقل مدة خدمتـــه فى التشكيلات عن خمس سنوات . ولم أكن مستوفياً للشرطين ، فلم أتقدم ، وانتهـــى الموعد . انتحيت جانباً بمدير شئون الضباط أثناء زيارته للكلية ، وسألته :

ــ متى سأحصل على فرقة قائد كتائب ؟

ــ لماذا تريدها ؟

ــ لأحصل على أركان حرب .

ــ ألم تقدم ؟

ــ لا .

ــ اكتب الطلب حالاً .

جمعت ما أستطيع من معلومات فى أسبوع ، وتقدمت مـــع ثلاثمائة طالب قُبل منهم خمسة وعشرون وكان ترتيبى التاسع .

كان من الممكن أن تستمر سنوات البعثة فى الاتحاد السوفييتى بين الدراسة وتعلم اللغة ، وأن تترك أثراً حســـناً فى حيـــاتى، بغناهـــا ، وعلاقاتها الحميمة بالطلبة الزملاء من مصر والعـــالم الثـــالث ، وأيضـــاً

بمدرسيها الروس ، لكن الأحداث العامة دائماً ما تــأتى لتعكــر صفــو اللحظة ، وتلوى أعناق المسارات .

حرصت من البداية على إجادة اللغة الروسية ، والتفاهم بها، وفوجئت بعد خمسة أشهر من وصولى ، فى الاحتفال بيوم المرأة العالمى ، بأن برنامج الحفل يتضمن كلمة الكلية الرابعة ، يلقيها الصــاغ محمــود المصيلحى "بالروسية طبعا !" ، رشحنى المدرسون بعدها لشرح كل مــا يصعب فهمه على الزملاء بسبب اللغة ، فكنت أعيد صياغته لهم بالعربية. أغرقت كل همومى الشخصية فى التعليم ، وعرف عنى أن لى نظرةً خاصةً وغير تقليدية فى دراسة التكتيك ، ودائماً ما كانت حلولى بعيــدةً عــن حلول هيئة التدريس وباقى الطلبة ، وكثيراً ما تبنوا الحل الذى أقدمــه . وتقدمت فى الدراسة بسرعة أشعرتنى بالإشباع ، والتحقــق ، لكنــها لم تستطع رغم كل محاولاتى للهرب ، أن تمحو الأسئلة التى تلح على ذهنى ، حول صافى ، وكثيراً ما سألت نفسى : إن كان الابتعاد خارج البــلاد يصلح ما فسد بيننا ؛ ودائماً ما أصل إلى النتيجة نفســها : هــى فــترة للتفكير بهدوء ، فى مصير العلاقة ، وعلى كلٌ منا أن يتقبل القرار الــذى يصل إليه الآخر على حدة . صافى تلح على الانفصال بعصبية شديــدة ، فإذا أقدمت فعليًا على اتخاذ خطوة لتلبية طلبــها ، تراجعــت . أشعــر بمسئوليتى عن وحدتها، ولا أستطيع كسرها . ربما لو رزقنابطفل ، لتغيرت حياتها . عــرضت عليها أكثر من مرة أن تربى أحد أطفــال العائلــة ، لكنها رفضت بشدة ، لأن الطبيب أخبرنا فى كل زيارة له ، أننا مستعدان للإنجاب ، ولا سبب عضويًا للعقم. فهل يعقل أن يتسبب الحاجز النفسى

فى الوقوف ضد إرادة الطبيعة ؟ هل يلس القلق القناء فى البذرة ، فتدخلها ميتةً عديمة النفع ، رغم أنها تبدو صحيحةً فى المعمل ؟

تتهمنى بأننى أنشغل عنها متعمداً ، ولا تقبل تفسيراً آخر لوحدتها ، تثور لأتفه الأسباب ، ولا تهدأ حتى تصل إلى قمة الانفعال ، ثم تستريح دون سبب مفهوم .. آلية رصدتها وعالجتها، دون أن أستطيع تجنب الوقوع فى شراكها الجهنمية . أبذل طاقتى كلها فى إعادتها إلى السكون ، وأفقد فى الطريق إلى هدوئها صفائى وصبرى ، فأترك على عتبتها كل رغبة فيها ، وأغرق فى عملى ، ونعود إلى الدائرة نفسها ، دون حذر .

من يصدق أننى اخترت الزواج من صافى ، أخت زميلى سيد زيدان، بسبب رقتها وعذوبتها ؟ هل أخطأت حين تصورت أن خجل الأنثى ، وانغلاقها على عالمها الصغير ، سيعطينى مالم تستطعه نهى ؟ اخترت امرأةً تتفرغ بكيانها لى . تمتص وجعى ، وترحم انشغالى ، تكون بحيرةً لا بحراً ، هل تسرعت فى اختيار لحظة الزواج؟ هل حمَّلتُ صافى ـــ دون أن أعى ـــ مسئولية عدم زواجى من نهى ؟! مستحيل ، لقد اخترت الابتعاد عن نهى ، بكامل وعيى وإرادتى وليس لمجرد مشاجرة، كما خيل لبعض أفراد العائلة . كان الخلاف بيننا عميقاً ، وكنت صادقاً مع نفسى حين أدركته ، رغم أننى أحبها بكل كيانى . لا مجال للعتاب الآن أو العودة إلى ما لا يمكن استرجاعه .

وصلنى خبر زواج نهى من حلمى ابن عمى وصديقى ، ورفيق عمرى .

توقف عن القراءة ، ظهرت صافى على الكرسى "الفوتــــيّ" المقابل للمكتب ، شم رائحة عطرها ، قبل أن يبصرها . بضة ، قصــــيرة القامة ، شديدة الاعتناء بجمالها ، وشعرها الأسود الفـــاحم ، المنســـدل بنعـــومة ، فوق كتفيها . لاحظ خطوطاً مروحيةً تحيط بالعينين اللتـــين لفتتا انتباهه فى أول مرة قابلها مع صديقه حسن زيدان . لم يختف الحور الوحشى من مقلتيها ، لكن ارتفاع الخدود الذى جاء مع السمنة ، قلـــل من اتســـاع حدقتيها . نظرت إليه طويلاً بعتـــاب ، فلـــم تلحـــظ أن السيجـــارة فى يدها كادت أن تحرق إصبعها. تنبهت ، قامت وداستها فى المطفأة فوق مكتبه ، أمسك كفها ، وضغط عليها ، كما اعتاد أن يفعل ، ليوصل لها ما يريد ، دون كلام . قبض على فراغ ، اختفـــت ، تـــأمل صورة سمير المعلقة أمامه، وسمع ضحكته تجلجل :

ــ ولد لى سمير بعد عودتى من موسكو .

شعر بانتشار سخونة داخلية عارمة . حـــاول أن يحللـــها ، فاكتشف أنها كتلة متباينة لخليط من السعادة والحزن والقلق والراحـــة ، الطمأنينة والخوف ، الحب والكراهية . حاول أن يفككها ويعيدهـــا إلى خيوطها الأولى . تتبع كل واحد على حدة ، فازدادت تلعبكاً ، تربـــص بالطمأنيـــنة ، علها تغلف كرته ، التى راحت تتنطط بين حشاياه فى ثقة، اكتشف أن قلبها ليس مصنوعاً من " الكُلة " ، بل من حوادث مبهمة ، لم يتمكن من اصطيادها .

ـــ لم آمل أبداً أن تكون الدنيا داراً للسعادة . لم يخلقـــها الله جنةً ، ولا خلقها ناراً . الآن أعرف أننى لم أغرق أبداً فى لحظـــة ، لأنى أدرك دائماً أنها ستنتهى .

قام إلى وديدة فى الواحدة إلا خمس دقائق . دخل الحوش فى موعده تماماً ، متجنباً أخاديد الماء التى لم تتشربها الأرض من مطر الأمس، والشمس تلعقها وتمتصها ، بتغنج فاضح . رأى قزانات كبـــيرة ، تحتـــل ساحة المطبخ الداخلية ، والكانون المشتعل يحمل قزاناً يغلـــى ، ورائحـــة السمن الطازج تعطر الجو بدفء شتوى ما . التفتت إليه وديدة ، بعد أن وضعت "المقصوصة" ، المحملة برغاوى المُرتة [1] فى السلطانية هاشةً له .

قال لها : كل عام وانت بخير يا أمى .

انتبهت إلى أنها المرة الأولى التى يعلق فيها على شـــئ بعـــد الحادثة . قالت، وهى تمنع عيونها من أن تدمع ، حتى لا يلاحظها:

ـــ وانت بخير يا ابو سمير ، القشدة عقدت ، أحسن سمن .. سمن طوبة ، الرُب [2] فيها قليل . خَزَّنّا للدوار ، وعلى آخـــر الأســـبوع نخزن لأخوتك .

قال ، وهو يدلف بجوارها إلى غرفة العيش ، حيـــث طبليـــة الطعام فى انتظاره :

ـــ ربنا يعطيك الصحة .

---

١) المرتة : ما يتبقى من الزبد بعد تحويله إلى سمن .

٢) الرُب : الريم .

قربت منه الطعام قائلة :

ـــ كل شيء يحلى فى طوبة ، المربة تعقد ، والسكر يزيد فى البرتقال ، أشغالنا ..!

ـــ والله .. أوحشنى سمير .

لم تستطع أن تمنع دموعها ، وارتفع صوتها على غير العادة بتهدج :

ـــ اذهب إليه يا محمود ، اذهب .

قال بصوت خافت ، وهو يميل ناحية أذنها :

ـــ كل شيء له أوان يا نينا .

خايلته نهى . تذكر فجأةً أنه لم يكتب مشاعره عن زواجها من حلمى ، وسأل نفسه : لماذا ؟

فاجأت نهى الجميع بزواجها من حلمى ، كما فاجأتهم بفسخ خطبة محمود لها . سنوات مرت دون ارتباط ، رفضت كل من تقدم للزواج منها ، وفرضت على العائلة عدم التدخل فى شئونها ، كما اعتادت دائماً .

أحبها حلمى صامتاً منذ وعى وجودها ، استمتع بدبيب يلف الكون حين تكون بينهم ، بوحشة حين تختفى لأى سبب . فلما رحل إلى الإسكندرية ليلتحق بجامعتها ، وعصف به نزف الحنين إلى موطنه ، واجه نفسه للمرة الأولى . هدر بصوت عال :

ـــ نهى ، أريدك .

ولم يسأل عن المستقبل ، وهو يرى الكل من حوله موقن أنها لمحمود.

استطرد :

لماذا هى ؟ البنات من حولى يرفلن فى الحرير ، ناعمات ، لا مباليات ، يمرقن فى سماء الأسرة دون صوت ، ثم يختفين دون أثر . لماذا هذه البنت الموجعة البصمة ، الطاغية الوجود ؟ أأريدها لأننى أعرف أنها ليست لى ؟ أأركض وراء سراب ؟ أيكون الحب هو الهدف ؟ أأمارس الإحساس بذروة مشاعرى ، وأنا أعرف أنها مقتولة على مذبح صدها؟ لكننى لست مراهقاً أو هوائياً ، ولم تكن لى أبداً نزوات طفولية . سمعت أمى كثيراً ، وهى تحلم بزواجى من بنورة ابنة خالى طه ، لكننى لم أشاركها هذا الحلم أبداً، ولم أشعر ببنورة إلا كأخت صغيرة ، وكان فرحى بزواجها من نبيل يفسد حزن أمى التى لم تلتفت أبداً لمشاعرى نحو نهى .

رحلة الأيام تمر دونها ، تجمعهم محطة العطلات ، دون أن تتغير فى الصورة أماكن الأبطال. حاول الابتعاد ، لكنه لم يستطع، ثم استسلم لعذاباته ، وتركها تمرح داخله ، وهو على يقين أن حبيبته له فى نهاية المطاف . أما كيف يحدث هذا ؟ فلم يناقش ، وامتلأ بشعور جارف أنه لا يخدع نفسه . تقلّب أياماً يلعن هذا الحب المر ، وأياماً يشكر الدنيا أن ذاق حلاوة خربشاتها على جدار قلبه . دثر أيامه عطر الليمون الفواح، الذى ما عرف أبداً لماذا يذكره بها!!

اعتادت سنوات الطفولة المبكرة التى قضاها فى المنتهى مهاجمته بدأب . اجتاحه الحنين طوفاناً ، يدمر كل السدود التى ظن أنه بناها بصبر خلال أيام الدراسة التى تلملم أثوابها لترحل أشياء كثيرة مؤجلة ، وجدها فجأة قد اكتست شحماً ولحماً ، طرقت الباب ، دون استعداد لها . احتلته . حاول الهرب منها ، ادعى أنه فى حاجة إلى نسمة هواء ، لم تكن الإسكندرية قد استقبلت زوارها المصيفين بعد ، ترك البحر سماءه للنوارس ، تدور فى دوامات واسعة، وتحط فوق الصخور، وصوارى المراكب ، والشاطئ مقفر. استلقى حلمى فوق الرمال ، غير عابئ بذراتها التى تسللت بين حلزونات شعره الأحمر المجعد . تصور أنه تخلص من إجابة السؤال : إلى أين ؟

عادت صورة نهى تراوغه ، تركها تسكنه . أغلق عينيه الزرقاوين اللتين واجهتا أشعة الشمس المتكسرة ، لم يحتمل زياراتها المباغتة التى تلمع فجأة . داهمته باقة من الأولاد والبنات يركضون فى الحقول ، صحبةً واحدة لا تنفصل ، يسقطون ثمار المانجو الخضراء ويدفنونها فى التبن. يمسكون بالقراميط أيام الجفاف ، ينغرسون فى الطين ، ويصرخون فرحين بالفريسة ، ترميهم نهى بالطين ، وبكل ما يصل إلى يدها ، وتبتعد باكيةً ، يقفزون إلى النهر عراةً حين تختفى ، فى الصباح الباكر يفضون أمان العصافير العارية الصغيرة فى أعشاشها المختبئة بين فتحات الدرابزين فى الطابق الثالث المهجورة شرفاته ، وتصرخ نهى : اتركوها لأمها . كانت مثل الضمير تنبهنا ألا نفسد حياة الكائنات الأخرى ، لكننا لا نسمع .

نضجنا معاً ، متى نما الحب بين نهى ومحمود ؟ التصقا منـــذ سنوات لا أذكر عددها . فرض محمود نفوذه عليها ، باعتبارها ملكاً له ، دون نقاش ، واستسلمت هى ، لا ، نهى لا تستسلم ، لابد أنها رأت فيه ما يكملها ، لا .. هذا غير صحيح ، كان هو أول من عزف على وترها، فترك علامةً لم تقـــو على التخلص منها، عرفت الحب مـــن خلالـــه ، عرفت طعم أن يكون لها رجل معه .

الحب الأول أكذوبة ، سرعان ما ستكتشف أنها فى حاجـــة لأن تقطع خيوطها لكى تنمو . ولماذا يكون الحب الأول أكذوبةً بالنسبة لها ؟ وحقيقةً بالنسبة لى ؟ لماذا لم أخبرها بعواطفى ؟ كيف هذا ؟ وأنـــا أسمعه يشكو لى لوعة عواطفه . محمود ليس مجرد ابن خال تربيت فى بيته، وفى كنفه ، هو ربيب العمر ، كيف أخون هذا ؟

تطلع حوله ، شئ ما ناقص فى هذه السماء ؟!

قام يتمشى . فض عذرية الماء ، هدأ الموج الـــذى يضـــرب قدميه ، ومات الزبد ، وهو يتنفـــس آخر محاولاته للحرية . مرقت ريح خادعة لها طعم اليود والملح ، كشفت عن صرير رفيع لطم بدنه بقسوة . أعلنت بصـــراحة : لا أريد رواداً فى مملكتى الآن . الشمـــس ترحـــل ، وأنت أيضـــاً. أغلق زر القميص فوق رقبته ، اســـــتأذن فى الانفـــراد بالمدى دقائق أخرى ، لكن الرياح أصـــرت ، وكشفت عن وجه قبيح . اعتصم بالمدينة على بعد خطوات من الكورنيش ، وتلقفه دفء ، ووجوه نسيتهـــا حضارات ، رحلت منذ زمن طويل ، أرديتهم عتيقـــة تحمـــل

رائحة زمن موسر ، تغضنت وجـوههم ، وتكسرت ألسنتهم ، تحـت وطأة الحنين لعالم تسرب.. عجائز فى شرفات قريبة مـن الأرض ، لهـا أسقف عالية ، وقع طلاؤها ، وتملـحت الجدران حولها . عطرت الجـو رائحة الياسمين الهندى المتفتح فوق الأشـجار التى تطل مـن الأسـوار الشاهخة. نبهه الدفء المتسلل إلى حاجة يديه إلى الاختباء ، أخفاهمـا فى جيبى سرواله ، ونزل الدرجات ليصـل إلى شـارع آخر فوق الهضبة ، قابلته حجارة أكثر قدماً، ونباتات متسـللة بين الشقـوق . صعـد إلى الطـابق الثانى لمقهى صغير يكشـف البحر عن بعد . تلألأت الأضواء ، ورمى الصمت ثقله بفجور. انشغل صاحبا المقهى العجـوزان بالنظافـة وتجهيز المكان للرواد القادمين بعد قليل . راوغته إشارات سفينة تطلـب الإذن بدخول البوغاز ، وسفينة ، وسفينة : "لماذا لا أبقى هنا إلى الأبد؟". اختنـق عندما لم يستطع الإجابة . دفـع الحساب، وخـرج إلى الشارع، تطلع إلى السماء : "إنها نفس النجوم المنثورة التى تصفو قـرب الفجر فى الحقول ، ولكن المكان لا تفوح منه تلك الرائحـة الممزوجـة بأيامنـا ، المختلطة بالتراب ، والحلبة ، وتختر اللبن، بالجميزة والسيسبانة، بالمانجو والتين والتوتة ، بالعرق . نحن فلاحون حتى النخاع وإن ارتدينـا الجينز . اعشق رائحة المنتهى الممزوجة بالطمى الذى يـزحف ويبتلـع الإسفلت فى الطرقات ، والأزقة ، رائحة غبار الشعير والقمـح ، وهـو يذرى ، وأيضاً طعم التبن الذى يتسلل إلى حلقى مع كل موجة ريح تنشر

فتافيته . ورائحتها هذه الفراشة السمراء النحيفة الهيفاء ، التى تضرب بحصدة منجل كل مقاييسنا، تقاليدنا ومعتقداتنا ، السمراء الوحيدة بيننا .

زحفت ابتسامة غطت البشرة الحمراء للوجه الهادئ الدقيق التقاطيع ، أظهرت نحافة شفتيه أكثر فأكثر . "لا أنسى يوم عودة كوثر ابنة خالى من السعودية للمرة الأولى بعد رحيلها الاضطرارى، وكنا نحيط بها عندما دخلت نهى ، وقدمتها إليها نينا وديدة ، فدقت على صدرها قائلة :

ــ هذه نهى ؟ هذه ؟! كنت أتصورها مثل شق اللفت ..

وانفجر الجميع بالضحك إلا نهى ، التى ردت فى برود دون ظل ابتسامة ، وهىَ تشير إلى صدرها :

ــ أنا سمراء لأنى مصرية!

والتفتت تكمل حديثها مع لبنى ابنة خالى رشدى ، وكأنها لم تلق بقفاز فى وجه أحد . خطفتها كوثر من فوق الأرض ، وانهالت عليها تقبّلها اعتذاراً ، وتقول لها أنها أجمل الفتيات ، رغم سمارها ، وهى ترد فى وقار :

ــ هذه مسألة ذوق يا عمتى .

عبَر الطريق حتى وصل إلى الميناء . اعتلى الصخور الصماء، وتأمل الوجوه المتجهمة لمقدمات السفن . ربت على خشب المجاذيف المستسلمة ، داهمته رائحة الملح والصدأ ، تحرك قارب صغير ، فارتعشت المياه تحت وطأة الشق الذى أحدثته الدفة فى اللجة ، وتردد صداه دوائر انتشرت فوق السطح .

ــ لماذا يكون طعم الحنين مرًّا ؟ أحتـــاج إلى الفطـــام ، ولا أريده ، أسمع نفسى أصداء تتردد فى جوف الزمن ، معنىً مسجوناً منـــذ آلاف السنين ، معنى أبديًّا . لكنى لن أكون مثل الريح[3] المسافرة فى ديار الحكمة ، لا تعادى أحداً ، ولا تنحاز إلى شىء .. لن أكون كما كنت!! ضلّلتُ موجات الحب حتى لا تقتحم نُهى ، حبستها فى قبـــو العـــدم ، وتركتها للصمت ، تنزف عواءً يشوش الأثير ، ويبذر الأرق . للحـــب وهج ، هالة تحيط بالمحب ، دارة[4] تدثره : كيف لم تصل حرارتهـــا إلى نُهى الشفافة ؟ هل صحيح أن مهارتى خدعتها ؟ أم أنها تتجـــاهل لأنهـــا مشبعة بآخر ، يخطف بصرها بريق زاعق ، بدائى وسطحى ؟

ــ زائف .. ؟ إن بريقها الطاغى يجعل منك ظلاً .

ــ ليتنى لا أعرفها بهذا القدر ، فأغرق فى أحلام انتظارهـــا على الشاطئ .

ــ إن قذف الموج ، بها ستصلك مجروحة . كلمـــا همـــت بالاقتراب منك ، حجبتها غلالة ألم ، تهيج ذكرى محمود .

عبقت رياح الشمال شعره برائحة الصباح النـــدى ، فتـــح قميصه من الصدر ، تقافزت الحوريات ربات المتع التى ســـكرت بفعـــل الشوق فى خلاياه . سمع أصداء ضحكاتهن الخليعة ، تتردد فى السماء .

---

٣) أنظر الهوامش .

٤) دارة : حلقة الضوء حول القمر .

ـــ ما عدت أنكفئ على بئر زمانى المـــــاضى حـــتى لا أرى وجهك منعكساً على أديمه . أى إثم وشمت به نفسى ؟ وأنا أسعى إليـــك مـــرات لكى تعودى إليه . أى إثم ارتكبته كى يعاقبنى زيوس ، أين قرأت أن الآلهة أكثر قسوةً من البشر ؟! ربما هى كلمات لحب فى العهد القديم ، ولكل زمن آلهته القساة القلوب ، فلم تصنع أنسجتهم من رغبة ونشوة ، و لم تغلـــف عظاماً تقعقع من الحرمان . ســـتولدين ذات ليلـــة ، وقـــد أرهقك الرداء الذى ما عدت تحتملين!!

وصله خبر انفصالها عن محمود ، استقبله بهدوء ، لا يناسب عصافير النار التى تستوطن أحشاءه . كان قد تعايش مع آلامه ، يخصبها كلمـــا همدت . تابع كل تفاصيل استعدادات الزواج ، دون أن ينـــاقش أو يسأل نفسه : ماذا أنا فاعل ؟

فى المرآة[٥] ، رأى صورة العدو الوحيد . لم يستطع الخيـــال إحضارها إلى سريره ، ولا قضاء ليلة واحدة يشكو لها شغفه ، ولا تسلل بصيص نور من سنوات الصبا ، بأجنحة بيضاء ، باسطاً أشكال بيـــوت وشجر على الصخور السوداء ، لم يرمم أحد بمجذافه، و لم يحمله ليشـــق اليم، و لم يفرد شراعاً إلى السموات السبع، بل تردد فى صـــدره صـــوت راكد أجـــوف مثل العزلة ، و لم يعرف إلى أين يصوب النظـــر . حـــتى رغبات جسده التى كان يبثها فراشه ، ويلقى بها إلى المراحيض ، جفـــت فى ينابيعها ، واحتلت بشرة وجهه ، وانتفخت فى كبرياء شمطاء ثريـــة ،

---

٥) أنظر الهوامش.

اعتلاها تاج أبيض، و لم يفلح الطبيب الذى منعه من الدهـــون والتوابـــل الحريفة والشيكولاتة ، وحقنه بمضادات حيوية قوية ، أن يوقف طوفـــان البثور الذى انفجر دمامل متقيحة ، وقال له فى النهاية :

ــ واجه المشكلة ، بدلاً من إلقائها إلى جسدك ليناطحها.

بحث عنها فى حفل زفاف محمود ، كان يتوقع وجودها كما عودته على غير المألوف : لماذا تسلك اليوم سلوكاً معتاداً ، وتخجل مـــن ظهورها وسط العائلة ؟ سأل نفسه .

فى بداية السهرة ، اعتلى الترقب سحابةً جثمت على سمـــاء الحفل ، هاجم المحتفلين شعور أن الفرح تنقصه العروس ، ثم توارى القلق، وتلألأت الابتسامات . فرغ الجميع من القصة التى يدور فصلها الأخـــير الآن ، إلا هو ؛ كانت معرفته بها تنبئه أن صمتها هو صمت الحـــوت ، حين توجه إليه ضربة قاتلة . ينتظر حتى يطمئن قاتلوه ، ثم يعود بضربـــة ذيل ليعتلى حطام السفينة . لم يرفع عينيه عن مدخل الـــدوار أو وجـــه محمود بالتناوب ، يراه مرةً شارداً وقد ارتحلت روحه على حطـــام مـــن أخشاب سفن عطنة إلى مجرات صامتة مخيفة ، ويراه أخرى وقد تـــألق فى عينيه إيقاع فرح ، إيقاع حياة أخرى ، تتجـــاوز التمـــاثيل المهشمـــة ، وتتعدى الأعمدة الأسيانة الخربة .

علت الدفوف ، أزاحت سنوات الوحدة . دفـــع الشبـــاب العريس من صالة الدوار الكبيرة التى تجمع فيها الرجال ، إلى الحديقـــة ، فالبرزخ الضيـــق الطويل ، إلى الحرملك . اجتازوا العتبات، عتبـــةً وراء عتبة ، نصف ساعة احتاجها القطيع للعبور .. التصقـــوا ، تشـــابكوا ،

تلاحموا يغنون فرحين . سمعت النساء فى الطابق الثانى الهديـــر . أرســـلن الغوازى يرقصن أمام العريس ، وتحلقن فوق السباط حول درابزين مسقط النور ليشاهدن الرجال، وهم يدورون بالعصى فى ساحة الحوش الداخلية، المحرمة عليهم إلا فى مثل هذه الاستثناءات ، قالوا :

اللى يحب النـــبى يفتَّـــح سعيد يا مــســـــعد

سعيد يا مسعد ياللى أخدت البيضــــا

أطلقوا الدفوف حتى اكتفوا ، واستداروا ناحيــــة الــــدرج . اندفعت البنات الرافلات بالقماش المقصب الذهبى والفضـــــى إلى بوابـــة السلم العليا يستقبلن الزحف . أطلت سهام الحب من العيون، وتبـــــادل العشاق شوقاً صامتاً ، ورسائل أثيرية ، ومسحت نظرات الشبان الطوابق كلهــــا بحثاً عن جمال صاعق مختف ، ومنَّى البعض نفسه بإصابة من حربة عشق طائشة . نسى الجميع همى حين احتدمت النار فى الأصابع التى تدق الطبـــول ، وقفزت الفراشات السوداء منهبدات ، يتقصعن ، وأيديهن إلى أعلى ، يستعرضن جمال القوام ، وتقدمن الصفوف حتى اقترب الموكب ، وأصبحت الموجات على وشك التلاحم والتداخـــــل . وقـــف العريـــس وصحبـــه على باب الدرج يريد اجتيازه إلى العـــالم المحـــرم ، ســـاعتها تشكلت البنات فى ثنائيات انبثقت فجأةً أمامه . صنعت سدًّا يمنع دخول

الرجال ، رافعات أيديهن ، ممسكة كل منهن بأنامل الأخـــرى ، نحـــو السماء ، وأطلقن حناجرهن :

عريســـنا الغنـــــدور	كـــل الحـــلاوة فيـــه
وطلعـــت لـــه القاعــــة	بالمســـك والســـــاعة
والبـــــت بدّاعــــــة	دارت تقلـــب فيـــــه
عريســـنا الغنـــــدور	كـــل الحـــلاوة فيـــه

وانطلقت الزغاريد تمسح أحزان الأيام ، وتنســـى القلـــوب المرارة بكلمات سمعتها أحجار الدوار مرات ومرات ، ورددتها المسامير فى الأبواب الخشبية ، وقطع البلور فى الثريات ، التى اكتسبت مـــع الوقـــت شيـــئاً من عبق الأجداد . تقدم الموكب خطوةً خطوة ، وانحنى فى طريقه، حـــتى وصل إلى الساحة الواسعة قبل أن يصعد درجتـــين تفضيـــان إلى الصالة الكبيرة ، حيث العروس المنتظرة فى الكوشـــة غارقـــة فى خجـــل وحشى .

التفّت النساء والبنات فى حلقة واسعة حول العريس ، ومعه ثلاث من المتمرسات فى الغناء ، صفقن إيقاعاً اتفقـــن عليـــه بســـرعة ، وانفجر الكون من حولهن بغناء جماعى واحد يردد صدى لحنهن البدائى :

غنّـــــى لاخوكــــــنّ يـــــا صبيـــــــة غنّـــــــى
خيّـــــك شقيقــــــك حارسُــــــــه المتــــــــولى
غنّـــــى لاخوكـــــــى ياصبيـــــــة قُـــــــولى

تحررت عشرات الطلقات نحو السماء ، تفزع الطيور فى أعشاشها، وتُجَمِّع الدموع فى عينى حلمى ، الذى لم يعرف كيف استطاع حبسها فى آخر ثانية . اندفع التيار يجرف العريس أمامه ، حتى وصل إلى الكوشة، وجلس بجوار عروسه العارية الذراعين ، الملتفة بدثار فضى يتلألأ مثل ورق الشيكولاتة ، ويعكس وهجاً فاقعاً ، لا يخفى دفئها ورقتها . كان كل ما فيها دقيقاً : شفتاها ، وأنفها ، إلا عيناها ذات الحور الوحشى الغارق بؤبؤهما فى بياضهما الواسع . شئ ما فى هاتين العينين يجعل من يتأملهما يرخى جفونه خجلاً . ربما نداء شهوانى مدثر بحياء حار ، وحقيقى، وقدّ ضئيل بض ، يعلوه تاج أسود قصير ، مدببة حروفه المنسابة حول الخدود .

زعق الرجال والنساء معاً فى أنشودة حماسية ، قائلين أن لا أحد يقدر على فرحهم ، وإن طال العلالى ، حتى همدوا ، وتركوا المكان للغوازى ، ولمطربة جاءت خصيصاً بفرقتها من القاهرة . وتراجع الشبان المتمردون الذين حاولوا البقاء مع صديقهم ، لكن التعليمات الخفية كانت قد سرت : عودوا إلى الدوار الخارجى ، والشكمة مع عجائز العائلة الحكماء ، وكفاكم ما نظرتم من نساء. صغروا ، حتى استطاعوا العودة قبل الفجر بقليل كى يسلموا العروسين إلى عشهما ، ويطمئنوا أن كل شىء تمام!!

تأمل حلمي العروس : جميلة ، وديعة ، انسحبت الدفوف من أذنيه ، وسكنته موجة أسئلة غرق معها :

ـــ لماذا يختار الرجل شخصيةً مختلفةً عن حبيبتـــه ؟ محمـــود يهرب إلى الهدوء . يأخذ راحـــةً .. هدنة ، لو كان اختار امرأةً قويـــةً، قريبة الشبه من نهى ، لكان اختياراً حرًّا غير مقيد ، أقرب لطبيعته .

ـــ هل شفى حتى يكون حرًّا ؟ ربما قتل الحب على مـــهل ، وبقى خيط واه ، تهاوى فى النهاية وحده .. ربما .. ربما .

ولد القمر مرات كثيرة ، وتناسخ وجهه المضىء فى السماء، حتى أصبحت نهى زوجةً لحلمى . أقنعها بالزواج منه ، قال لها :

ـــ انعتقى .. أبدلى رداءك ، انسلخى من قشرك القديم .

قالت له ، وهى تغالب رغبة فى النسيان :

ـــ ما زلت مريضة ، ضعيفة ، لا أقوى على رحلة الحريـــة عارية ، ولا أعرف ما أريد!!

ـــ سأكون دثارك ، تدفئى ، واخرجى فراشـــة جديـــدة .. ساعتها لن أفرض نفسى عليك ، وسأتركك تختارين .

ـــ تستحق امرأةً تحبك .

ـــ أحب امرأة ، وهى فى طريقها الآن نحوى ، لا تصـــادرى قدرتى على استمالتها ، هى لم تعرفنى أبداً .

ـــ لماذا تحرمنى من صديق أشكو له آلامى ؟

ـــ سأكون قنديلاً يثقب ليلك بجسارة المحارب .

ـــ ليلى مختوم بالوحشة ، أوشك أن يتفسخ بالعزلة .

ـــ لا تكونى نمراً لا يحلم .. أنت امرأة رافلــة بــالتمرد ، لم تتخلين عن درعك ، وتواجهين الموت بالسكون ؟

ـــ تعبت من السفر إلى مزارات لم يعد لها وجود .

ـــ سأجعل عواطفى شلالاً يتدلى على كتفيــك ، يفتــت صخور القلق .

ـــ معجونة بشهوة الوجل ، ضائعة بــين أشجــار الوجــد السوداء .

ـــ دعينى أدفئ أطرافك التى بردت من الصمت ، وأمســح تفصدات العرق التى ولّدها الألم فوق جبينك .

ـــ كل فجر موثق بالأغلال ، كل صخرة كستها طحــالب الهجر .

ـــ البحر يقود إلى بحر ، اسبحى إلى الدفء ليسود .

ـــ استيقظت وبين يدى رأسى ، وأطلال أحلامى .

ـــ فى مكان ما حولك جزيرة تجدف إليك ، أقلعى إليــها ، تدفقى ألقاً ، انقشى قدرك فى النور بألوان وإيماءات لأناس يحبونك. ابنى قلعتك فوق تجاعيد النسيان . وانفضى عن ذاكرتك الغبــار .. اتركيــها لزخات المطر الجديدة ، وومضات البرق التى حتماً ستخز المدفأة وتهيئــها لبراد قهوة .. وبخار نستنشق عبيره معاً..

رعدت أجنحة العصافير الخضراء ، فى سماء المنتهى . أزاحت الرمادى من نبضات الفجر ، واخترقت الغيوم الكاذبة التى ملأت ذلك الصباح ، الذى لا يريد الانبلاج . نفثت بقوة زفيرها آهة صيف ساخنة ، ثم سادت صفحة السماء فى جلال ورهبة ، ألهبت الأفئدة . رفعت الفلاحات رؤوسهن المتكسرة نحو السماء ، يائسات ، وصلب الآباء أعوادهم التى انكسرت تحت رحى الهزيمة، اقتلعوا أنفسهم من الدور اقتلاعاً ، يدفعهم هذا التوق الوحشى للحنين ، ويكبلهم خزى فعل لم يقوموا به . تأرجحوا كأنهم غير ذاهبين للقاء الأحبة . لم يصدقوا أن تتخلق العصافير بهذه السرعة من الدم الحى الساخن ، المسكوب على طول البلاد ، كيف تركته رمال سيناء العطشى دائماً ينهض . للمرة الأولى تحفزت الأمهات بحق ، رفضن أن يتحول الأبناء إلى عصافير مثل سائر الأمهات من قبل . كن قد وطّنّ أنفسهن على انتهاء مجازر الشباب، تصورن أنه لا توجد فى العالم الآن قوة قادرة على الفتك بهم . راح ذاك الزمان وولّى ، كيف يعود ؟

تطلعوا جميعاً إلى عيون العصافير مندهشين ، غير مصدقين ، مترددين فى رفع الأيدى ، لا يفهمون ما حدث . مازالوا تحت رحمة سرعة النصل الحاد . قالوا فى صوت واحد تردد صداه :

كيف ؟!

ترنحت العصافير ، وهى تحاول أن تخفى مناقيرها بريشها الناعم . اكتشف الأهل كم أن الأجنحة قوية ، تشبه السواعد التى تحمل الفؤوس تحت لهيب الشمس الحارقة فى أبيب وتوت ، وتعزق الأرض فى برد طوبة. سدوا أنوفهم بقوة لا تناسب أجسادهم الصغيرة، محاولين ألا يغمضوا عيونهم . تلفت الفلاحون باحثين عن السبب ، محاولين أن يفهموا ما يحدث ، أرادوا السؤال إن كانت ريح كريهة تهب فوق القرية تخنق العصافير ، وهم لا يشمونها . تسمروا فى أماكنهم وما استطاعوا السؤال ، زعقت العصافير :

رائحة عفن .. الفساد يعشش بينكم ، الزرع لا يترعرع فى أرض لا يقلبها صاحبها ، ويفتح قلبها للشمس . طهروا البلاد.. طهروا البلاد .

كانت المنتهى قد طلت زجاج نوافذها بـــالزهرة الزرقـــاء ، ورصت أجولة الرمال أمام فتحات البيوت الضيقة . دخل الليل بســـرعة لم يعتدها أهلهـــا الذين عشقوا النور ، وتعلموا الجلوس أمام الـــدور فى ضـــوء الكهرباء، يتســـامرون ، ويلعبون السيجة ، ويحكـــون قصـــص الزمن القديم ، ويحلمون مطمئنين إلى القادم المبهر. عرفوا أسماء بلاد مـــا سمعـــوا بها أبداً تتحرر وتثور على ذل طويل المدى . فرحوا لها كـــأنهم أبناء عمومة . اتسعت رقعة العالم فى خيالهم ، ورأوهـــا علـــى شاشـــة التليفزيون فى الساحة ، وحفظوا خطابات الزعيم التى تبشرهـــم بوطـــن كبير، يتنقلون خلاله بحرية من المغرب إلى الشام .

ليل خبيث ، كسر النفوس ، حاول أن يعيدهم إلى المـــاضى. لكنهم حتى ما استطاعوا إحلال السؤال الذى بلا إجابة محـــل الحلـــم.. تغيرت القرية كثيراً . غاب الشباب فى الجبهة التى لا يعرف معظمهم أين حـــدودها ، وفرضت أسماء مدن القناة نفسها على صباحهم بأهلها الذين وصلوا فى البداية بأعداد قليلة ، وسكنوا تخشيبة المضيفة . استوعبت القرية مشاكلهم ، وساعدتهم على حلها، لكن معظمهم تركوهـــا بســـرعة إلى مدن أكبر ، ثم فوجئت المنتهى بهم يتوافدون عليها فى حالة بائســـة إثـــر

ضرب معمل تكرير السويس بالقنابل . أخرج الفلاحون من دورهم كل ما يستر هذه العائلات التى وجدت نفسها مكومةً بـالعشرات فى بناء واحد ، فى التخشيبات أو المدارس التى أخليت، وبعضهم سكن الساحة الشعبية. نظرت القرية إليهم بعطف مشوب بحذر .

قال طه المصيلحى لأهله : هؤلاء تجوز عليهم الصَّدقة مهما علا شأنهم ، هذه كربة المؤمن التى يمتحن بها ..

التفت إلى الأبناء :

ـــ دبروا لهم عملاً ، ولا تكتفوا بمساعدة مالية ، تنسوهم بعدها . لا تدفعوهم إلى الذل ثم إلى الجريمة .

تساءلت نساء المنتهى :

ـــ كيف تنام البنات مع الصبيان الغرباء فى ساحة واحدة ، لا يفصلهن عنهم سوى ملاءات قماش .

فتشوا فى البيوت عن ألواح الصاج ، وأفرخ الكرتون ، وصناديق الشاى الخشبية ، وبنوا معاً سواتر هشة .

فتح الدوار أبوابه لعدد من العائلات ، نصبوا لهم خياماً واسعةً فى إسطبلات الخيل الفارغة إلا من عدد محدود . طلبت وديدة وسط حزنها على استشهاد ابنها عبد الحميد أن يختاروا الأسر التى رحل عائلها بحثاً عن عمل ، وأردفت :

ـــ آتونى بالبنات .

تمكن عبد الله من العثور على عمل لعدد من الرجال فى شركة مقاولات الوادى ، ورحلوا معه تاركين الأهل ينتظرون ، فى طابور المساكن الشعبية ، الذى أصبح شغلهم الشاغل ، كل يوم للحديث فيه.

انتعشت الحياة أمام الساحة الشعبية ، وازدحمت . نصبت نساء المهاجرين مناشر خشبية لأكوام الغسيل تحت الشمس ، على حافة النهر الذى استبدلوا البحر به . وعرفت المنتهى للمرة الأولى حكايات الصيادين عن البحر الكبير ، والأمواج العالية ، والعواصف ، وأيضاً الرزق، والتفوا معاً حول راكية النار فى ليالى الشتاء الباردة ، التى امتدت لسنوات ، يستمعون إلى السمسمية وأغانى البمبوطية . ورأوا البنات يرتدين زياً قصيراً مشجراً بورود فاقعة اللون ، يظهر من تحتها بنطلون قصير ، ضيق ، جميل . تأملوا الاختلاف ، ثم قبلوه فى النهاية مرتاحين. انتشرت ماكينات الخياطة والتريكو ، وراحت البنات يعلمن الفلاحات أشغال الإبرة، واستحدث المهاجرون فى القرية فصولاً خاصة لتعليم فنون التطريز، راحت إليها البنات بعد المدرسة نظير قروش قليلة ، وأحيانا أرغفة خبز ، أو مكاييل ذرة أو قمح . وعرفت المنتهى ، للمرة الأولى فى حياتها ، بيع اللبن ، الذى كان يتنقل مجاناً بين بيوتها قبل التهجير، إذ لم تستطع المنتهى إمداد هذه الأعداد الغفيرة من المهاجرين باللبن ــ الذى يتحول الفائض منه إلى جبن ورياع ــ مجاناً . عرف الفلاحون أيضاً قصص الشباب البعيد ، وانتشرت أسماء المجندين بينهم ، وانتظرتهم المنتهى فى العطلات كما تنتظر أبناءها .

دبر عدد من المهاجرين أعمالاً ناجحةً فى القريـــة ، افتتـــح أحدهم متجراً واسعاً نقل إليه البضائع من الأسواق البعيدة ، وبنى آخـــر مركباً شراعياً نقل به المسافرين القادمين من وإلى الســـكة الحديـــد ، ثم اشتهر فى القرية عم خليل الذى بنى صندلاً كبيراً استقر أمام الســـاحة الشعبية ، نقل به الناس إلى قرية مسيس المقابلة . اكتشـــف الفلاحـــون كم أن مسيس قريبةً ، وكانوا يقطعون مسافة كبيرة حتى العيون ، ليعبروا الجسر، ثم يعودون فى الطريق المقابل ، لكنهم لم يكتشفوا الحل من قبـــل على بساطته . انتعشت التجارة أمام الساحة ، وظهر سوق جديد ارتادته القرى المجاورة لمسيس على الضفة الأخرى من النهر ، وســـرعان مـــا تغيرت خريطة المنتهى، وبنيت على عجل محلات صغيرة بجوار الســـاحة، أطلقوا عليها محلات السويس .

تحول عم خليل إلى مدير لشئون المهاجرين . كان نحيفـــاً ، صلب البنيان ، يميل إلى القصر ، له ملامح دقيقة ، وعيون صغيرة عسلية عميقة النظرة ، وشعر أكرد بنى ، وجلد جففته الشمس فى المدى الواسع، ولـــونه البحر بسمار "قادح" ، يتكئ على قدمه اليسرى بعرج خفيـــف إثر إصابة قديمة فى حرب ١٩٥٦ . اعتاد العمل منذ بنى صندلـــه عنـــد شروق الشمس ، وحتى موعد وصول آخر قطار يمر بالمنتهى ـــ بعدهـــا. ينشر شباك الصيد على امتداد الشاطئ ، ويجمعها عند الفجـــر ، لتـــدور نساء المهاجرين بالأسماك الصغيرة على البيوت ، ويبعنها للفلاحات .

هشت المنتهى أصوات الاستغاثة التى تطرق بابها من آذانهـــا، واستسلمت للنوم . لكن الزئير الذى بدا أول الأمر غاضباً كأنه صـــوت

وحش هائج وقع فريسة مصيدة ، ما اعتراه التعب ، فأرسل صفيراً مستكيناً سرى مع نسيم الليل الذى جثم على المنتهى بعد الغروب مباشرة، وطرق أبواباً ففتحت له ، وهى تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. تقلقلت الأسِرَّة تحت حركة الناعسين ، القاعدين من النوم فجأة، ووخزت أعواد الساس [٦] أجساد المتعبين فوق قباب الأفران ، وطرحتهم أرضا . فتحوا الأبواب وهم يرتجفون بخليط من الخوف والألم. اكتشفوا جميعاً ، فى لحظة واحدة ، أنها حقيقة ، وليست وهماً . تشاوروا على عتبات البيوت، والصوت الذى أوضحه صفاء السكون يشير إلى النهر .

ـــ حصان ؟

ـــ ليس صهيلاً !

ـــ ذئب فرمته عجلات القطار ؟!

ـــ لا يمر قطار الساعة .

ـــ مؤكد ذئب مجروح .

ـــ تغير الآن ..

تقدموا ناحية النهر الذى لم يظهر لونه ، بل عكس سواد الليل القاتم ، وارتعش بترددات الصوت كأنه قيثارة ربانية ، تعزف لحناً جنائزياً فى الفضاء الواسع ، استسلموا له مندهشين ، سكنوا، ملتصقة

---

٦) الساس : هو جريد النخل بعد تفكيكه إلى أعواد رفيعة ويستعمل فى الحاشية الفقيرة .

أجسادهم يحاولون الاحتباء من برد الفجر الذى أوشك أن يهل . صـــاح ديك مغامر ، أيقظته الجلبة المفاجئة :

كوكو كوكووووو

انتبهوا ، وقرروا الرحيل إليه . مشوا فى طريق المعاهدة الذى يوصل إلى محطة القطار ، لاحظوا جماعة المهاجرين عند باب الســـاحة ، دعوهم للانضمام ، انفتحت الدور أمامهم ، واستقبلوا المتدفقـــين منـــها رجالاً ونساءً وأطفالاً . حملوا فوانيس صغيرة ، ومشـــاعل ، وفؤوســاً دفعهم الخوف لحملها ، ومن ورائهم الخفر ببنادقهم الخالية من الرصاص . تبادلـــوا النظر دون كلام ، وهم يلاحظون خفوت الصـــوت ، كلمـــا اقتربوا من مصدره . اهترأ وسط التعب ، وراح ينازع اللحظات الأخيرة. هرولوا رافعين المشاعل أمام العيون، وجدوه والصبح يشق السماء ، تطلع إليهم بعيون اليأس .

قال عم خليل : لا تخافوا .. أغلقوا أبواب العيون كلها ..

تجمعوا فى مراكب صغيرة ، ودفعوه بقوة حتى خـــرج مـــن العين، التى انحشر بين جانبيها ، وجروه بشباك الصيادين إلى الشـــاطئ . غاصـــوا فى الماء حوله ، وقد تخلصوا من الرهبة ، وتحسسوا جلده الأسود الذى يبرق بالقصب ، مع خيوط الشمس الأولى . ربتوا فوق ظـــهره ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وظل ابتسامة يزحف . رأوهـــا ، وأقســم بعضهم أنه تبادلها معهم ـــ ظل زحف على الوجه الغريب لكائن مائى لم يروا مثله من قبل .

قالوا وجلين : سمكة!!

أجاب عم خليل بهدوء : نعم ، لم ينسنا البحر . هو حلال، لكنه يحتاج إلى تجهيز .

جروه وراء مركب كبير حتى رسوا أمام الدور ، وانشغلت نساء المهاجرين بسلخ جلده ، والرد على أسئلة الفلاحات عن كيفية طهوه ، وعم خليل يقطع بسكينه شرائح كثيرة ، قضوا نهارهم فى توزيعها. وعند المغارب التفت كل الدور حول طبالى العشاء أمام صوانى الطعام ، وتذوقوا "صيادية" سويسى "معتبرة" محشوة بالبهارات، والكسبرة ، وسمك مدفون فى طواجن الأرز ، قالوا إنهم لم يذوقوا مثل حلاوتها .

وترددت فى التخشيبات أغان هادئة ، لها رنين حزين ، تستجدى الغد ، وتغازل سؤالاً كبيراً عن العودة إلى الوطن ، يراوغها ويهرب ، ويستحلب مع رحيله دموعاً تود لو ولدت مرتاحةً فوق الخدود، تغزل الصبر مع الكلمات التى تسبح فوق قطرات النغم المنهمرة من السمسمية

يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى
أستشهد تحتك وتعيشى إنتى

يابيوت السويس

جلس محمود فى "الشكمة" ، فى نفس المكان الـــذى شـــهد شيخوخة أبيه الشيخ طه المصيلحى ، يستجمع ذاكرته ، ويستنشق عبير ما بعد المطر . علمته الحركة فى طول البلاد وعرضها أن لكل أرض رائحـــةً مختلفةً تبثها مع أول زخات الماء ، تخفت فى الصحارى لكـــــن المجـــرب يحسها.

هل يأتى يوم أستطيع فيه أن أجمع الأثر بالصورة ؟ أن ألملـــم الشتات فأصـــل إلى الحقيقة ؟ تعاقبت الأيام، والغزل مهلهل ، والخلايـــا التى أبصرها أحياناً حيةً تراوغنى ، كأنها فقاعة . ماذا فى حياة هذا الإنسان ليرفض الحياة ؟ حتى الآن ، ما قرأته وما تذكرتـــه لا يعـــدو أن يكـــون مشاكل طبيعية ، لرجل عملى جداً ، فمن أين جاء الوجع ؟

تنفس الهدوء ، وترك لعقله فرصة راحة اكتسبها من قراءاتـــه الكثيرة لليوجا ، لكنه فى هذه اللحظة لم يكن يعرف لماذا يفعل ذلك .

فى الصباح عاد نشطاً إلى أوراقه .

كنت وزملائى نعرف نقاط ضعفنـــا ، لكننـــا لم نتصـــور، وللحظة واحدة ، أنها ستؤدى بنا إلى الهزيمة . كبرت نقاط الضعف أمـــام أعيننا ، وتضخمت ، وازداد إحساسنا بضرورة التغيير مـــن الجـــذور ،

وإعادة البناء . كان تفكيرنا جماعياً ، وشعورنا جماعياً ، وحتى الحزن والانفراد والعزلة ، فيه بعض من الآخر ، اتخذنا قراراً فورياً بالعودة من البعثة ، وحالت ظروف الطيران دون تنفيذه . ضغطنا بشدة حتى يدبروا لنا السفر فى أسرع وقت، وأنذرنا بالاستعداد للرحيل ، وتأجل الموعد أكثر من مرة حتى انتهت الحرب ، واستمرت الدورة .

أرهقتنى الأخبار ، شعرت بها غرباناً تقتات من جرحى الحى، سأحتمل ، ولن أترك الحقائق تنزلق بعيداً عن السكين . يجب أن أواجه أول الأسئلة :

من المسئول ؟

وأن أكون شجاعاً ، لكى أعترف أننى أحد المسئولين عن الهزيمة ، أنا محمود المصيلحى ، مدرس التكتيك ، لمدة أربع سنوات متتالية، فى الكلية الحربية . تخرج من تحت يدى أربعة آلاف ضابط ، هم قادة الفصائل فى الحرب . درست لهم التكتيك ، ودخلوا الاختبار العملى وسقطوا . فمن السبب ؟ لن أهرب من مسئوليتى ، حتى لو لم أكن موجوداً فى مصر وقت الحرب . ويجب أن أحقق فى هذا الأمر بنفسى ، وأن أعالج الخطأ ، إذا كانت هناك فرصة للمشاركة فى إعادة البناء .

عرفت يوم ٩ يونيو أن جمال عبد الناصر سيخطب فى السادسة مساءً . خرجت من مبنى الكلية ، وكنا نسكن أحد مبانيها ، همت فى الشوارع محبطاً وغاضباً ، لا أريد أن أسمع ماذا يقول . احتلت الأسئلة السكينة ، حفرت خنادق فى القلب والعقل، سكنها الشك . كيف استحال الماء حريقاً ، والوطن خجلاً ، حلماً فى أول النهار ، قبراً

فى أول الليل . عدت فى الثامنة فلم أجد فى البناء لا الضباط المصريين ولا ضباط العالم الثالث ، خرجوا جميعا . توجست ، وذهبت إلى اليوزباشي الروسية لأسألها عما حدث :

ــ أين الجميع ؟

قالت فى دهشة : ألا تعرف ؟! إلى السفارة المصرية .

عادوا معاً ، وسألونى غير مصدقين : لماذا لم تأت ؟ كل أبناء العالم الثالث الموجودين فى موسكو ذهبوا إلى السفارة . مظاهرة لم تشهدها العاصمة إلا فى أيام الثورة البلشفية .

قلت يائساً من كل شيء ، وأنا أسمعهم يتحدثون عن التنحي، وهم متحمسون للإبقاء على الرئيس : إذا لم يكن فى مصر غير جمال عبد الناصر واحد ، فهى لا تستحقه .

تصاعدت الأصوات حولى تجار بأنه ليس وقت العتاب ، قلت : ليس عتاباً . لقد آمنت أننا كلنا جمال عبد الناصر . أشعر الآن أنه كان مجرد شعار صدقناه ، وكان يجب أن نكونه .

حاولت الانسحاب والاختلاء بنفسى ، لكن الصوماليين انفعلوا بكلماتى ، واحتدم النقاش مع الباكستانيين والهنود والأفغان. دافعوا عن عبد الناصر بشراسة ، رغم أننا كنا نتحدث لغةً واحدةً ، وكنت مقتنعاً بما قالوا ، لكننى كنت خائفاً جداً من الاعتماد على الفرد ، ومن الارتباط الشديد به ، فسألتهم غاضباً :

ـــ ماذا إذا غاب ؟

ـــ كلنا هو .

ـــ يا خوفى أن ننفرط !!

لم يكن هذا الرأى مناسباً بأية حال فى وقت التيار فيه بعيـــد كل البعد عن الواقع ، طالت المناقشات حتى الصباح .

قضيت أيامى محبطاً ، وحزيناً ، ومصممـــاً علـــى ضـــرورة الخروج من هذا المـــأزق بالعودة إلى مصـــر ، حـــتى جاءتنـــا أوامـــر باستمرار الدراسة إلى أن انقطعت بعد ثمانية أشـــهر وعدنـــا ، بعـــد أن علمت متأخراً باستشهاد أخى عبد الحميد فى الأيام الأولى للحرب.

بحث فى الأوراق التالية عما كتبه عن عبـــد الحميـــد ، مـــر بالعودة ، والاســـتتراف ، وحتى ميلاد سمير ، دون أن يعى شـــيئاً . بعد دقائق كان قد أدرك أنه لم يخط حرفاً واحداً عن مشاعره تجاه اســـتشهاد أخيه .

شاهد حركة أحد خيوط الحوصلة ، التى أتقن تكفينها بعناية فائقة فى بئره ، يخز القلب مباشرةً .

الآن أعرف أن المرارة أكبر من التعبير عنها . أستطيع أن أتتبع أول خيط ، وأن أفصله عن الشبكة التى تعقدت ، وأن أخرجه إلى النور!!

لم ينم ليلته ، ولا ذاق طعاماً . لاحظت وديـــدة شـــروده ، وعودته إلى حالته الأولى بعد الحادث . أدركت أنه مس أحد الجـــراح . ربتت فوق كتفه :

ـــ عبد الحميد يا محمود ؟

ـــ لا بأس .

خرج إلى الفضاء من أول النهار ، انتظرته بصبر ، وجلست قبالته ساعات . وتكرر هذا لأيام طويلة ، لا تنطق ، تصارع لهفتها على إعادته إلى ما كان قد وصل إليه ، وحزنها الذى طغى فوق اللجة ، وقلق المواجع كلها . هى الراضية بقسمتها ونصيبها من الحياة ، المدركة لصيرورتها ، الآن لا تريد من الدنيا إلا استعادته . تذكرت رغبته فى رؤية سمير ، وفكرت أن تطرح عليه اقتراحاً باستدعائه . صافى لن ترفض لها طلباً ، أم أن الأوان لم يأت بالفعل ؟ اتخذت قرارها ، واتصلت بابنتها قمر ، فأجابها زوجها فريد شوكت بأنه سيذهب بنفسه إلى صافى .

فى المساء ، حين حملت إليه صينية قهوة ، قال لها :

ـــ لا تتعجلى يا نينا ، لا أريد سمير الآن .

لم يرمش لها جفن ، ولا سألت نفسها من أين علم . كانت تعرف هذه الطاقة فى عائلتها . قامت إلى التليفون ، وألغت ما اتفقت عليه مع فريد شوكت ، ونامت مرتاحةً لأول مرة منذ شعرت بانتكاس حالته ، وسهر هو يفكر فى سؤال واحد :

ـــ ما فائدة جلد الذات بالسياط ؟

الشىء الوحيد المنطقى هنا ، هو أن أعرف ما يخفى هذا الصدر .

قضى أطفال عائلة المصيلحى صباحهم كله جالسين تحت التوتة ، أمام السلاحليك الفارغ من الذخيرة يخططون ، كيف يخرجون محمود عن صمته الذى زاد بشدة فى الشهر الأخير ، حتى أنه اعتزل لقاء أخوته باستثناء غداء الجمعة معهم بعد الصلاة ، ثم يلوذ بغرفته . وصلوا كالعادة يوم الخميس مع عائلاتهم ، وانطلقوا إلى الغيطان مع أول إشراقة شمس ، لكن شمس أمشير المضطربة أعادتهم مع أول وخزة برد ولفحة ريح ، إلى خميلة الشاطئ ، فتحصنوا بالجدران . رسم هانى الطريق من "الشكمة" حتى الحرملك فى خطوط على الأرض مستخدماً فرع شجرة .

قال إسلام : غداؤه فى الواحدة تماما . يحتاج إلى خمس دقائق كى يصل إلى نينا وديدة . لم يبق لنا إلا القليل ، هيا نتخذ مواقعنا .

دخلوا الدوار من باب الزريبة الخلفى ، حتى يتجنبوه ، اعتلوا سطح مخازن الغلال ، واختفوا خلف حزم الحطب ، محتملين وخزاته ، محافظين على السكون المستحيل وسط هشاشة أغصان القطن الجافة .

أعطى علاء من فوق سطح الفيلا الإشارة الأولى ، حين عبر محمود درجات الشكمة ، متجهاً إلى الرواق . وصل التحفز بين المتربصين إلى أعلى درجة ، طقطقت أجسامهم الصغيرة تحت رحى الإثارة .

جذب هانى حبلاً ، فوقعت قوالب طوب ، على بعد خطوة واحدة من محمود ، محدثةً ضجيجاً وغباراً ، فرفـع عينيـه إلى أعلـى ، ولاحظ رعشة الحطب ، وخشخشة تكسر فروعه ، واهتزاز ظل مـا فى الناحية الأخرى . ركـن فتافيت الطمى ، المتناثرة من الطـوب اللـبن بجـوار الحائط ، ومضى فى طريقه كأن شيئاً لم يكن، ثم انحرف فجأةً ، واحتمى بالجدار الجانبى الذى يفصل المخازن عن الرواق قبل أن يعبر بوابة الحرملك ، وتجنب بهذه الحركة المفاجئة بنور المانجو التى انهـالت مـن السماء . عبرها ودخل إلى الحوش ، وانضم بهدوء إلى العائلة ، واختفـى وسط طنين الإعداد للطعام .

لاحظ فرحة أمه بوجود ليلى زوجة أخيه الشهيد . تذكر أن عبد الحميد لم يتزوج ليلى إلا لشهور قليلة ، رحل بعدها ، تاركاً عـلاء جنيناً فى بطنها ، "ما أجمل روحك يا ليلى ، كأنك ولدت هنا ، وعشت حياتك كلها ، وكأنك أنت وليس علاء الامتداد الحقيقى لعبد الحميد" . تذكر سمير ، وهز رأسه .

قالت وديدة لابنتها بنورة : تنقصنا نازلى يا حبة عينى . دائماً غائبة ، رضينا ببعد كوثر ، ولا حيلة لنا فى الغربة . متى يفرجها ربنا على نازلى ، ويرضى الدكتور موسى أن تأتى لقضاء الأجازة معنا ؟

قالت بنورة : أعيد عليك كلمات أبي يرحمه الله .. اتركيها لحياتها ونصيبها يا نينا .

قالت وديدة : نصيب!

اكتملت العائلة ، وتحلقوا حول الصوانى ، واتخذ محمود مكانه بجوار هانى ، الذى بوغت حين رآه يقترب منه بهدوء ويقول بصوت منخفض :

ــ لا تبعثر هداياك بهذه الطريقة .

تلعثم الصبى ، وهو ينظر بخوف ناحية أمه ليرى إن كانت تلاحظ الحوار الدائر ، ثم سأل محمود بصوت خافت :

ــ أنا ؟

أجاب محمود : لا بأس .

أقسم الأولاد أن محمود كامل القوى ، وأنه لا يرغب فى الحديث معهم ، وأن ذاكرته وملاحظاته أكبر كثيراً مما يعتقد الجميع .

عدت إلى مصر ، وعينت رئيساً لعمليات فرقة . حرصت على سؤال كل من أعرفه عن الحرب : أين كان ؟ وماذا رأى ؟ وكيف تصرف ؟ لم ترحني الإجابة ، فقد اكتشفت أن أغلبهم لم ير العدو ، أو يصله أمر بالانسحاب . لم أعف القيادة من المسئولية، لكنى تأكدت فى نفس الوقت أن المسئولية عامة . ولهذا قررت أن أركز على معالجة هذا الخطأ أثناء إعداد الضباط لمواجهة الحرب ، وأن أحرص فى نفس الوقت على صافى، التى قابلتنى برغبة حقيقية فى مواصلة الحياة معى . غرقت فى دوامة مشروعات الفرقة، من السادسة صباحاً حتى الثالثة من صباح اليوم التالى ، وفاجأتنى صافى بحملها . أعترف أننى فرحت لها بشدة ، أكثر من فرحى لنفسى ، بالامتداد فى آخر . ومع ذلك ، لم أستطع أن أرعاها رعايةً كافيةً ، لأن الهزيمة تدفع بنا إما إلى النصر، أو إلى الموت . وكنت مصمماً على أن أهب ابنى ، القادم بعد شهور ، حياةً حرةً ، وهو ما قصر حياتى على الوجود فى المعسكرات ، بين الجنود .

نُقِلَتْ الفرقة إلى السويس ، فى أكتوبر ، بعد أيام من معركة المدابح ــ أول اشتباك بالمدفعية عبر قناة السويس ــ وتهيأنا نفسيًا وعمليًا للدخول فى الاشتباكات مع العدو بعنف ، لكن الظروف تغيرت خلال

ساعات بعد أن ضربت إسرائيل مخازن البترول فى الزيتيـــة ، ثم نســفت محولات الكهرباء ، فى نجع حمادى ، وأصبحنا فى حاجة إلى هدوء يتيــح إصلاح المحولات ، وتوفير موارد البترول. رزقت بابنى الوحيد سمير ، وأنا أتمزع بين السكون الجبرى ، الذى نعيشه ، والذى استغلته إسرائيل لبنـــاء خط بارليف، والقلق الذى يرعى بين الضباط ، والذى تحول إلى خطــط لتـــدمير دشم العدو . عرضت على قائد الجيـــش ، فوافـــق عليـــها ، وعممت على القوات المسلحة ، وبدأنا التنفيذ فى ٧ مارس ١٩٦٩ . وفى اليوم التالى ، استشهد عبد المنعم رياض .

.. ..

.. ..

ما حدث فى الجيش المصرى ، بسبب هذا الاســـتشهاد ، لا يمكن التعليق عليه .

نعم ، لا يمكن التعليق عليه ، فالجرح ما زال غائراً رغم مرور كل هذه السنوات .

هكذا ردد محمود الكلمات بصوت عال ، وهو يستعيد الأثر للمرة الأولى ، الأثر الذى كان يبحث عنه ، فى الصورة التى يقرأها .

نجح الألم فيما فشلت فيه العناصر الأخرى . الألم الذى دفع عقله دفعاً للصيام ، كما اكتشف ذات يوم .

حولنا الغضب لعمل وتدريب ، واستغرقتنى وزملائى دراسة العدو تماماً . جمعنا معلوماتنا عن نظامه فى الضـــرب ، وردود أفعالــه ، وحجم الضرب الذى يوجهه لنا ، لكى نخسر شهيداً أو جريحاً ، ونــوع

السلاح المستخدم . فحصنا القنابل التى لم تنفجر ، وفحصنا شظايا القنابل المنفجرة . درسنا أماكن هجومه ، وحللنا ملاحظاتنا ، وبنينا خططنا فى الهجوم والدفاع بناءً عليها . لهذا ، نجحت خطوات الرد عليه ، وإصابته فى كل مرة . إذ لم أشجع تبادل الضرب حين يهاجمنا ، بل كنت أختار هدفاً معيناً ، أقدِّر وجود تركيز كبير للعدو فيه ، وأحشد ضده أكبر عدد من الأسلحة ، ونضربه جميعاً ، فى وقت واحد، بحيث لا يعرف من أين يُضرَب ، وتنتهى مهمتنا بهذه الضربة .

تعلمت الكثير من الصحراء ، وأنا أتأملها ، فى تقلباتها المختلفة ، جلست فوق تبابها الرملية ، أتابع تمددها أمامى بلا نهاية، بلا عتمة ، تكشف لى عريها بلا خجل .. سماء جرداء بلا سحب ، تلسع الهواء فيرتفع قليلاً فى خيوط تنتفخ ، شفافةً ، لكنها مجسمة ، مثل زجاج أو مرايا حية مراوغة . تسربت مع الرمال إلى مواطن أسرارها ، وناجيتها:

ـــ تجاهلناك زمنا ، فحقت علينا الغربة ، وحق القصاص ، والانتظار على عتبتك للسماح بالدخول .

ـــ تكلم من؟ تكلم الصحراء؟ أم نحن؟

ـــ الصحراء ، بمنطقها ، بمنطق أسرار العذراء ، يكون اختباؤنا، ويكون تربصنا بالأعداء ، ويكون وجودنا، بقاؤنا أحياء..

أما نحن ، فأعترف أن الصحراء دلتنى إلى مفتاح فهمها ، وإلى التسامح مع ما فعلناه بأنفسنا . علمتنى الصحراء أن أقبل الكائنات بشروطها هى لا بشروطى ، وأن أقترب منها بالقدر الذى يسمح به تكوينها هى ، لا ما تخيلناه عنها . أعرف أن الوقت قد فات لهذا الدرس،

لأنني لن أستعيدك يا نهى ، ولن أقترب منك ، بأى حال ، لكن وقت التعلم لا ينتهى أبداً .

صدرت أوامر للفرقة بترك موقعها ، والعودة للتدريب على اقتحام المانع المائى ليلاً ، واحتلال رأس كوبرى ، وعمل مشروعات فى الفرقة ، وأخرى فى اللواءات ، وإعداد للموقع الابتدائى للهجوم ، فى أربعة أشهر ، وحتى أكتوبر .

لاحظ فضاء الغرفة المعبأ بالدخان ، والإضاءة المخنوقة أمامه. قام بفتح النافذة ليجدد الهواء ، اصطدم بدوامات الريح التى هاجمته بضراوة ، تريد منفذاً للدخول ، فأغلق النافذة بسرعة ، وعاد إلى قهوته وسجائره ، وأوراقه التى اعتلاها الذبول من شدة ضغطه عليها وهو يقلبها. شعر بها دافئة .

كانت مشكلتنا فى هذا الوقت ، هى الزمن ، والصراع معه. أخبرنى قائد الفرقة أن ما لن نستطيع تغطيته الآن ، لن نستطيع تغطيته بعد ذلك . وكانت مشكلة الساتر الترابى تمثل عبئاً على تدريبنا ، إذ اكتشفنا أن أول دبابة لن تعبر القناة قبل ست ساعات من الحركة الفعلية، وتدربنا على هذا الأساس فى مشروعاتنا . بعدها ، استدعانى رئيس هيئة تدريب القوات المسلحة وأخبرنى أن الفريق فوزى أبلغه بضرورة التزامنا بالمعدلات التى وضعتها القوات المسلحة ، وأن مشكلة الساتر الترابى ستحلها القيادة العامة ، فنياً ، وتكتيكياً ، قبل بدء الهجوم ، واستمرت الفرقة تصارع الوقت .

فى الصيف ، قدم لنا المهندس باقى زكى يوسف ، رئيس مركبات الفرقة ، وكان يعمل من قبل مهندساً فى السد العالى ، فكرة مدافع الماء ، لاختراق الساتر الترابى ، التى استقاها من خبرته فى العمل فى السد . شرح قائد الفرقة الاقتراح فى الاجتماع الأسبوعى للقادة مع جمال عبد الناصر ، فأمر بدراسته ، وبدأت العجلة تدور ، ورآها الرئيس بنفسه، ورأيتها على الواقع بعد ذلك بسنتين ، فى يناير ١٩٧٢ .

انشغلنا فى الإعداد للموقع الابتدائى للهجوم ، وكلنا أمل أن يبدأ . لكن ما حدث غير كل الأوضاع ، إذ أغارت إسرائيل فى سبتمبر على جنوب العين السخنة ، وأنزلت عدة دبابات ، فى وقت كان جمال عبد الناصر يحضر مشروعاً غرب القاهرة ، فأصدر قراراً بتغييرات كبيرة فى القوات المسلحة ، منها رئيس الأركان ، وجاء للفرقة قائد جديد لم أتمكن من فهمه ، أو التعاون معه ، وانتهى الأمر بنقلى .

رفع رأسه عن السطور ، قائلا لنفسه بوضوح وثقة :

ــ أعرف لماذا اختلفت معه . أتذكر ذلك جيداً . كنت أعمل لمدة عشرين ساعة يومياً ، وهو يفكر فى كل الخطوات المظهرية ، يريد الخريطة ملونة ، لكن ماذا فى الخريطة ؟ لا يهم . خطة مجلدة ، ماذا فى الخطة ؟ لا يهم . اصطدمنا ، وبدأت ملاحظاته على سجائرى !

ابتسم . عاد بكرسيه إلى الوراء ، وللمرة الأولى تشهد الحجرة ضحكة مجلجلة ، قال :

ـــ طار صوابه من تدخيني أمامه ، كنت أدخن مائة وعشرين سيجارة يومياً . نقلت لأركان لواء مشاة فى منطقة بئر عديب شمال العين السخنة .

نظر إلى المطفأة المتخمة بأعقاب السجائر ، وقام يفرغـــــها ، شعر بسخونة ، رغم أنه يسمع مشاجرات رياح أمشير خارج البناء . فتح حزام "الروب" ، وحل زر قميصه الصوفى عند الرقبة.

عاينت موقعي الجديد فى بئر عديب ، سهل مخنوق بين جبال ثلاثة ، ينتهى إلى البحر . غرفة بثلاثة حوائط ، على اليمين جبل الجلالة ، وعلى اليسار جبل عتاقة ، ومن الخلف جبل وادى حَجُول . كان اللـــواء يواجه خمسين كيلو متراً ، يشكلون قلقاً للقوات المسلحة ، لأن المنطقـــة بعيدة عن القوات الرئيسية ، وفيها محطة رادار ، تسعى إسرائيل لضربها . أعددنا تنظيم القوات ، حتى نواجه كل الاحتمالات . تعرفتُ على أرضى، وصادقتها ، وكان عليّ أن أعرف أسلوب العدو ، حتى أبدأ المراوغـــة ، طالما أنى لا أبدأ الهجوم . كنت أعلم أن فى الثبات الهلاك ، وأن الصيـــاد يرصد فى فريسته الاعتياد . يتتبع خيط الخطوات التى تبدو فى غفلتها أنها الحكمة ، وقمة التخفى . وقع العدو أسير أسلوبه الثابت ، فلم يستطع أن يصيب الرادار مرةً واحدةً فى وجودى . درست طريقتـــه فى الهجـــوم ، لاحظت أنه يرسل طائرة استطلاع على ارتفاع كبير لتصور الموقع ، وبعد يومين ، وقبل آخر ضوء تأتى طائرة ثانية ، على ارتفاع أقل ، لكنـــها لا تضرب ، وفى الصباح التالى يبدأ الضرب ، فى التاسعة وخمسين دقيقة ، أو

العاشرة وخمسين دقيقة ، وهكذا ، حتى الواحدة إلا عشراً . فإذا تأخرت الطائرات عن الموعد الأخير ، لا يكون هناك هجوم .

وضعت خطةً بسيطةً :

أترك الطائرة الأولى تمر دون تغيير فى موقع القوات ، وكذلك الثانية ، وبعدها أعطى الأمر بنقل المحطة، على بعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات ، فى موقع تشغيل آخر . هكذا استطعنا أن نحافظ على المحطة، إلى أن أيقظتنا الرياح ذات يوم ، وهى تصفع التكنات بالرمال ، دوامات تدور فى الفضاء ، تحمل نباتات جافة، وبقايا أوراق ، وأشواك ، وحصى. عواء يغرى بالسكون ، والتقوقع داخل الملاجئ ، وهدير ينبئ بوصول شئ ، نذير الصحراء وصوتها ، حين يكشف عن وحشيته ، وتردده بين جنبات الجبال الثلاثة ، ثم هدوء مفاجئ ، وصمت ، تسربت خلاله أسراب من التراب الناعم ، والغبار الأصفر ، حتى انعدمت الرؤية تماماً ، وجفت الحلوق ، وارتدت الوجوه أقنعة من الأصفر الجيرى، وبدا الجنود مثل خيالات باهتة ، كائنات صحراوية حقة، وتذوقت ألسنتنا طعم الملح الذى حمله الهواء رغماً عنه . لم يكن أمامنا إلا الامتزاج بها ، والاختفاء فى رحمها العريض ، حتى تصفو ، ويهطل المطر . ومع قطراته الأولى ، التى روضت الغبار ، جاءت طائرات العدو ، وجاء لنا أمر بتغيير موقع اللواء مع لواء آخر .

كان المنطقى ، فى وجود القصف المكثف ، أن نتحرك ليلاً، بدون إضاءة ، حتى لا يكتشف أمرنا ، ونصبح لقمةً سائغةً لضرباته ، وهذا الحل معناه سرعة بطيئة ، واحتمالات حوادث . لم أوافق ،

ووضعت خطتى على أساس الحركة نهاراً ، وبأقصى سرعة على أن تنتهى حركتنا قبل يومين . تحركنا وفوقنا طائرات العدو تضرب أهدافاً أخرى ، ولا تضربنا ، وسط تخوفات من تغيير خطتها ، حتى وصلنا إلى موقعنـــــا الجديد بسلام . كنت قد درست أسلوب العدو ، وعرفت أنه يحتاج على الأقل ليومين ، للقيام برد فعل ، فإذا اكتشف أن اللواء يغـــير مكانــه ، سيحتاج إلى يومين لضربه ، ونكون نحن قد وصلنا إلى موقعنا .

استكملنا معاركنا حتى وقف إطلاق النـــار ، فى أغســطس ١٩٧٠ .

توقف عن القراءة ، وضع كفه مطبقة الأصابع تحت ذقنه :

ـ أين حدث لى التحرك ، تحت النيران ، فى غير هذا الموقع؟

فى ١٩٥٦ . نعم فى ١٩٥٦ ، حين عدت إلى السيارات التى تعطلت على الطريق ، من القاهرة إلى القناة ، وتمكنت من نجدة زملائى ، ونقلهم بالسيارات السليمة ، وطائرات الدول الثلاث المعتدية تزأر فوقنا ، ولا تضربنا فى طريقها لضرب المطارات .

رأى حادثاً آخر ، طائرات تضرب ، فوق سيارات نصــــف مصفحة، فى إحداها ، ضابط يشـــبهه تماماً، صورة مــــهتزة لطـــائرات تقصف حول السيارة ، وهو يردد الشهادتين ، ويستمر فى الحركة.

حاول أن ينقل الصورة التى أمامه إلى كلمات ، فلم يستطع. تنفس بعمق ، ومسح عينيه بأصابعه ، ثم عاد للقراءة .

أعطانا قرار وقف إطلاق النار فرصــة أكــبر للتدريـــب فى السويس ، رغم أن منطقة بئر عديب ، التى جئنا منها ، أتاحت لنا وقتها

مكاناً مثالياً ، أرض واسعة ، فيها كل ما نريد ، فلم نحتج إلى نقل القوات إلى مناطق بعيدة . ومع هذا ، مكثنا الهدوء من التوسع ، وغرقنا في التدريب ليل نهار .

حلم يتكرر ، يتلوى ، يتلون ، يراوغني ، وفي النهاية يكون أنت ، وأنا ، والأفق ..

أراني فوق رابية ، مستلقياً ، أتابع الفراغ ، تتمدد الصحراء حولي ، كوحش خرافي ، تومئ السحب لي أن أنتبه للأفق ، أراك يا نهى هناك ، على حافة التحام السماء ببدن الأرض . أركض ، أشق الصحراء إليك، أناديك ، أقترب فتبتعدين . أقطع السهول اللانهائية ، كلما لاح أفق جديد ، تعتلين سماؤه ، والأفق يلد أفقاً آخر ، ويحملك معه ، لا أتعب، أركض أكثر ، يتملص مني الأفق، ويدبر لي مكائد الضياع ، فلا أيأس، وأستنطق إشارات الصحراء المجبولة على الصمت . أستحث رموزها وأستحلفها . تسلط قسوتها عليّ ، فأتذكر قانونها الأبدي ، وأصرخ فيها أنا ندٌّ لك . سأصل لحبيبتي ، أسير في الوديان المراوغة ، وأعتلي السفوح، دون أن أعير الريح التفاتاً ، أتدفق مع كثبان الرمل ، دون أن أتحول إلى هباء ، وأصل إلى خلاء جديد ، أراك على حافته ، يراوغني السراب ، يتغنج ثم يهرب ، حاملاً إياك على جناحيه ، فأمضي في طريقي دون كلل ، وأعرف أني ملاقيك ، وأصحو من نومي ، وأكتشف أن حلمي هذا يفاجئني حين تختفين عني ، في صحوي ، وأنشغل بالتدريبات ، ولا أجد القدرة على استدعائك.

كان طه قد شرع فى ترميم الدوار ، بعد أن وصلته موافقـــة أخوته دون إشارة واحدة لمساهمات مالية. حسب التكاليف ، فقـــرر أن يكون العمل بهدف الحفاظ على البناء الأساسى ، وتخليصه من أمـــراض الرطوبة ، والفطريات التى اعتلته، فبدا مثل كُلة [٧] مطرزة . فإذا تبقـــى بعض المـــال، امتد العمل إلى التحديدات .

نبشت أرضيات ، ودفنت مواسير الماء ، وأزيلت الطلمبة من وسط الحوش ، وأعادت الفوضى التى عاشت فيها الدار ذكرى الفيضان الذى اضطرهم ـــ ذات يوم ـــ إلى تعلية أرضيته بطبقات من التراب فوق الرخام الجميل ، فضاع بذلك إلى الأبد . أخفيت أســـلاك الكـــهرباء بمهارة عن العيون فى شرايين الحوائط ، واعتلـــت بلاطـــات القيشـــانى الحمامات ، وطليت الجدران الداخلية للدوار الخارجى بـــالزيت حـــتى منتصف المسافة للسقف، مُنهيةً بضربة فرشاة ، جمال الرسوم والنقـــوش البديعـــة التى كانت تميزه . ولولا قلة الإمكانيـــات ، الـــتى منعتـــهم فى اللحظة الأخيرة من استكمال الدهانات فوق باقى الجدران والســـقف ،

---

٧) الكُلة : هى ستارة السرير

لانتهت إلى الأبد ملامح السـقف المطعمة بنقوش الخشـب المذهـب . تركوا الثريات الخزفية التى كانت تضاء بالكيروسين فى مكانها للزينـة ، بجوار لمبات الكهرباء ، التى تدلت كعنقود صغير مختال .

زرعوا عموداً أسطوانياً من الحديد ، ينتهى إلى دعامة عرضية، وسط الحوش ، ليحمل الشرفة الداخلية التى تطل على وسط الدار ، أمام شقة حيدر ، بعد أن أعلنت عن أنينها ، وانخفضت أرضيتها . بدا العمود كائناً قبيحاً ، جرح منظر الخشب المطعم بالصدف ، والمخـرم برسـوم هندسية تنافس الدانتيل فى رقتها، وأوجد لمتولى الكلاف ، مربطاً جديداً للجاموس ، عند حلابة الفجر ، وحلابة المغرب .

أما فى الطابق الثانى ، الذى سكنه عبد الحكيم يوما ، والذى قرر طه أن يزوج ابنه إسماعيل فيه ، فاختلف الحال ؛ إذ أزيل كل ما يمت للماضى ، ونقل الأثاث إلى أماكن متفرقة ، وطليت جدرانه بالكـامل ، ونزعت ثرياته الفاخرة ، واختفى بعضها فى مخـازن الفـول ، ووجـد الأطفال ذات يوم لمبات من "السيفر" فى حظيرة المواشـى ، واحتلـت مكـانها ثريات ضعيفة من الزجاج المزيل ، تمثل آخر صيحة فى الديكور، ونُزعت الستائر القطيفة ، انتظاراً لوصول أثاث العروس الجديدة ، التى لم يتم اختيارها بعد .

قالت وديدة : اتركوا كل ما يخصنى على حاله ، واهتمـوا بشقة العريس . لكن فرشاة الجير ـ التى راحت تعبث بشقـاوة فـوق الجدران ـ التهمت صماد الأفران ، وبعثت نـوراً أبيـض مشعـاً، فى الحرملك الذى طال انتظاره للعناية . تجددت دواليب الحائط ، ودخلـت

الشمس للمرة الأولى إلى الغرفة التى تختر فيها وديدة الألبان ، وتخزن فيها المتارد الدافئة ؛ إذ غيروا النافذة التى تطل على الإسطبلات بعد أن اختفت منها الخيل ، وقربوها من حدود الرؤية ، وكانت تنفتح قرب السقف .

أنعش الطلاء المكان ، وتساءلوا فى دهشة : لماذا لم نكن نقوم بهذا الترميم ، ولو كل سنتين ؟

استمرت الفوضى شهوراً ، ودخل العمال وخرجوا ، يصفون ما رأوا فى الداخل ، بعد أن غاب جيل الآباء ، المحرم عليهم الكلام ..

رفعت حرب الاستنزاف معنوياتنا ، أثبتت لنـــا أن إجراءاتنـــا فى إعادة بناء الجيش صحيحة ، وأن استبدال الجنود غير المؤهلـــين بخريجـــى الجامعة عمل على استيعاب الأسلحة فى وقت قياسى ، وكذلـــك كـــل أنواع التدريب ، وتنفيذ الخطط الموضوعة . بروق من الحيوية بعثـــت فى أوصال الجيش القوة ، والتصميم على النصر ، ولاح لنا فى الأفـــق أننـــا نوشك على بلوغ الهدف .

تأكلنى الوحشة إلى المنتهى ، رغم أننى أستطيع أن أبنى حياة فى كل مكان أحط فيه . لا أختلف كثيراً عن البدوى ، الذى أقابلـــه أحيانـــاً ، حاملاً معسكره بالكامل فوق الجمال ، أتأمل بساطته ، وسرعة حركته ، وأراه خفيفاً ، طائراً ، يمر بالأرض ، دون أن يتجذر فيها ، عيناه علـــى البعيد دائماً . أقدر حياته ، لكنى أعشـــق المنتهى ، والفلاحين ، والثبات. أتخيل نفسى عائداً إليها يوماً ، لا أعرف كيف ؟ ربما لأن الضابط لا يبقى كثيراً فى الخدمة، وربما لأننى لم أرتبط بالمدينة أبداً .

أسعدتنى أخبار التجديدات فى الدوار ، رغم الفوضى التى عانيت منها ، فى آخر زيارة لى للأهل ، لكن يبدو أن الدوار سيصلب عوده مرةً ثانيةً ، وسيعود فتياً عما قريب ، كما كان ، "دُرَّة عائلة المصيلحى" ، على حد تعبير عبد الله ، فى خطابه الأخير لى .

أفقنا ذات صباح على وفاة عبد الناصر ..

كنت نائبا لرئيس أركان حرب اللواء ، وكان رئيس الأركان فى المستشفى ، وجدتنى مسئولا عن الحفاظ على استعداد القوات وحفظ النظام ، فى لحظة مجنونة بالمشاعر والتخبط . جاءت ضربة الفقد فأطاحت بأغلى ما يملك كل منا . ورحت أجتر الألم فى مرارة وأصرخ دون صوت، ليس فى هذا الوقت ، بعد أن اكتملت استعداداتنا ، وأصبحنا على وشك الحرب ، ليس فى هذا الوقت .

تقطر الألم بأحزان أعمارنا جميعا ، باغتيالنا الغادر فى ٥٦ ، وهزيمتنا فى ٦٧ ، بشراسة الوحوش التى تتأهب للانقضاض علينا . خبأت حزنى فى زاوية من بدنى ، وتركتها تحرق الداخل. كفنتها لأحافظ على طزاجتها ، والكفن تاريخ مسار وحياة ، وارتديت زى الجندى المسئول ، لأواجه حريق الآخرين . هستيريا وتخبط ، بين الضباط والجنود ، حالات ذهول كامل ، أصابت محسن محمود، فريد عبد المسيح ، وجابر مرعى، فقدوا النطق ، والقدرة على السمع . بكاء وصراخ ، تحول المعسكر إلى شىء أشبه بحلقة ذكر. خيالات متشابهة تنهبد على الأرض . تقوم وتقعد، كأنهم فى رقصة بدائية مجنونة ، موسيقاها الفزع ، والرعب من المستقبل .

تيتم الكبار ، وما أشد إيلام اليتـــم ، إذا كـــان الإحســـاس بالفجيعـــة للراشدين، أنهم أطفال ، فى حاجة إلى الأب . انقض الخوف علينا فجأة ، كذئب وسط قطيع من الخيول، يحيطها سور لا تســـتطيع الهـــرب مـــن قبضته. فتك بنا فى ثوان ، غاب الفارس ، احتاج كل منا إلى الإمســـاك بالشراع الذى مزقته الريح ، صدر جسمه ليغطى ألواح الخشب ، حـــتى تسير السفينة فى العاصفة ، ولا ينكسر الصارى ، أو تضيع الدفة .

أصبت فى هذه اللحظة الدامية بالتيفوئيد ، ارتفعت درجة حرارتى فلم أبال . استمر عملى ليـــل نهـــار، فى تدريبـــات تعيـــد الجنـــود إلى الصـــواب، وتدفعهم إلى مجرى الواقع . تعاقبت الشهور ، دفع الجماعـــة يمنعنى من التوقف والتأمل . تسربت خيوط خفية إلى نفسى ، شرنقتـــها باليأس ، دون أن ألحظها . احتوت أعضائى وأرسلت فيـــها الوهـــن ، فسقطت فى إعياء شديد ، ونقلت إلى المستشفى . حاصرتنى أعراض ذبحة صدرية ، ووقف قلبى فى عناد، يعلن التكذيب . أظهر الرســـم أنه سليم، ليس قلبك إذن أيها المحارب ، هو شئ آخر عليك أن تخرجه ، بدلا مـــن كتمانه فى بحرك يرعى ، ويتسلق ليخنق جذوة الحياة . احتار الأطبـــاء ، وتركونى للراحة . تقلبت على نار الإحباط ، بعضى يـــأكل بعضـــى ، هزمنى جســـدى الذى تصورته قادرا على الصمود ، تســـلحت طـــوال الحياة بإجـــادة دورى ، تاركا للقوى الأكبر مجالها ، الـــذى تـــدور فى فلكه، فماذا حدث ؟ ولماذا أدفع كل الأثمان ، لى وللآخريـــن ، دفعـــة واحدة .

اتصل بي مدير شئون الضباط ، وسألنى عن المكـــان الـــذى أود الانتقال إليه ، لأنه لا يستطيع ترك مكانى شاغرا . أخبرته أن يختار لى أى مكان فى الجبهة . عين آخر مكانى ، دون أن ينقلنى إلى أية جهة .

شهور أربعة مرت فى المستشفى . أصارع فيها آلاما غير مرئيـــة . آلام تخز الأعضاء . توجعها ، وتتركنى غير قادر على الحركـــة . ســـرح الهزال فى جسدى ، دون سبب ، أصبحت أشبه بلاعب ماراثون ، بـــذل آخر جهده ، حتى يصل إلى خط النهاية ، ثم وقع مغشيا عليه . ســـألت نفسى بإلحاح : هل هذا هو آخر شوطى ؟ هل هذا هدفى ومبتغاى ؟

رفع رأسه عن الأوراق ، وعقد كفيه ، ومدد ساعديه إلى الأمام ، فاشتد جذعه صلابة مفسحا لرئتيه استقبال دفعة حذرة من الهواء .

ليست المرة الأولى إذن أيها الجسد المتعب لمحارب عتيـــق ، ثقـــل الزمن عليك . ترصدت الروح الجراح، فحماها الجســـــد ، دخـــل إلى متاهة الألم يبحث عن نجمة تبدد انتشار الظلام ، وتمنع قضم الذاكـــرة . فكيف خرجت من هذه المتاهة ؟ وما الذى أباح ذاكرتـــى بعـــد ذلـــك للالتهام ، حتى الفضيحة ؟ وكيف خرجت منها بريئا ، صافيا كمولـــود بلا جذور ، مفرغا كحقل ذرة مباح للقوارض ؟ تأتينى أمى بـــأوراق ، ببرهان من نار ، تبيحنى للأرق فأصلى فيه ، وأصحو كل صبـــاح علـــى صورة جديدة مغايرة لكائن كلما توغلت فى معرفتـــه ، ضـــاع مـــنى . أســـفر عن عريك أيها المحارب المدهون بالصلابة ، المحفوف بـــالجراح . سنلتقى حتما ، سنلتقى ، وكما فعلت قبلا .

وقعت عيناه على صورة انفجار الشرنقة ، وخروجه إلى المــدى ، متجددا ، لدورة قادمة .

ضقت بجسدى ، ومللت الرقاد ، وكرهت البوتقة التى وجدتــنى فيها بلا مناسبة ، فقررت أن أطيح بكل الآلام ، وأن أتحرك ، وأقــاوم . زارتنى القوة ذات صباح . أزاحت الأوجاع بحنو، تسربت إلى مســامى فملأتها ، خرجت من المستشفى مصمما على العودة إلى الجبهة .

تدافعت آلاف الأفكار إلى رأسى ، غزلــت خيوطــا كثــيرة ، نسجتها، واستحال النسيج جدارا ، اتكأت عليه ، فوهــب جســمى عمرا جديدا !!

اعتدل فى كرسيه وقال بحماس :

سأصالح بعضى ، وأعبر إلى شاطئ أو غابة ، مســتنقع أو واحــة خضراء . سأعبر إلى الحياة .

اتصل بى نائب مدير شئون الضباط ، وعرض أن أعين قائدا لجناح تكتيك المشاة بالكلية الحربية . جاء ردى سريعا وحاسما بالرفض . شهور وأنا أخطط للعودة إلى الميدان ، كيف أقبل البعد عنه . حددت موعــدا للقائه فى اليوم التالى ، ثم أفقت فى مكتبه على سؤال من أحد الزملاء :

ــ أليس لك أهل ؟

وضعنى أمام مواجهة لا أريدها . وقبل أن أجيب ، قــال زميــل آخر:

ـــ هذه فرصة للبقاء فى القاهرة فترةً ترعى فيها بيتك وعائلتك .

قلت : الجبهة فى حاجة إلى جهد كل منا . أعطتنى الإجازة فرصة جادة للتفكير بهدوء .

قال صديق : جرب أن تعرفهم . ضاعت حقوقهم وسط عملك المتصل .

تلاشت كلماتى وسط تجمعهم ، وطال النقاش عن صحتى، دون أن أقبل الرضوخ لاختيارهم . قام نائب المدير نحوى قائلاً بحسم :

ـــ جرب ، وحين تشعر أنك تريد الانتقال ، تعال ، وسأنقلك فورا .

هزمت أمام إصرارهم . عدت مدرسا مرة أخرى ، كأن التدريس قدر لم أسع إليه . يتربصنى منذ تخرجت ، وحلمت بالميدان .

وضعت فى هذه الفترة من حياتى هدفا وحيدا ، نصب عينى، أن أطلق عنان تفكير الدارسين فى الجناح حتى لا يتقيدوا بقوالب جامدة . علمتنى سنوات الجبهة كيف أفجر طاقات من حولى ، ثم نقلت إلى هيئة العمليات فى القيادة ، وعملت فى مركز العمليات الرئيسى ، واشتركت فى مشروع استراتيجى كبير ، كان موضع تقدير من الجميع ، ثم جاءت المكالمة التليفونية التى كنت أنتظرها :

ـــ هل تقبل العمل كقائد لواء فى الجبهة ؟

ـــ مستعد فورا ..

نقلت إلى بور سعيد فى يناير ١٩٧٢ ، وقررت أن أزور المتسهى لأطمئن على عائلتى . دخلت القرية مبكـرا كعادتى ، فاجأنى خلوها من أهلها ، كان الجميع فى بيت أبى صالح كما حكـوا لى بعـد ذلـك ..

لاحظ أبو صالح ، وهو عائد من الجامع ، بعد صـــلاة الفجـــر ، طقطقة السواد تحت وخزات الضوء ، خطوط رفيعة من النور تهـــرب إلى السـماء ، انتبه فى الأيام الأخيرة إلى المحيط الغامض حوله فى الليل بعـــد أن اقتحمت حياته أحداث غريبة ، عرف منها أن الدنيا ليست هى مـــا نراه ، وما نفكر فيه فحسب ، ولكنها عالم أوسع مـــن خيالنـــا . قـــال بصوت خافت مراعياً السكون حوله:

ـــ يا رب العباد ، لك حكمة . أشد السواد فى لحظـــة بـــزوغ الفجر، الليل يقاوم ، رغم أنه مهزوم مهزوم .

انشغل عن الطريق بزحمة أفكاره ، حتى دخل الدار ، تنحنح وهو يفتح باب الزريبة ليأخذ الحمار الجديد الذى لم تسترح امرأتـــه لخلقتـــه الجهمة ، ونفرته التى يعلو صوتها فوق حشرجة ماكينة الطحين .

قال بصوت عال سمعه كل من فى الدار ، إلا خديجـــة ، الـــتى لم يلحظ غيابها :

ـــ استعنا على الشقا بالله .. قوم فز ، النهار طلع .

امتص الصمت كلماته ، هدوء مريب ، لم تشهده الزريبة منذ دخلها ذلك المخلوق . استراب ، وعيناه اللتان تحاولان اعتياد الظلمة اصطدمتا فجأةً بالمكان الخالى . فركهما ، وبحث عنه ، فرأى الجاموسة، راقدةً فى سلام ، وبجوارها العجل الصغير جاثياً ، وأكوام التبن فى الركن البعيد ، وسمع صوتاً وحيداً لهديل حمامة. قفز مدركاً ما حدث ، فانزلقت بطة هاربةً من قدمه فى آخر لحظة.

ـــ يا نهار اغبر ، الحمار .. الحمار هرب .. الحمار ياخديجة.

اكتشف غياب زوجته ، بعد وصول أبنائه الثلاثة فزعين من نومهم.

ـــ عملها وفط ، لكن كيف ؟ وأنا رابطه بيدى فى المساء.

سكت للحظة ، مرت بذهنه ومضة أشعلت ناراً فى جسمه، فراح يزعق ، ويضرب رأسه بيديه ، ويرتفع وينهبد ، والأطفال مُذهولون لا يفهمون شيئاً ، ويحاولون تهدئته دون جدوى .

ـــ عملتها بنت "الرفضى" .. عملتها .. ضحك عليها .. ضحك عليها !!

بكى طفله الصغير ، وأمسك بجلباب أخته ، فحملته فوق كتفها ، واستدارت تستقبل الوافدين . امتلأ باب الدار المفتوح عن آخره بالجيران، لم يمنعهم برد الفجر ، ولا نداوته ، من الوصول إلى أبى صالح ، رغم أن القرية لم تكن قد أكملت صحوها بعد . ردت النساء على استغاثته

بأصوات جلجلت مثل جرس كبير فى سماء المنتهى ، قبل أن يعرفن مـــادا يحدث . صرخات وخزت الأطفال الذين كانوا ما زالوا مدثرين بالأحرمة الصوفية ، فوق قباب الأفران . ركض الرجال ، وجاء العيال متـــأخرين على غير عاداهم فى الوصول إلى مركز الأحـــداث . تجمعـــوا فى الـــدار الصغيرة، وخارجها ، وســـألوا عن المصيبة ، فلمـــا عرفـــوا ، بهتـــوا ، وطالبوه بالحكى فى هدوء لا يناسب السعير الذى يحرقه . قـــال الرجـــل المكلوم فى حماره :

ـــ أردت اللحاق بقطار الفجر . بكرت قليلا حـــتى أصلـــى فى المحطة. كان الليل سادلا ستره على البلد، والمسافة بعيدة، وأنا أســـرع، حتى لا يفوتنى الوقت . رأيت حمارا عن بعد ، ســـألت نفســـى: مـــن الذى نوى السفر ؟ أسرعت ، وغبشة الفجر تراوحنى، وتجعله يختفى عنى، رغم أن المسافة كانت تقصر بيننا . هجمت على الدنيا بشبورة مراوغة . موجات ثقيلة تغطى ناحية ، وتكشف ناحية ، قلت "اللـــهم اســـترنا" . خفت من الوقوع فى حفرة أو زلق ، فجأة رأيته أمامى ، وحيـــدا بـــلا راكب، شئ إلهى جعلنى أتحسس المسلة فى "سيالتى"، سألت : حمار مـــن هذا ؟ تفحصته ، فلم أر علامة واحدة فى جسمه تدلنى على صاحبـــه . أعجبتنى قوته ، كان أقرب للبغال ، وهو ليس بغلا ، "جتته ملبســـة" ، والنفرة خارجة من أنفه مثل نفثة عربة العمدة ، سالكة وســـط الضباب. قلت إنه رزق أرسله الله ، وقررت أركبه ، وأقطع الطريق ، واســـتعنت على السميع العليم ، وقفزت فوقه . وقبل أن تلمس مقعدتى ظهره الخالى

من البردعة ، وأتمكن منه ، سمعت خنفرة ، ورأيت حافره يحك فى الأرض بعصبية وزرجنة .. قلت "شي يا .." لم أكمل الكلمة ، ووجدتنى أنقلب على ظهرى، فتشبثت فى آخر لحظة برقبته ، وهو طالع إلى السماء .

ردد الفلاحون مبهوتين : السماء !!

أضاف : انخلع قلبى ، فأمسكت به بكلتا يدى ، وثبت قدمى تحت بطنه ، ورحت أصرخ : أعوذ بالله ، أعوذ بالله ، وأدركت أننى وقعت فى فخ ، وصرخت فيه بقوة حتى لا يدرك خوفى وأنا أرتعش :

ـــ عملتها يا شيطان ؟

سمعته يقهقه قهقهة تهد الجبل . كأنها فرقعة رعد جمال الشتـــــاء ، وهى تركض وراء جمال الصيف .

قالوا فى نفس واحد : يا نهار أغبر ؟ .. شيطان !!

تصاعدت همهمة : اتركوا الرجل يكمل .

قال أبو صالح ، وهو مسلوب الإرادة :

ـــ وجدت السماء تنفتح أمامى ، رأيت الشفق البرتقالى عن بعد ، والدنيا فى لون الرصاص . عقلى مسجون بالخوف ، وقلـــبى انحشـــر فى بطنى، و لم أعد أعرف يدى من المركوب فى قدمـــــى، وهـــو يتلـــوى ، ويضحك حتى أقع ، لكنى قرصت على رقبته، وقلت أشوف آخرتهـــــا ، وأنا ضامن المسلة فى جيبى . المنظر من فوق طير عقلـــــى ، وســـحرنى ، نسيت الخوف ، ونسيت أنى راكب شيطانا ، وكأنى راكب فرس النبى .

كانت البلدة مثل نقش بيت واحـــد له مائة باب .. فرحت لما رأيـــت النهر يتلوى مثل خط جميل لآخر الدنيا ، والأرض الزرع فيها ، منظـــم يسبح ربه ، كأن كل عود برسيم عارف مكانه ، والشجر تماما مثل نجف قصور الباشوات . عبرت البلد فى لمحة ، أمرته أن يهدئ سرعته ، حـــتى أشاهد بيتنا من فوق ، استسلمت للعبة ، فزعق ، ورجعنى للدنيا .

ـــ أنت تأمرنى ، فاكر إنك ملكتنى ؟ طيب تعال .

زادت سرعته إلى أعلى ، وتراجعت البيوت ، وشفتها فى حجـــم النملة ، حتى وصلنا إلى السحاب .

تقلقل أهل المنتهى ، الذين اكتمل عددهم عدا المســـافر ، حـــتى المريض جاء مستندا إلى أكتاف أهله ، وسمع أبو صالح الكلمة تتردد مثل صدى الصوت :

ـــ سحاب .. تقول سحاب .. ؟ يا نهار !

قال بصوت واهن حزين :

ـــ لا تقاطعونى .. حاسس إنى انتهيت ، وموتى محقق اليوم، نعم ســـحاب ، تماما مثل القطن ، كأنى وقعت فى محلج ، نتف جميلة بيضاء ، كأنه ما شاف ترابا أبدا ، ولا شمسا غيرت نصاعته .. لكنه بارد ، بـــارد لدرجة أنى عرفت أنى متجمد بالصقيع متجمـــد . وقـــررت أن أنهـــى المســـألة كلها ، وتذكرت فى ثوان كل الحكايات التى حكاها أجدادنـــا عن الشياطين والجن ، وترحمت على أبى الذى علمنى أن أحمل مســـلة أو

سكينا فى جيبى إذا خرجت ليلا ، مدى الحياة . لكن الشيطان وسوس لى، "من قال لك أن المسلة ستنفع ؟ قد تكون أحلام الأجداد صورت لهم أشياء خيالية، ولربما نسبوا البطولة لغير أهلها حتى يعيشوا فى اطمئنان !!"

بلع ريقه ، ونظر فى عيونهم ، واحدا بعد واحد ، وقال :

ـــ بينى وبينكم ، سمعت صوت طرقعة عظامى من الخوف، وأسنانى خبطت بعضها ، وأدركت أن الشيطان سامعها، ورحت أخرج المسلة من جيبى بالراحة وأنا أرقب عينيه الناريتين ، وهى تضوى باللون الأحمر ، وسط البياض ، وغرزتها فى كتفه فى غفلة منه . صرخ :
ـــ اخلعها ، اخلعها وإلا أرميك من السماء ، فتموت فى الحال .

لكنى كنت أحس اهتزاز جسمه ، وهو يتلوى ، وانتفاضته من الألم ، فأمسكته أكثر وأكثر ، حتى انصاع لى ، وكأنى ملكته، وروضته ، وتحولت عفرتته بقوة قادر إلى رفرفة ، وأمرته بالنزول فنزل بسلام ، كأنه حمامة خفيفة ، سبحان مغير الأحوال . وكلما اقتربنا من الأرض ، رأيت القرى القريبة ، والعزب المجاورة . وزنى عقلى أن أبقى طائرا ، ولو لدقائق، وأتفرج على ما لم يره إنسان حتى من طائرة ، لكنى قلت لنفسى انفد بجلدك يا ولد حتى تصل بالسلامة ، وتروض الشيطان ، وبعدها يفرجها الذى لا يغفل ولا ينام ، ومن يعلم أنه رزق بعثه رب العالمين .

تنهد ببطء ، وهو ينظر فى عيونهم واحدا واحدا ، دون أن يراهم ، مستدعيا تتابع الصور الذى راح يمر فى ذهنه بسرعة ، ويخلع قلبه

وأحشاءه، وينشر نشوة ما فى أعضاء جسمه . استطرد:

ـــ ووصلنا . لم أصدق أننى أمشى فوق الأرض ، شكـــرت رب العالمين على النجاة ، وتأملت ما حولى غير مصـــدق . مرت الحكايــــة كلها فى ثوان ، كأنها ما حصلت ، ولا كانت . سحبت الحمار من أذنه، وأدخلته إلى الزريبة ، وأخفيت السر عن أم العيال أحسن ما تفضحنـــا ، وأخبرتها أن القطار تعطل ، والسفر تأجل ، وأنى اشتريت الحمــــار مـــن السوق ، وخلعت هدمتى ، وأخذته إلى الغيط .

سكت ، وأطرق مركزا بصره على يديه المعقودتين فى حجره .

نظر إلى أهله وجيرانه ، لاحظ أنهم كلهم يشبهون بعضا ، وجوه شـــاحبة ، مشدوهة ، تتلقف كلماته بنهم ، وقد أدركوا ، بحدسهم ، ما حدث ، خرجوا لنجدته ، بخرق النوم العتيقة المرقعة بقماش ملون ، وآثار النوم تطبع علاماتها فى بشرتهم . عرف قدر محبتهم له ، وقدر محبته لهم .

ـــ أعطونى شربة ماء .

ناولته أم السعد كوزا من الزير ، وانتظروه حتى ارتوى ، دون أن يجرؤ واحد على سؤاله عن شئ ، رغم أن نظراتهـــم ضرخـــت بـــآلاف الأسئلة .

ـــ اشتغل معى بمائة حمار ، من فرحتى ركضت وراءه دون تعب ، كلما أكملنا تســـبيخ خط ، سبخنا غيره ، ورجعنا آخر النهار ، وأنـــا أجر قدمى ، كأنى ســـافرت الصعيد ماشيا . قلت أكرمه ، لكـــن هـــل

يأكل الشيطان ؟ لم أعرف . هدانى عقلى ، "إذا هو فى هيئة حمار أضع له تبنا" ، وضعت التبن أمامه ، وحاولت أعلفه ، لكنه لا أكل ولا شرب . ونمت وأنا صاح من القلق ، كل ساعة أقوم أفتح باب الزريبة، وأطمئن أنه موجود حتى غلبنى النعاس ، وطلع النهار . أخذته مرة ثانية إلى الغيط ، وسبخنا قراريط كانت تحتاج من النفر أياما ، وكان فى بالى بعد انتهاء الشغل فى أرضى أن أساعد المحتاج ، لكن إرادة ربنا ، قلت لخديجة..

تلفت الناس حولهم ، فتذكر المصيبة على الفور ، ولطم خديه ، ثم سأل دون أن يتلقى إجابة :

ـــ أين خديجة ؟ ليتنى أخبرها .

ربت عم خليل فوق كتفه قائلا :

ـــ نصيبك وانتهى ، كيف هرب ؟

ـــ لا أعرف ، رجعت من صلاة الفجر ، كانت الزريبة خالية ، لا حس ولا خبر !

سمعوا نهنهة آتية من بين الحطب فوق سطح الدار ، انتبهوا لها بغتة، ورفعوا رؤوسهم نحوها . ركض بسيونى صاعدا الدرج ، وجد خديجة مكومة تبكى ، علا صوتها أكثر حين رأته ، وراحت تندب حظها ، ورفضت النزول معه ، صاح :

ـــ خديجة هنا ، تعالى يا أم السعد ساعدينى .

مشت بينهما مطأطئة الرأس ، أفسحوا لها مكانا فوق المصطبة فى حوش الدار ، ردت على أسئلتهم ودموعها منهمرة :

ـــ لم أعرف ، كرهته أول عينى ما وقعت عليه . كان فيه شر ، لم يكن إحساسى وحدى ، لكن والله حتى الجاموسة والحمام والعجل الصغير، كان يتقلقل من الخوف كلما دخل الزريبة ، وكانت الفراخ منكمشة فوق بعضها ، كل مخلوق كان يمسه شئ فيجفل .

أجهشت ببكاء طويل ، وهى تمسك بطرف طرحتها ، وتخفى وجهها وتسمع مصمصة شفاه النسوان وسط السكون ، ولم تسكت إلا بعد أن أقسمت جارتها أن تشرب من يدها عصير الليمون .

راحوا يعيدون كلمات زوجها ويتناقلونها ، كأنه ما حكاها منذ قليل ، غير مصدقين ، وردد بعضهم :

ـــ حق والله حق ، حتى الشيطان رزق يا أولاد ، أين ذهب ؟ هل يعود مرة أخرى ؟ هل نوى لنا على الشر ؟ خاف ؟ هرب ؟ خطف ؟ نبلغ الحكومة !! المركز فاضى يحقق فى الشياطين يا أهبل ؟ تفتكروا كم فدانا يقدر شيطان يسبخها أو يحرثها أو يبذرها فى يوم واحد ؟ مائة ؟ ثلاثون ؟ ألف فدان ؟ ما هو شيطان!!

أنهت خديجة الكوب ، قالت لها أم السعد :

ـــ حد يطلع السطح فى الفجر ؟ كنت وقعت لا سمح الله، استهدى بالله ، طلع لك فى صورة بنى آدم ؟

أطرقت ، وطرفت بعينها نحو زوجها ، وقالت :

ـــ دخلت الزريبة ، وبالى خال ، قلت أسرجه لأبى صالح، علفته ، لا أكل ولا شـــرب ، وحملت البردعة وثبتها فوق ظهره ، وأنا أعدلهـــا عنـــد كتفه شكنى شئ (شلب) الدم من كفى ، صرخت ، ورأيت مسلة مغروزة ، وسمعت نفرته محشرجة ، قلت "يا ساتر يا رب ، لـــك حـــق تتوجع ، أنا ظلمتك ، وأنت يا حبة عينى تعبـــان !" اســـتعنت بـــالله ، وخلعتها .. خلعتها ..
تطوحت يمينا وشمالا :

ـــ خلعتها ، يا ليتنى ما اقتربت منه ، ولا شفته فى نهارى.

ضربت بيديها فوق فخذيها :

ـــ ليت اللى جرى ما كان . نار ، نار خرجـــت مـــن عينيـــه ، وزوابع لا أول لها ولا آخر ، اغبرت الدنيا كأنه يـــوم عصـــف ، ولا مذراة الغلة ، طار التبن فى الســـماء ، وركب الحمار مائـــة عفريـــت ، تحول بقدرة قادر لألف حصان طار فى الهواء ، وقلبنى على بطنى كـــأنى خرقة ، لا حول ولا قوة ، سامحنى يا رب .

انفلت أبو صالح من بين الرجال ، وأمسك بخناقـــها ، يريـــد أن يقتلها . خلصها الرجال بصعوبة ، وهم يتعجبون من القوة الغريبة الـــتى هبطت عليه وهو يضربها .

أخذوه إلى الجامع ليتوضأ ، ويصلى ركعتين لله ، وصوتها الواهـــن

يتردد فى عقله ، لا يسامح :

ـــ منك لله ، تدخل الدار شيطان ؟!

تناقلت المنتهى الحكاية . تمنى بعضهم أن يمسك بالشيطان مرة أخرى ، راحوا يحلمون بقوة خارقة يروضونها فتساعدهم على إنجاز أعمالهم الشاقة ، والسفر فوق ظهره لرؤية نتف القطن المتوهجة فى السماء. وسرحوا يحلمون بالمدن البعيدة ، الجبال ، والصحارى . وسأل بعضهم إن كان ما حدث حقيقة أم أنها أحلام أبو صالح بعد أن سافر ابنه صالح ، وغاب سنوات فى الجبهة دون أمل فى عودة الأوضاع لمسارها الطبيعى ، وعودة الابن الشاب ، والساعد القوى لغيطه ، فحلم بتسخير أى كائن ، حتى لو كان شيطانا !!

أسرعت وديدة إلى التليفون ترد على كوثر التى تحدثها من السعودية :

ـــ لم ترسلى إجابة على خطابى .

ـــ أرسلت ، وأنت عارفة .

ـــ ألم يغير محمود رأيه ، ويبيع لمحمد سليم أرضه التى أمام الجسر ؟

حاولت وديدة أن تنقذ صبرها من الانهيار ، قالت :

ـــ مرة ثانية يا كوثر ؟ قلت لك ألف مرة لن يحدث . لن تباع أرض محمود لمحمد سليم . ألم يكفكم ما اشتريتم ؟ الدنيا واسعة ، فلماذا أرض محمود ؟ ماذا بك يا كوثر ؟ إنها أرض أبيك، وهذا أخوك .

ـــ غرضنا الخير يا نينا ، محمود لا ينتفع بالأرض ، ومحمد يحتاجها ليبنى لنا بيتا فوقها .

قالت وديدة بحسم وعصبية ، فاندلق الفول الذى كانت تلقطه للحمام من يدها وهاجت حولها الطيور :

ــ تبنون بيتا فوق كل هذه الأرض ؟ هى كلمة ، ولن أكررها ، لن يحدث هذا طالما أنا على قيد الحياة يا كوثر .

ــ أرض الغنايمة موجودة ، ومعروضة لنا بسعر معقول ، سنشتريها ، ونبنى البيت .

ــ تغيرت كثيرا يا كوثر .. أصابتك الكتمة بالعتمة ، والغربة بالجحود . أين كوثر الدلوعة ، المرحة ، المحبة للحياة ؟

ــ ماتت يوم خرجت ، فى أنصاف الليالى من البلد ، لمكان لا تعلمه ، ولا يعلمه إلا الله ، خائفة ، وغريبة ، ومطرودة ، من غير سبب !

استرجعت وديدة فى ذهنها كل المناقشات التى فجرها سفر كوثر، هاربة إلى السعودية ــ مع زوجها محمد سليم ــ من احتمالات القبض عليه مع الأخوان فى نهاية ١٩٥٤ . برقت المناقشات فى ذهنها للحظة ، قالت :

ــ بسبب أو من غير سبب ، لن نفتح مواضيع انتهت ، وربنا فتحها عليكم ، وكانت سبب الرزق والخير كله ، ورب ضارة نافعة .

صرخت كوثر :

ــ أرجوك يا نينا ، لا تقبلى هذا الاستسلام ، ولا تطالبينى بالتسامح معه . راح شبابنا يا نينا فى الغربة. كل دقيقة دفعنا ثمنها غاليا .

ــ ارض بنصيبك يا كوثر ، وابدئى حياة جديدة .

ــ فعلا ، سنبدأ حياة جديدة ، لكن لا يلدغ مؤمن من جحر

مرتين !

قالت وديدة ، وآلام هائلة تعتصر فؤادها بنذير شؤم :

ـــ يا خوفى يا كوثر أن تكون السكة غلط .

قالت كوثر ، وقد تغيرت نبرات صوتها إلى هدوء مراوغ ، شعرت به وديدة على الفور ، فلم تلحظ الحمام الحائر الواقف أمام كفها مثل طائرة مشرعة ، يهز أجنحته منتظرا خروج حبوب أخرى من جيبها ، كما تفعل دائما :

ـــ ما رأيك فى أرض عمى عبد الحكيم الله يرحمه ، ابنته عديلة لن تعود ، أعطونا نصيبها فى الأرض، ونضع ثمنها فى حساب باسمها فى البنك؟

قالت وديدة ، التى وصل استفزازها إلى مداه آمرة :

ـــ المناقشة انتهت يا كوثر . سلمى على أولادك ، وأنا لى تصرف آخر مع محمد سليم . مع السلامة .

أشاحت بيدها تدرأ فكرة مرت بخاطرها ، فطار الحمام فزعا . راحت تسأل نفسها :

ـــ ماذا يحدث حولى ؟ ما الذى يرتب له محمد سليم وكوثر ؟ وكأننا لسنا عائلة واحدة . هل المسألة خطف ؟ كأنهم "مسروعين" ، كل تفكيرهم أن يحطوا أياديهم على كل ما فى البلد، حتى لو فتتوا العائلة ،

وبأى ثمن . يا رب من ينجدنى ويفهمنى قبل ما عقلى يطير .

تحسست جيوبها بلا وعى ، فعاد الحمام يحوم حولها ، ثم وقف فى انتظار الفول .

ـــ متى تخرج يا محمود يا ابنى من أزمتك ؟ وكل شـــىء يرجـــع لحجمه الطبيعى ، وكل واحـــد يعـــرف مقامـــه ، وتدخـــل الفـــئران جحورها؟ يا رب ساعدنى حتى لا أخيره ، كلها ساعة على ميعاد الغداء، وحتما سيكتشـــف غضبى ، ولا أريد الوقيعة بينه وبين كوثر أخته ومحمد سليم بن خاله ، لكن ما باليد حيلة ، لابد من تحذيره .

حصلت على إجازة من الجبهة لمدة خمسة أيام متصلة ، وهو شئ نادر الحدوث . وعدت صافى أن أنهى لها احتياجات كثـــيرة مؤجلـــة . عدت من النادى فى الصـــباح المبكر ، بعد أن أديت تدريب اللياقـــــة ، لكى أصحبها للخروج . داهمنى شعور ما بالكتمة حين فتحـــت بـــاب الشـــقة، تستطيع صافى إرسال ذبذبات التوتر إلى الهواء فى ثوان . اعتدت الانزلاق وسط التوتر دون أن يمسنى ، لكنى فى هذه اللحظة توجست ، لم أعد أستطيع فى الفترة الأخيرة التعرف على أسباب انفجارها . هل هـــى مجرد تفاصيل صغيرة ، أم موضوع حقيقى . كان على الانتظـــار حـــتى أعرف . خطوات ثلاث قطعتها إلى وسط الصالة ، وسمعت الـــرد علـــى تحيتى .

ـــ مطلوب فى قيادة قطاع بور سعيد غدا صباحا .

ـــ طيب يا ستى ، حاضر ، أسافر .

ـــ معقول ؟! هل هذا معقول يا محمود بهذه البســـاطة ، وهـــذا الهدوء ؟

ـــ أنا عسكرى يا صافى ، وهذا استدعاء فى زمن حرب .

ـــ خمس سنوات ؟! الحرب لا تطول خمس سنوات . أين الحرب يا محمود ؟ أراك متحمسا ، متعبا ، مسافرا إلى الجبهة ، تعمل ولا تنام ، فأعرف أن الحرب بعد ساعة . تغيب شهورا ، وتغيب سنوات ، وكل شئ حولى جامد ، الناس طهقت ، كل أموالهم تذهب إلى المجهود الحربى، وتصرف على الجيش ، ونعيش على الإعانات من الدول ، ولا نرى نتيجة. أولادنا لا يعودون ، كأنهم مؤجرون لسخرة فى الصحراء ، عائلات بكاملها لا تجد مأوى فى قوائم انتظار المهجرين ، وأنتم ماذا تفعلون ؟ بالله عليك لا تقل لى أنك تحارب .

انفجرت فى بكاء ، فاحتويتها صامتا ، وأنا أعرف أنها بداية لنوبة اكتئاب طويلة ، والآلام ستصاحبنى فى البيت ، وسأحملها معى إلى الصحراء .

وصلت قيادة القطاع ، عرفت أن الاجتماع مخصص لبحث استعداد القوات المسلحة للقيام بعملية هجومية . انخرطنا جميعا فى التخطيط للعمليات بحماس .

سألونى : هل يستطيع اللواء بحالته هذه الاشتراك فى الهجوم؟

قلت : نعم ، لابد أن نشارك .

وقفت أمام الخريطة ، واخترت نقطة للعدو عند الكيلو ١٩ من قناة السويس . طلب من الجميع وضع قرارات سرية لتنفيذ الهجوم ،

وتسليمها بخط اليد فى نفس اليوم . نفذت الأمر ، وعدت إلى القـــاهرة مرتاحا لخطتى ، لكنى لم أستطع أن أفك الاشتباك الذى بدأ مع صـــاف ، رغم أن معنوياتى كانت مرتفعة لأقصى حد . أخيرا سنحارب ، تحملتها، وصبرت عليها ، وتجنبت كل ما يمكن أن يثير أعصابها ، لكنها كـــانت قـــد انزوت إلى الداخل ، ولم تفلح كل خططى لإخراجها واستعادتها .

لم تكن هذه المهمة مجرد استعداد للهجوم على نقطة للعدو، كانت تتويجا لرحلة شاقة من العمل فى إعداد هذا اللواء الذى شكل مـــن قبـــل لحراســـة الأهداف المدنية الهامة ، عندما ضربـــت إســـرائيل محـــولات الكهرباء والجسور ، مع ضم العناصر المستغنى عنها من اللواءات الأخرى، وأطلق الجيش عليه ســـاخرا "لواء الجلاليب" . واجهتنى بعـــد تعيـــنى قائدا له مشكلة تحويله إلى لواء عادى، فبدأت بتغيير الأفراد ، وطلبـــت عددا كبيرا من الضباط والجنود الأكفاء ، ولكن ظلت سمعة اللواء كمـــا هى . ولهذا لم أكن مستغربا حين ســـئلت إن كـــان اللـــواء يســـتطيع الاشـــتراك فى الهجوم ، فلم يكن متوقعا له أية قدرات فى وقت بســـيط. ألغيت كل المظاهر، ووضعت خطة لإعادة البناء فيما ينفع لواء ســـيدخل الحرب ، وأعتقد أننى نجحت . اعتبرت تنفيذ مهمة الهجوم محكا حقيقيـــا لمجهوداتنا . لم أترك شيئا للصدفة ، وكما هى عادتى فى تاريخى العسكرى كله . أردت أن تكون الحلول غير تقليدية ، ونابعة من الواقع الفعلـــى . صحيح أننى كتبت الخطة بخط يدى ، وسـلمتها للقيـــادة ، لكـــنى لم أدربهم عليها مباشرة ، بل اجتمعت بالقادة ، وسألتهم :

ــ ماذا يفعل العدو إذا هجم المصريون عليه ؟

انهالت الاقتراحات . أمسكنا بها ، ورحنا نتدرب عليها جميعـــا ، ونختار أفضلها ، ثم أعدت السؤال فى اجتماع آخر :

ــ كيف نهجم نحن على العدو ؟

وتركتهم يضعون الخطط ويصححونها ، حتى توصلوا بأنفســـهم لخطتى السابقة . لكن بقيت بعض المشاكل التى اختلفنا فيـــها ، وتغلبنـــا عليها فى مشروعات كتائب اللواء .

قدت سيارتى كل يوم إلى موقع النقطة فى الكيلو ١٩ ، وتأملتها عن قرب : كومة من التراب على حافة القناة . مواجهة تصل إلى مائـــة وخمسين مترا . فوقها نطاقان من الأسلاك الشائكة . أقف أمامها ساعات أسألها : آكلك من أين يا بطة ؟ أتسرب إليها مـــع رمـــال الصحـــراء ، أتحسس موقع السلاح ، ونوعه . هل توجد فيها دبابات ، كما تقـــول تقارير المخابرات العسكرية ؟ أحاول تحديد أماكن الألغام ، أين تبـــدأ ، وأين تنتهى ؟ أين المداخل والمخارج ؟ وأكتـــب ملاحظـــاتى ســـاعة بساعة، لأكتشف عدد الأفراد .

تعاقبت الأيام ، وأنا فى طريقى إليها ، عشقت تدميرها ، راودتنى تلك المراودة التى تنشأ بين المنتقم وهدفه ، نما بينى وبينها حوار ســـرى ، غلفتنى ذبذباته كما غلفتها ، فكشـــفت دون أن تدرى عن أســـرارها . تمتد الأسلاك الشائكة حوالى مائة متر . وتظهر فتحة ضرب النار أعلـــى الرمل ، فوق غرف من الخرســـانة والحديد للنوم والراحة . بجوارها موقع

للدبابات يتيح للدبابة الدخول إليه والضرب منه ، بالإضافة إلى باقى المرافق . تتسع النقطة لثلاثين فردا ، وفيها مكان للمطبخ ، ودورات مياه، ومخازن للذخيرة ، والطعام والوقود . وهى متصلة بكابل تليفون ، وأجهزة لاسلكية ، وملجأ لقائد الموقع . أدركت بمرور الوقت أنه لا توجد دبابات رغم وجود موقع لها ، لأن الدبابة تحتاج إلى تسخين ، وإذا سخنت يصدر عنها صوت . ودخان ، وهذا لم يحدث لمدة طويلة .

تأملت المكان وأنا مرتاح . نزعت الشمس اللاهبة الحياة من الكائنات التى تجاسرت ونازلتها قبل أن تنطفئ وتغيب ، هربت الزواحف من جحورها احتفالا بالظلام والصمت والحرية . رقصوا رقصة الصحو بعد أن تخلصوا من سجن الشمس ، وسطوتها . كشفت الصحراء فى ليلها عن سحر آخر ، هبت نسمة محملة برذاذ البحر ، ولمعت النجوم بقوة لا يعرفها غير أهل الصحارى ، وبردت الدنيا . كتبت آخر ملاحظاتى ، ورحت أرسم النقطة فى صورتها الأخيرة كما تخيلتها : الآن ، امتلكتك، وأستطيع أن أدمرك فى لحظة ستأتى ، وأنا الآن عطش ومشتاق. فهل يطيق المشتاق انتظارا ؟!

استدعيت نهى ، وكثيرا ما استدعيتها حين أقف على عتبات الأشياء ، فى كل مفرق من مفارق حياتى : شعنونة ، مفعمة بالحياة ، ومحبة لها ، تريدها كلها حتى الثمالة لا بعضها . لا أعرف إن كنت أحببتك لأنك مثل هذه الصحراء الحادة فى تقلبها.. رغم أننى لم أكن قد رأيت الصحراء حين أدركت مشاعرى نحوك وأنت ترافقين رحلة

طفولتى وصباى ، كنت أراك مثل الخضرة والسماء وطزاجة الزرع والثمر فوق الشجر . ترى هل احتفظت بوضوحك ؟ بصخبك وصمتـــك ؟ أم عجنتك المدينة بمائها ، فتقلبت بين الأبيض والأسود ، وتشبهت بيــــاقى البشر ؟! لا أشعر بمرور الزمن حين أقابلك صدفة وسط العائلة ، ولا أرى التغيير الناتج عـــن اختلاف الظروف والتراكم ، بل أراك كمـــا كنــت دائما بالنسبة لى : أمل لا يمكن الوصول إليه. هدف كان ملء يــــدى ، تركته يتسرب ، وعشت الحياة كلها أسعى إليه ، رغم أننى لا أعـــترف كثيرا بذلك .

انفلت الزمن دون أن أشعر به . انشق ليل الصحراء عن أفق بدا فى غبشة الفجر كأنه جدار مرسوم فوق خط النهاية ، يبشر ببداية أخـــرى جديدة لعالم آخر مغر . رحت أناجى الســـكون الســـيناوى الجليـــل ، وأشعة الشمس تتلامس مع بدن الأرض بحذر ، وأنا أقف على عتباتهــــا تفصلنى القناة عنها .. ما زلت يا سيناء قادرة على إدهاشى ، رغم أنـــنى كثيرا ما تصـــورت أننى أعرفك جيدا . أنت أنت أكثر المخلوقات غواية، لولا الورقة والقلم أمامى يحددان مـــلامحك ما قـــــاومت نـــداءك ، ولا قهرت إغواءك . ســـتلدين فى كل لحظة أفقا جديدا يــــأمرنى بإتباعــــه ، وأنت تخفين خلف وضوحك الخادع ســـكين اليأس الذى يغزو القلب ، وهو يندفع إلى هذا الانفلات ، وهذا العرى وشـــراكه الجهنمية . نعــــم نحن نستحق النفى عنك ــــ بما فعلناه نحن أو غيرنا ـــ حــق علينا قصاص الغربة ، وعلينا أن ندفع هنا ثمن الوقوف على عتبتك ، نتوســـل غفرانك، حتى تقبلى دخولنا وتباركينا.

أنار عقلى وضوح كشف لى كل التفاصيل الخافية عنى . انسحبت عائدا إلى المعسكر ، لا أعرف إن كنت سعيدا بمعرفتى الكاملة الآن لدشمة الكيلو "١٩"، أم حزينا لاكتشاف الخبيئة الملفوفة بحذر فى الأحشاء . دفعنى الحماس لتجريب آخر خطوة فى دفع القلق عن الجنود . أشعلت النيران فى الماء ، ودربتهم على احتمال استخدام إسرائيل للنابالم لتمنع عبور قواتنا لا يمكن أن نقوم العدو بأكثر من هذا .. وانتظرت النتيجة . ضاع القلق ، وارتفعت المعنويات لأقصى حد ، ورحنا ننتظر إشارة البدء بالهجوم . جاءتنا لجنة لبحث استعدادنا ، قلت لرئيس اللجنة:

ـــ نحن الآن مثل جندى نشن ، وضغط الضغطة الأولى على الزناد، وكتم أنفاسه ، لكنه لم يخرج الطلقة ، ولم يخرج النفس .

ضحك قائلا : صبرنا كثيرا ، والقرار فى الطريق إن شاء الله.

ظهرت نتيجة التفتيش : حصل اللواء على المركز الأول ، وسبق جميع اللواءات . انسحبت حزينا إلى غرفتى ، فلحق بى رئيس أركان اللواء متسائلا فى دهشة :

ـــ لماذا ؟ المفروض أن تكون أسعد الناس !

قلت : نسبق جميع اللواءات بتدريب ثلاثة أشهر ؟ معنى هذا أن باقى اللواءات تلعب ، ولا تعمل ، ونحن ندخل الحرب جيشا بكامله ، وليس لواء فحسب !!

أضفت هما آخر إلى همومى الكثيرة ، وتأكدت بعد ستة أشهر فى

١٥ سبتمبر ١٩٧٣ نفس النتيجة، وحصل اللواء على المركـــز الأول فى الاستعداد ، وانتهى آخر مشروع ، وصدر فى نفس اليوم أمر بنقلـــى إلى لواء آخر .

أشارت الإجراءات الكثيرة من حولى إلى قرب موعد الحرب ، ربما بعد أيام ، وكان على أن أعرف الأرض التى سأحارب فوقها ، جنـــوب غرب الإسماعيلية . الفرق كبير بين الحرب فى مكان درسته وخططت له، ومكان أراه الآن فحسب . ازدادت الصعوبة حين بدأت الحرب الفعلية ، وتفكك اللواء بســبب طلبات اللواءات التى عبرت قبلنا ، ودخلنـــا فى مهمة جديدة فى كل دقيقة تمر تحت طلقات المدافع ، ونيران الطـــيران ، حاولت الاحتفاظ بهدوئى .

انسحب إلى سريره ، متعبا ، مفتوح العينين ، مشغـــولا بذهـــن مسكون بقلقلة هدير الدبابات ، فقرر أن ينام رغم كل شئ.

طرقات ريح فوق النافذة تطل بخبث ، تخفى شهوتها فى اقتلاع كل ما لم يتجذر فى الأرض . وقت تطمئن فيه إلى سفر النهار ، تسفر فجأة عن فعل أمشير الأخير ، تتحصن الكائنات فى شقوقها . يأتى بكاء طفل يغرق فى المدى ، يحسر الأفئدة على وحدته ، ينتبه محمود فى رقدته — التى لا تسلمه إلى نوم ، ولا تشبع جوعه للراحة — إلى صوت يشك إن كان ألما أو نداء ، أو غواية . يزداد انتباهه :

— آوووو .. آوووو .. سرررای .. سرررية .. داوووود

يغمض عينيه على إدراكه لأغنية الغزل . على إفريز النافذة من الخارج قطة متكئة على مقعدتها كملكة تلاعب بذيلها الراقص شهوة ثلاثة ذكور من القطط ، تتحرش بقط رابع ، منتفش الفراء، مقوس الظهر. قفزت إلى الأرض وركضت ، فبدأت اللعبة .

استند محمود على وحدته ، وسحب سيجارة ، أشعلها ، وراح يتابع انفلات دخانها إلى مدن ، ورقص وخز جسده ، وشهوته . عاد النداء ، مواء الغواية ، يسقط على أبواب العشق ، لا ينهكه التجوال ،

رحل إلى ذاته يناجيها ..

متاريس الذاكرة تنفتح على أسطورة بعيدة ، بكاء على زمن لص، شاطئ زحف البحر عليه ، كلما هممت بلقائه رحل . الليل حديقة لعناق قط وقطة يموءان : سرية . داوود . ازدهرت الغواية في صوتيهما ، وقتلت عذابهما وشوقهما . فمتى أغتال سجنى ، وأبدأ رحلتى ، وأهدم الأسوار التى تحول بينى وبين نفسى؟ ذاكرتى تنام فى سرير الريح ، ترتاد السهوب المجهولة ، أنادى عليها صارخاً : وحشة ، وحشة . حضور ، ولا حضور ، الليل أوصد الأبواب ، والقمر يترف أشعته الخافتة على الجدران ، ولا ينفذ إلى وحدتى ، وتطرد الأسئلة الأشباح ، من يسمع غنائى ؟ ومن يجيب ؟ أنا المنتظر معجزات الله . من يضىء شمعةً للولى؟ ويطمر شقوق الصمت ؟ فتنبعث الروح لهباً ، ميلاداً جديداً ، أو احتراقاً بالموت ، تشق السكون بحربة سؤال ، تجيب على ما لم يقله الورق البالى ، الملتف على فحيعتى بمهارة . كلام رماد ، لا يسوح ، ولا يحمى من صقيع ، مكان مأوى ، مسحور بالانتظار . أحداث مكفنة باليومى ، بالعادى ، وأنا محموم ، أريد أن أحرق الحجب ، وألتقط قطرات حليب من ثدى سحابة تمطر الحقيقة ، ولو كانت من حنظل . المر ، النار ، السر ، الحب فى سلتى ، فى مخدعى ، فى الجب المظلم ، فمن أين تأتى قبلة ترطب شفتى أو تروضها ؟

يا الله !

كيف يطمئن المنفىُّ إلى زنزانته ، وإن غطوها بالزنابق ؟

يرتحل الوقت فى كهفى ، يبحث عن نجمة ، والنجمـــة فى سمـــاء راحلة ، مسافرة ، تدور دورة وتضحك . تلتمع التنبـــؤات فى وجهـــها فتتغنج . أحاول اللحاق بثوبها . أركع ، وأصلى ، وأنذرْ نـــذراً . عيـــنى على سوسنة ، أبحتها ذات يوم لليم ، وانتظرت طيور البحـــر أن تـــأتينى بخبرها ، سرقتنى الهواجس ، رأيتها فى المدى تضىء وتنطفـــئ ، نسـيت قدمى فوق رمال ينحرها الموج ، فوجدتنى أصارع اللجة خائفاً ، مستلقياً فوق ورق قديم لرجل قديم ، يجمع خريفه الذابل ، الـــذى يشيـــخ دون أمـــل فى مشكاة ، تشتعل برائحة زمن كان له . من يضىء نذراً للولى ، ويرفع الأنخاب لصـــوت ناى، أو قيثارة تعيد طفولتى ، شبابى ، أحلامى، أو أوهامى . تعيد السحر إلى الملحمة التى كف غناؤها . تعيد الفارس إلى صهوة الجواد ؟

سكن المطر رحم الريح ، وامتص غضبه حتى هدأ ، واشـــترك فى عزفْ قطراته ، لق لق لق ، ثقلت غفوة محمود ، والدقـــات تبـــاعدت ، وخفتت حتى تلاشت .

دخلت ، يتثال شعرها بالمطر ، حافية ، تركت ملابسها بثقة فوق حافة سريره ، والمقعد . تسللت إلى فراشه عاريةً تخفى وجهها بوشـــاح "تُل" ، فتح عينيه ، فلم ير غير الظلام ، والسخونة التى تسرى إلى أعضائه المدثرة بصوت ناعم ، أباح له ضوء جسدها رؤيةً ، و لم يبح اعتراضـــاً ، و لم يعرف إن كانت يقظةً أو نوماً . حررت ملابسه بأصـــابع مدربـــة بالعشق ، وسرحت فوق جسده شفاه مختومة بسحر ، فحركت رغبـــةً

قديمة ، طمرها الزمن بطلسم . سحبت مفتاحه وسط دهشته من معرفتها بسره ، فقام المارد من رقدته ، غفوته ، مزلزلا الحجرة التي سكنها الصمت .

برقت نجمة سؤال فى عينيه ، فقال :

ـــ من أنت ؟

فرشت جسدها ، وتسلقت أصابعها شفتيه ، منعته عن الكلام . عرف فى عينيها المخللتين "بالتل" ، شهوة ما عرفها قط . منوم ، مسحوب بجدائل الشعر المبلل ، سأل مسحورا ، يتمنى ألا تطير كدخان :

ـــ لماذا ؟

همست بصوت شعر به ، أكثر مما سمعه :

ـــ أردتك .

ـــ لكن ..

ـــ شش شش شش

حرر شفتيها من الشبكة الرقيقة ، منعته أن يكمل غزوه لوجهها . أصابع مجنونة حرثت جسده المتلهف للمسة حانية ، لهث وهو يراقب لهفته لوصولها لتنينه الذى ينفث لهبا وشوقا . هدأت حركة أصابعها وهى تداعب رغبته بحنو ما احتمله . ما شعر برغبة قط ، مثل رغبته فى تلك اللحظة فى أن تقتنصه ، انفلتت موجة شهوته ، وحملته إلى أقصى مدى. فرد أجنحة جسمه ، وتلقاها فى حضنه بشغف ، قبلها بعمق ، غاص

فى أسره. لاحظ مرونة الجسد المرمرى حين أزاحت الغطاء . وشعر بهـــا تتلوى باستمتاع سرقه من عقله ، فأعاده بالإرادة ، واحتـــار ، أيراقـــب المشهد الذى يلعب فيه الدور الثانى ؟ أم يترك جسده للبروق التى تمزعـــه إلى آلاف الأشلاء ؟ هربت مقاومته ، وانزوت فى ركن قصى . قـــرر فى اللحظة الأخيرة أن يراها قبل أن يغيب . امتدت أصابعـــه إلى زر النـــور الكمثرى ، بجوار الوسادة ، أضاءه فى لمحة ، وقبل أن يســـتوعب الرؤيـــة ضغطت فوق كفه ، وأعادت الحجرة إلى الظلام . هم بالكلام .

ــ شش شش شش

تدحرجا بتهور فى مسافة أقل من متر ، كأنهما إطار منفلت مـــن سيارة مسرعة ، يصده حائط ، فيعود إلى الدوران فى الجهـــة المقابلـــة . التهمت النيران أحاسيسهما ، فسمع فى الحجرة صوتا منظما ، لطقطقات انفلات وحشية ، وشبق محفور برغبة برية ، بدائية ، أثبتت أنه لا ضرورة لطريق طويل كانا يجب أن يقطعاه قبل أن يصـــلا معا إلى هذه الحميمية، التى لم تخطر لهما على بال ، كأنها ألفة تراكمت فى ألف عام .

نزا رغبتيهما حتى الثمالة ، وأهرقاها بسخاء ، وغرقـــا فى عـــرق اختلط بماء المطر الذى جلبته معها إلى فراشه الدافـــئ . دارا فى دائـــرة ، كلما انتهت بدأت . شـــعرا كأنهما يركبان أرجوحة الصناديق التى تشبه الساقية فى دورانها ، ارتفعا وهبطا ، ارتفعا وهبطا ، شربـــا المتعـــة فلـــم يرتويا، وعاودا النهل من نهر متدفق ، فـــاتر، عفـــى ، حـــتى اســـتنفدا قدرتيهما، و لم يستنفدا الرغبة . استكانت فى صدره ، كأنها لم تكن المرأة

التي كانت ، غفا براحة ما عرفها منذ رحلت ذاكرته ، وتركته إلى المتاهة. رآها تلملم ثيابها ، وتغطي جسدا ما ذاق عرامته من قبل . أراد أن يقول لها شيئا ، مد كفه نحوها ، وبصره يتابع أصابعها التي تعيد "التل" إلى شفتيها، عادت إليه ، فقبلها صامتا ، شاكرا ، وممتنا ، وغاب ، وخطواتها ترحل .

هطل الفجر نقيا ، فيه من رائحة الربيع الكثير . اصطدم إدراكه للصباح بعريه ، قفز من فراشه ، تلفت بحثا عنها ، أبحرت مثل حورية عابثة ناسية خرمشاتها في روحه .

ـــ من هي ؟

بعيون فاغرة على الدهشة ، التقى بالماء الساخن فوق جسده ، وابتلع الشاي الدافئ ، والفطير المشلتت مع الجبن القريش ببطء ، وهو يقلب أصابعه التي ما زالت عروقها تحمل رائحتها ، وتبث شذاها . انتقلت دغدغة إلى جسمه ، وأحس بطعم العسل مختلفا ، كأنه يتذوق عسلها السائل إلى شرايينه . انطلق إلى الطريق، خطواته تزيح الندى العالق بالمدى ، خايلته عن بعد طبقات من الشبورة : بنت في السادسة عشرة تعتلي جاموستها.. تأمل صباها ، جلبابها المورد بالبرتقالي ، فوق النسيج الكحلي ، وهو يخفي فوران ثدييها النافرين . اختفت في الغبشة ، وظهرت غارقة في إيقاع الخطوات الأربع ، تاركة نصفها الأسفل ينبض فوق ظهر الجاموسة . هش إدراكه متسائلا في انزعاج :

ـــ ماذا حدث لي ؟

استعاد مشيته العسكرية ، مصدرا صدره للريح . تذكر امرأة الليل المجبولة بالشهوة . استمرأ استعادته لجنونهما ، قابضا على الهـــواء داخـــل رئتيه ، رافضا خروجه قبل أن يمـــس آخر خلية ، مغلقا عينيه على سره . زفر بعنف أباح له استعادة مشهد الصبية التى غـــاصت فى جســـدها ، مطمئنة إلى خلو الطريق . تسلل بصره إلى ثدييها المنفلتين كحبتى مـــانجو ناضجتين . أعاده هديل حمامة ترفرف إلى الصحو . ما زالت خطواتـــه منتظمة ، وعقله يعيد ترتيب أحداث الليل .

فى الصوت الهامس بحة ، يخيل لى أنى أعرفها . مـــن تســـتطيع أن تدخل الدوار ، وتفتح باب "الشكمة" ؟ هل هى من أهل البيت؟ ضيفة ؟ جارة ؟ فلاحة ؟ المؤكد أنها تعرفنى .

حافظ على المسافة بينه وبين الصبية . تعلقت روحه بحركتـــها ، شغف بخصرها ، ردفيها ، خلخال الفضة القابع أسفل رمانـــة الســـاق . تأملها : خمرية كحلت عينيها مثل أميرة فرعونية ، تطل من جدران معبد. خداها توردا بالشبق ، كسرات فى شعرها المطل فوق جبينها من تحـــت الطرحة . عاد نداء الشـــهوة يغويه . تذكر الأمس ، شعرها مبلل بالمطر، محلول ، مباح ، يقطر الرغبة، فمن أنت ؟ البنت مهتاجـــة ، ارتكـــزت بردفيها فوق نهاية السلسلة الفقرية للجاموسة ، ومكنتها منها . مـــالت للأمام ، واستندت بيديها على ظهرها، واستســـلمت للنبض المنظـــم . عيناه تتابعان ارتعاشة جســـدها البض ، ما هذا الفوران فى جســـدى ، انتبه لصوت رجل ينهرها بعنف :

ـــ همى .. ضربة فى

كأنى كنت فى حاجة إلى شرارة تضىء حاجات الجسد حتى أكتمل .. أشعر باقترابى من ذاتى ، باختفاء سواتر كثيرة كانت تحجب عنى ما لا أريد رؤيته .

ـــ خائف !

ـــ ربما .. لا ليس الخوف .. بل رهبة المعرفة ، مطمئن لمسيرة رجل جاد، ربى نفسه ، وروضها على الشدائد . اختار حياة شاقة ، وأسلم نفسه لمتطلباتها . لم أفهم حتى الآن لماذا تحول حب الناس لى ـــ الذى بدأ بالميلاد والرضاعة الجماعية ـــ إلى خوف ؟ لا أستسيغ أن تكون الصفتان وجهين لعملة واحدة . صحيح أننى أعجبت فى طفولتى بخيلاء عمى حيدر ، وساعدتنى قوتى الجسدية على ارتكاب حماقات صغيرة، أثارت الفزع ، لكننى لم أكن ظالما أبدا .

ـــ اعترف يا محمود ، لا ضرر الآن .

تتابعت الصور أمام عينيه ، "دللنى الناس ، فدخلت الدور كلها ، وأعطيت لنفسى حقوقا لم تهبها القرية لمخلوق ، ولم أفهم لزمن طويل كلمة أبى التى كان يلقانى بها دائما : على مهلك ، كل شئ له أوان . أعجبنى تصرفه مع سليمان عطية ، طلقة واحدة من عيار نارى فى طبق طعام منافسه على العمدية الذى راح يسمم المواشى ويحرق الزرع لكى يتنازل عنها أبى .. طلقة فى عقر داره ، أكسبته هيبة فى الناحية مدى الحياة. الشر لا يقابل إلا بالشر .. أعترف أننى توغلت كثيرا فى

استخدام القوة صبيا ، وساهمت برعونة فى تجريس السارق ، وضربـــت بعنف كل من سولت له نفسه ظلم الغير ، حتى جاءت لحظة فاق العقاب الجريمة .. أذكر ذلك اليوم . جاءت إحسان بنت سالم تشكو لأبى أخـــا زوجها شكرى الحسينى الذى يشاكسها فى الذهاب والعودة ، مصرا على طردهم من الدار ؟ بعد أن سافر زوجها ليعمل فى القاهرة ، ويمنعها مـــن دخول الغيط الذى ورثاه عن أبيهما . طالبه أبى مرة أن ينتظـــر عـــودة الزوج، وأرسلت إليه مرة ثانية لكى يبتعد عنها، فاجأتنى بحاجته . أخبرتى أنها اتفقت مع زوجها ، الذى باعه نصيبه، على البلطجة ، فلم أصـــدقه. وفى المرة الثالثة ، اندفعت إليه وسط صراخها الذى ملأ القرية ، ومنعتـــه من إلقاء حاجاتها خارج الدار ، وأمسكت به من ياقة جلبابـــه ، وهـــو يقسم أن لديه حجة البيع ، وأن النقود ما زالت لديها فى الدار . لم أسمع، ورحت أضربه وسط الناس ، لم يوقفنى عويل امرأته ، ولا بكاء أطفاله .. أعمانى ضربه لامرأة عن معرفة الحقيقة ، حتى فاجأنى دم ينفجر من فمه ، وإحسان تلقى بنفسها فوقه لتحميه ، وتعترف بالحقيقة . لقد باع زوجها له الأرض والدار ، واتفقا معا على ابتزازه .. حملته ، وركضت بـــه إلى الطبيب ، ووقفت أمامه أراجع أحداث الطيش والتهور التى مرت بحياتى ، وتضرعت إلى الله أن ينجينى ، وأن ينقذه من الموت ، الـــذى يصـــارعنى عليه. اكتشفت ساعتها حجم المغالاة التى غاليتها فى الانتقام ، لم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرى ساعتها ، كان يفرحنى أن يشير الناس لى قائلين : أن حادث سرقة واحدا لا يحدث فى القرية وأنا موجود بها .. أعمتنى الخيلاء عن رؤية الوجوه التى تبدلت ملامحها من الحب إلى الخوف.

ورغم أن حادث شـــكرى الحسينى غير مجرى حياتى ، إلا أنه وصمنى إلى الأبد فى القرية بالجبروت ، وأنسى الناس لزمن طويل أنهم مـــن وهبـــونى الحياة .

يا الله .. كم يقطع الإنسان لكى يصل إلى نفسه ، ويتصالح معها.

تطلع إلى كتب الفلسفة والشعر ، والتاريخ ، وسير العظماء، مرر أصابعه فوقها ، وأمسك بالدفتر الصغير ممنيا نفسه بكشف آخر السواتر ، التى يستشعر معرفتها . قرأ العنوان :

ـــ الحرب .
قال بصوت عال : عظيم .

لم يكن اختيارى للموقع الجديد ، الذى نقلت إليه جنوب غـــرب الإسماعيلية ، صدفة . بل جاء إجباريا نتيجة لتطور الأحداث ســريعا قبل الحرب . كان قائد اللواء الذى نقلت إليه يعانى من تضخـــم حـــاد فى الكبد، أرادوا تغييره ، والطبيعى فى هذه الحالة أن يأتى رئيس أركانـــه ، لكنه لم يكن محل ثقة ، وعند بحث من يحل محله ، لم يستطيعوا تكليـــف ضابط من خارج الجبهة ، أو سحب ضابط مشارك فى الهجوم الرئيسى . كانت بور سعيد تعتبر اتجاها ثانويا ، وكانوا يستطيعون الاعتماد على من يحل محلى ، فقد كان رئيس أركانى كفوأ ، ومتفاهما معى ، وكان علـــى أن أواجه الحرب فى مكان جديد ، يجب دراســـته بســـرعة . حـــاولت اكتشاف الموقع ، والأفراد ، والاستعدادات ، وكل الدلائل حولى تشـــير إلى أن طبول الحرب قد راحت تســـخن سطحها اســـتعدادا لانطـــلاق

شرارة البدء . واعتنى الفوضى . كل التحركات تكشف أننا نعد هجوم ، والمفروض أنه سرى ، والأيام الباقية لا تعطى الفرصة للتصحيح : لـــواء مفكك الأفراد ، القائد السابق فى المستشفى ، رئيس الأركان ليس محـــل ثقة . فى اليوم الأول من أكتوبر وصل إلى اللواء اثنان مــــن الضبـــاط ، قادمان من قيادة الأركان ، وبالتالى معلوماتهما عن اللواء صفر . فى اليوم الخامس من أكتوبر وصل قائد جديد لكتيبة دبابـــات اللـــواء . **هكـــذا دخلت الحرب .... !!**

عبرت لواءات المشاة فى اليوم الأول ، بما فيها لوائى الســـــابق فى بورسعيد . وبدأ اللواء يتفكك من اللحظة الأولى للعبور ، فقد طلب كل لواء عبر ممن وراءه كتيبة دبابات ، أو سرية ، وفقا لاحتياجاته ، وســـط قعقعة الحرب ، وهديرها . واجهنا فى كـــل دقيقـــة مهمـــة جديـــدة ، حـــاولت الاحتفاظ بهدوئى ، لكى تكون القرارات عملية ، ولم يكـــن هذا ممكنا دائما . فقد كانت الطلبات تأتى وفقا لتصورات محتاجيـــها ، وليس وفقا لإمكانيات التنفيذ .

انسالت القوات على المعابر ، تدفقت بقوة انداياح ماء طال أسره، وتحركنا إلى الغرب ، لنحل محل قواتنا التى عبرت إلى سيناء. واستمر اللواء يمد اللواءات الأخرى بالعناصـــر التى تحتاجها ، حتى جاءنا أمـــــر ليلـــة الثالث عشـــر من أكتوبر بتطوير الهجوم . أخيرا يتحقق الحلـــم ، ولـــن يقف على عتبتك ، يدفع ثمن الهزيمة . تقطرت أعمارنا فى لحظة ، كنـــــا جميعا على استعداد أن نهبها لرمالك . عبرنا القناة بصعوبة بسبب عطـــل

فوق المعابر ؛ ووصلنا سيناء فى الثالثة من الصباح التالى . قـــابلت قـــائد الفرقة لأحصل على أوامر المهمة التى سننفذها، قال :

ـــ سندخل المعركة فى السادسة صباحا ، وسيكون دوركـــــم فى المرحلة الثانية ، بعد أن تنجح المرحلة الأولى بإذن الله .

ـــ بعد ثلاث ساعات يا افندم .

ـــ نعم .

مقابلة لن أنساها مدى الحياة . لم تكن المعلومات عـــــن العـــدو كافية، ولا المهمة واضحة . سألت عن النقط المحتمل أن تواجهنا، والنقط على جانبينا أثناء الهجوم ، واحتياطى العدو الذى يمكن أن يقابلنا أثنـــاء التنفيذ ، فلم أتلق إجابة . عدت أستفسر عمن سيحمى أجنـــاب اللـــواء حين يدخل المعركة ، ومن الذى سيقوم بتعليم الطرق التى سيتحرك عليها اللواء حتى يصل إلى مكان المعركة ، وما هى الوحدات التى ستقوم بمعاونة اللواء أثناء تنفيذ المهمة ، فلم أصل لنتيجة . لا معلومـــات . وعـــدت حائرا بين المهمة الواجب تنفيذها ، وبين المعوقـــات الـــتى ســـتواجهنا . استقبلنى صخب الجنود ، رأيتهم يقفزون من الســـــيارات المدرعـــة ، يقبلون الأرض ، يكبشون الرمل مثل جواهر ثمينة ، ويحشون بها جيوبهم ، تأملتهم ، وأنا أتمزع بين رغبتى فى تحقيق نصر كاسح فى المهمة التى ستبدأ بعد قليل ، والإمكانيات التى فى يدى . تسللت مشاعرهم إلى أعصـــــابى تروضها ، وتزيح عنى همومى رويدا ، رويدا ، حتى ســـرت عدوى حبهم للأرض ورغبتهم فى التضحية بحياتهم ، وغلفـــت الصحـــراء الممتـــدة ،

وغمرت معها كل كيانى ، وشعرت أمام حماسهم أن الـــروح المعنويـــة ستعوض المشاكل التى لاحظتها فى الخطة . تذكرت ســـاعتها الضـــابط الإسرائيلى الذى شاركنى السكن فى بناء واحد فى منطقة **العوجة الدولية**، فور تخرجى ؛ وكانت خطواته فى الممر تمنعنى من النوم ؛ وتذكرنى فى كل لحظة بأن وجود أحدنا ينفى وجود الآخر . قلت لنفسى : جاء الوقـــت الذى يجب أن نحقق فيه وجودنا على أرضنا ، وإلى الأبد .

بدأت الفرقة الهجوم فى تمام السادسة صباحا ، ولم تنجح المرحلـــة الأولى ، فلم يدخل اللواء المعركة ، وأتيحت لنا الفرصة لإعادة التنظيـــم استعدادا للجولة القادمة .

أثناء الليل دخل العدو بكتيبة دبابات فى رأس الكوبرى حتى وصل إلى موقع كتيبة دبابات اللواء التى استعارتها منا الفرقة ثانى أيام الحرب ، واشتبك معها . قاتلت الكتيبة ببسالة ، واستشهد عدد مـــن أفرادهـــا ، لكنها أجبرت الدبابات الإســرائيلية على الانسحاب . وجـــاءنى أمــر بحماية منطقة المعابر حتى تظل خطوط المواصــلات مفتوحة . اندفعنـــا فوق نيران من الحماس ، ضاعفت قواتنا البشرية والآلية ، سعيد بالمـــارد الذى انبعث داخل كل فرد منا بهستريا الحب للأرض التى اشتقنا كثـــيرا لتحريرها ، وأوقفنا حياتنا لاستعادتها ، سنوات من التدريـــب والعمـــل الشاق . وتمكنا بالفعل من تأمين رؤوس الكبارى ، واستقرار الوضـــع ، واستمتعنا للحظات بالنجاح . وأخذنا مهمة استعادة منطقة كان العـــدو قد احتلها من الفرق التى دخلنا فى منطقتها ، وبدأنا نجهز للهجوم ، لكن

العدو فاجأنا بهجوم شـامل بالطيران والمدفعية ، ثم اشتبك معنا باللواءات المدرعة . حميت المعركة إلى أقصاها ، وكل طرف مصمم علـى تنفيـذ خطته : إسـرائيل التى اختالت كثيرا بنصرها فى ١٩٦٧ ، بعـد أيـام عشرة من انتصارات مصرية كبيرة تحاول تعويض ما خسرته ، ونحن نصد الهجمات بقوة مرارة سـنين الهزيمة ، بالأمل الذى صحا ذات يـوم فى يوليو ليدفعنا إلى قمة العالم ، ثم انتحر تحت وطأة النكسـة . كنـت أعرف أن كل روح مصرية فى هذا القتال تدافع عن تاريخ طويـل مـن الحضـارة ضد الهمجية ، والاغتصاب . وتذكرت فى هذه اللحظة ضابطا شابا فى الواحدة والعشرين من عمره يتحدى وزمـلاؤه هجمـات دول ثلاث ، وما زال يحمل سـلاحه رغم مرور كل هذه الأعوام ، ويمتلـئ قلبه بمرارة الثأر الذى لم يأخذه . الفرق كبير الآن بينى وبينه ، وأحمـد الله أن القائد ينشغل بأمور كثيرة تشغله عن ذاته ، بالإضافـة إلى رصـد العدو لموقع القيادة ، وتركيز الضرب عليه ، فالحرب حرب حـتى مـع النصر.

لم نستطع أن نأخذ الموقع ، أو نطور موقفنا إلى الهجوم ، وظـل العدو يهجم ، ونحن نصده ، إلى أن سببنا له خسـائر كبـيرة اضطرتـه للانسـحاب .

طلبنى قائد الفرقة ، واجتمعنا مع رئيس أركان الجيـش ، وقـادة الفرق الأخرى للتخطيط لهجوم شامل مضاد . توالت الاقتراحات تحـدد فوق الخريطة إمكانيات تحركاتنا ، وإمكانيات العدو وفقـا للظـروف

الجديدة المتغيرة . انقضى الوقت الثمين ، ونحن نفكر معا ، ونعيد تصحيح الأفكار ، ثم أخبرنا قائد فرقة "رأس الكوبرى" أن العدو اخترق مواقعه، وتوجه بالكلام لى ، طالبا أن يستعير لوائى لهجوم مضاد ، لاستعادة المنطقة التى أخذها العدو . لم يكن الطلب منطقيا ، فكيف أقوم بالهجوم بدون كتيبة دبابات اللواء ؟!

أخبرته أن كل ما أستطيعه بإمكانياتى هذه ، هو اتخاذ موقع أستطيع الصد فيه ، وليس الهجوم . تجادلنا كثيرا ، ثم تحول النقاش إلى تحديد أى الخطوط التى أصد منها . ووفقا للمعلومات التى كانت عنده، كان رأيى أننى لا أستطيع أن أتزحزح أنملة عن الخط الحالى ، الذى أقف عليه ، والعقل يقول أن أبقى مكانى انتظارا لوصول العدو . لكنه اشتكى من ضياع مسافة كبيرة من "رأس الكوبرى" ، وأصر على تعويضها بأى ثمن . وضاع صوتى وسط حماس لا عقلانى ــ لأنه لا يستند على إمكانيات ــ لاسترداد الأرض ، فلم نصل إلى حل . قلت :

ــ أعطونى أوامر محددة ، وسأنفذها على الفور .

أمرونى بالتحرك باللواء حوالى أربعة كيلومترات شمال الخط المغذى الرئيسى . أعطيت من مكانى أمرا للواء بالحركة ، وحين وصلنا ، لم أجد أية قوات ، على عكس المعومات التى أمدنى بها القائد . ورغم توجسى من صحة تقدير قادتى للمهمة التى أمرت بها ، فقد أحزننى بشدة عدم وجود قوات للعدو فى المنطقة التى تحركنا إليها ــ رغم أن هذا جنبنا اشتباكا مع قوات ثابتة فى مكانها ، بدون كتيبة دبابات اللواء ، التى تلعب

الدور الأول فى أى هجوم — ذلك أن أصعب الأشياء على قائد فى الحرب أن يكتشف عدم دقة المعلومات التى يتحرك على أساسها . معنى هذا أن تقع الفرق فى حالة خطرة من التخبط لا تؤدى إلا إلى الفشل .

ثبت على هذا الخط ليومين ، ثم ذهبت إلى قائد الفرقة ، وكان الرئيس يحدثه تليفونيا ، وأمره بأن يأخذ قرية الجلاء اليوم ، ثم أغلق الخط.

بدون دفاع جوى !!

بدون إسكات لمدفعية العدو !!

حركة تحت نيران طيران ومدفعية العدو ، كيف ؟!

اتصل القائد برئاسة الأركان ، فقيل له : جهز نفسك للهجوم . وبعدها بساعات ألغى الهجوم ، فطلبنى القائد وأعطانى أمر الانسحاب مساء التاسع عشر من أكتوبر . حالة من الفوضى أكبر من قدرتى على تنظيمها . فى النهاية ، أنا جزء صغير فى حركة كبيرة ، لا سيطرة لى إلا على ما تحت يدى . لكننى أيضا مسئول عن كل ما يجرى ، فقد كنت وما زلت من المخططين ، والمدربين للجنود والضباط ، وأيضا المنفذين!! علمت الناس التكتيك لمدة خمس عشرة سنة : أين شطارتك يا بطل ؟! انسحاب فى الظلام : ليس مستحيلا . هو ممكن ببعض الأخطاء. كان المفروض أن يصلنى أمر الانسحاب قبل الظلام ، حتى يرى الجنود الأماكن التى سينسحبون إليها ، وينظموا حركتهم ليصلوا بأمان ، لكن ما باليد حيلة ، علينا تنظيم العودة إلى الخط الثانى قبل الفجر . أعطيت التعليمات ، ورتبنا حركتنا بخمسين بالمائة من الدقة ، بسبب ظروف

المهمة ، لكن هكذا هى الحرب .

رفع رأسه عن الأوراق ، مسح عينيه ، كأنه يزيل غشاوة أصبحت ملك يده . أمسك ورقة وقلما ، وراح يرسم خريطة الأحداث ، قنـــاة السويس ، بحيرة التمساح ، أحد عشر كيلومترا ، ثم البحيرة المرة الكبرى، رســم علامة كبيرة محددا موقع اللواء بعد العبور ، قال : "هنـــا علـــى الضفة الشرقية للقناة شمال طوسون، ويمتد شرقا حوالى سبعة كيلومترات. إذا نظرنا يمينا على الضفة الغربية ، فثمة نصـــب تذكارى قـــديم مـــن الحرب العالمية . جنوب جبل مريم على الضفة الشـــرقية ، توجـــد قبـــة الشيخ حنيدق . هذا هو الخط الذى وقفنا عليه فى النهاية ، لم يكن أمـــر الانســـحاب هو الكلمة الأخيرة فى الحرب ، التف العدو حولنـــا بـــين جزيرة التمســـاح والبحيرة المرة الكبرى ـــ الثغرة ـــ واحتل بعض التباب التى صنعناها ، وأصبح من السهل عليه أن يضربنا من الخلف . جـــاءت التعليمات بســـحب الخط الأمامى ، فانســـحبت إلى الخـــط الثـــانى ، ووصلت طائرات العدو فى السابعة صباحا .

نظر فى الأوراق ، كانت كلماته طبق الأصل من مدونة الأحداث التى تذكرها دفعة واحدة . واصل القراءة .

هاجمت الطائرات والمدفعية الخط الذى انتقلنا إليه . استمر القصف ثلاث ســـاعات متوالية ، ثم بدأ الهجوم فى العاشرة . تصدينا له بالمدفعية، والأسلحة المضادة للدبابات ، فتوقف . كانت الحرب فى عـــام ١٩٧٣ حرب دبابات ، ولا شئ آخر ، رغم أن العدو اعتمد على إلقاء أطنـــان

من المتفجرات بالقنابل قبل أن يبدأ هجومه ؛ لكن الصحـــراء ، وطـول معاشرتنا لها ، علمتنا كيف نحتمى فى رحمها العريض ، وكيــف نصبـح جزءا من كائناتها. بعد طـول عناء على بابها ، فتحت لنا قلبها ، وعلمتنا الصبر فامتزجنا فى نسيجها . كرر العدو الضرب ثلاث ساعات متتاليـة بالطيران والمدفعية ، ثم هجم بقواته البرية فى الواحدة ؛ وفشل الهجوم . لم يستطع واحد منا إدراك من أين تأتى القوة الداخلية فى هـذه اللحظـة . راعنا جميعا حجم اكتشافنا لها ، ولم نعرف إن كانت غريزة البقـاء ، أم حب الوطن ؟ أم التحامنا جميعا ، بقوة أكبر تسـيرنا كوحدة ؟ أم هـو دفع ذاتى خلقه الله ولم نكتشـفه إلا لحظة الخطر ؟ لا يشـعر الفـرد بذاته فى هذه اللحظة ، بل بوهج الروح حين تنجلى بعنـاء الانتظـار ، والإعداد ، والبعد عن الأهل والأحبة ، بقسوة الطبيعة ، الـتى تصـب غضبها مرة، وتسـامحنا مرة ، وتصفو أخرى ؛ بطول التعامل مع الرمال، واعتياد الجنود عليها ، كما يعتاد الفلاحون الأرض السوداء ، بترابها الذى يهب البذرة الحياة . نسـى كل منا خصوصيته ، وأصبح الكل يخصـه شئ واحد، أن نصد الهجوم ، وليحدث ما يحدث لأى منا بعد ذلك ، لا يهم. المتبقى منا على قيد الحياة يكمل المسيرة .

تكرر الضرب بنفس النظام ، وعادت الدبابات ، وكتائب المشاة للهجوم فى الرابعة والنصف ، للمرة الثالثة . اسـتجمعنا قوانـا دون أن نحصر الخسائر ، أو الشهداء ، أو ندرك حتى حجمها الحقيقى . وبدافـع الرغبة فى الحياة ، استنفرنا قوانا ، وصددنا الهجوم ، فـتراجع العـدو ، وتوقف ، لكنه لم يتركنا نرتاح . راح يضـربنا ضرب إزعاج . طلبـت

من وحدة المهندسين زرع ألغام فى الأرض ، أمام الحد الأمامى للواء ليلا، وبدأنا نحصر خسائرنا الكبيرة من الشهداء .

تذكرت جمال عبد الناصر وهو يقول لنا فى اجتماعه بنا ، إحدى المرات أثناء حرب الاستنزاف : علموا جنودكم كيف يموتون ! شعـــرت ساعتها ، أننا تعلمنا فى انتظارنا الطويل للحرب أن نحب أنفسنا ، ليــــس كأفـــراد ، ولكن كجزء من طين الأرض ، ورمالها ، وأن نعرف قيمـــة الهبة العظيمة التى أعطتنا مصـــر : الحياة كمصريين ، نحمل فى عروقنـــا دماء ملايين الشهداء ، على مدار تاريخها .

مكاسب وخسائر ، معنوية ومادية ، هكذا الحرب . وهى لم تنته بعد ، بغض النظر عما حققناه فى الحرب حتى الآن ، فيجب أن نحـــافظ عليه ، وأن نزيد من مكاسبنا ، مهما كان الثمن . تمت مهمـــة التلغيـــم بنجاح . ومع شــــروق الشمس ، بدأ العدو يضربنا بطيرانه ، وبمدفعيتـــه مرة أخرى . كان من الواضح أنهم رصـــدوا قيادة اللــــواء ، وركـــزوا الضرب عليها ، حتى أن السيارة المدرعة التى أركبها ، رسمت بالقنابل من جميع النواحى ، فأدركت للمحة خاطفة أن العمر على وشك أن ينتهى ، ثم انشغلت بمواجهة الهجوم الذى بدأ فى الرابعة عصـــــــرا . انفجـــرت الألغام لحظة مرور بعض الدبابات فوقها . تناثرت أجزاؤها ، وتحولت إلى خردة فى ثوان ، وتعطلت دبابات أخرى فتوقفت . خيوط من الدخــــان الرصاصى ، تكاثفت فوق نقاط التفجير . زوابـــع من الغبـــار، وســـط كعكة الجنازير التى نجت من المصـــيدة ، وحملت الدبابات إلى الاشـــتباك

مع رجال كتيبتنا الأولى . قاوموا ، رغم أن عددهم كان قليــلا ، حــتى اخترقتهم ، وأخذت طريقها إلى قيادة اللواء . قلت لزمــلائى : لا مفر يا رجال ، جاء وقت الدفاع عن أنفسنا ، احملوا الأسلحة الخفيفة .

استعددنا بكل ما تملكه أيدينا فى هذه اللحظة ، ولم تكن الأسلحة الموجودة كافية بأى حال . اقتربت الدبابات ، المسافة بيننا ألف مــتر لا غير ، هديرها يدوى ، تكأكئ ، وتسرع ، كقطار نســوا أن يشحمــوا أجزاءه . قطعنا عهدا صامتا على أنفســنا أن ندمر منهم كل ما نستطيع، حتى آخر رمق . قطعــت مائتى متر باعتزاز وثقة الملك . ملك الصحراء، أو وحشــها ، لا يهم . توقعنا أن تبدأ الضرب ، ثمانمائة متر تفصل بيننا، الثوانى هى أعمارنا الباقية . سرحت أنفاسنا إلى الداخل تملأ كل خليــة بالحياة التى تنقضى الآن ، عيوننا رصاص يريد أن ينطلق ليعــوض قلــة الذخيرة . احتل ســمير نصف عقلى ، وعرض النصف الآخر شريــط حياتى كله ، تنحى بعدها الشــريط ، وترك إدراكى كلــه لســمير ، أصابتنى غصة ، ســرعان ما تخلصت منها ، وأنا أردد : سيتربى ، مثــل أبناء آلاف الشهداء . نزل أفراد القوة التى هاجمتنا من الدبابات رافعين راية الاستســلام . لم نفهم ، استوعبنا ما يجرى غــير مصدقــين، انفجرنــا مســرعين بالركض ، والفرح لأسرهم ، ثلاثة عشــر جنديــا وصــف ضابط، بأسلحتهم .. انتهى الهجوم إلى هذا الشكل المزلى ..

أمرت بإحضارهم إلى مقرى لاستجوابهم . رأيت أمامى مجموعــة من الشباب تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين . سألت أحدهم :

ـــ لماذا تضحى بحياتك من أجل لا شئ ؟

أجاب عدد منهم معا : لأن هذه أرضنا !

اندفع بعض جنودى يريدون قتلهم . أمرتهم بالسكون ، وأنا أعرف أن السيطرة عليهم فى هذه المواقف صعبة ، وسط إحساسهم بصلف الأعداء . خاف الأسرى بالفعل ، وتوقعوا أن نقتلهم ، كما فعلوا مع أسرانا فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ . لم يعرفوا أن كل ما تبقى معى هو عشرون فردا ، وأننى سأواجه مشكلة فى حراستهم . قلت :

ـــ كيف كان أمر الهجوم علينا ؟

قالوا : جاءتنا أوامر باحتلال الموقع ، أشاروا لنا إلى حيث بقعة مشتعلة ، بعد قذف الطيران ، وقالوا لا يوجد أحد هناك . مجرد نقطة دكت ، وقتل أفرادها . فوجئنا بالمقاومة ، ولم نكن على استعداد لها .

أمرت بانصرافهم ، وانشغلت بمواجهة الطائرات والمدفعية الإسرائيلية ، التى عادت إلى دك الموقع من جديد . أصيب الأسرى الإسرائيليون بالذعر ، وقالوا إنهم هالكون لا محالة . وفوجئت بالجنود المصريين وهم يحاولون تهدئتهم ، حتى كفت إسرائيل عن الضرب ، وفشل هجومها ، وعادت الحالة إلى الهدوء ، حتى وقف إطلاق النار فى السادسة من مساء الثانى والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣ .

توقف عن القراءة .

أفادنى تعلم العبرية فى بداية حياتى العسكرية . أذكر هذه الفترة

جيدا ، وأذكر الآن أنني لم أكتب هذه المذكرات فى حينها ، بل كتبتها فى وقت آخر بعد انتهاء الحرب ، أثناء فترة عملى فى أكاديمية ناصر عام ١٩٧٥ أو ربما ١٩٧٦ ، اعتمادا على نقاط صغيرة كنت أدونها ، لكن أين نهى ؟ وأين صافى ؟ وأين أمى وأبى؟ وعائلتى وسط الحرب ؟ ولماذا لم أذكر لحظة إدراكى للموت إلا سمير ؟ آه .. كم اشتقت إليك يا سمير.. ماذا فعلت بك الدنيا، وكيف احتملت البعد عنى هكذا ؟! وكيف احتملت أنا .. هه ، ماذا كتبت أيضا عن الحرب ؟ عن الحرب مع الأعداء والحرب مع النفس ؟!

استفدنا من وقف إطلاق النار فى إعادة بناء اللواء . عادت الكتائب والسرايا التى ألحقت باللواءات الأخرى ، فى فترة العبور ، ووصلتنا بعض الأسلحة القليلة ، تعويضا عما فقدناه . ثم طلب منا سحب اللواء إلى الغرب ، لتثبيت العدو فى منطقة الثغرة . سلمنا الموقع إلى الفرقة التى تدافع فى الشرق ، ورحلنا إلى مكاننا الجديد . لم تكن مهمتنا الجديدة سهلة ، كان علينا أن ندافع عن منطقة تبلغ مساحتها ثلاثة وثلاثين كيلومترا، بخمس دبابات لا غير ـــ يحتاج اللواء إلى واحد وثلاثين دبابة ـــ وأن نوقف العدو ، بأى شكل ، فإذا اخترقنا ، تتعامل معه القوة التى تلينا فى الموقع ، وتشتبك معه وتمنعه .

تسرب الوقت ، وأنا أتأمل المكان وأدرسه ، وأضع له الخطط . كانت السلطة للشمس ، فوق الأرض المنبسطة القاسية بنعومة ، التى لا تكشف عن عالمها الغامض ، رغم سحر الوضوح السطحى للغافلين .

تحتاج الصحراء للندية ، ولا تراوغ إلا المحتاج. هذا هو قانونها . تستدرجه إلى قلبها ، ثم تبدأ معه رقصة السراب، أو طقس الموت . انقلب الهدوء فجأة إلى هدير وزمجرة، أقرب إلى فحيح البحر الغاضب ، وانهمرت السيول ، دفعة واحدة، وحفرت المياه أنفاقا سرعان ما ذابت فى جسد الأم ، وتركت مكانا رخوا ، لكائنات ظهرت فجأة كأنها عاشت هنا منذ ألف ألف عام .

لسعت السيجارة التى احترقت حتى الفلتر يده ، دون أن يدخن منها مرة ، فوضعها فى المطفأة .

كأن التى كتبت هذه الكلمات ، أمى وديدة ، وليس محمود الضابط المخضرم . أعرف أننى أحب أمى ، لكننى ما عرفت قط أننى أشبهها ، وأستعير منطقها فى الحياة . وكأنى كنت فى حاجة إلى خوض كل هذه التجارب ، والعراك مع الدنيا، لأصل لنفس الفلسفة التى تعيش بها أمى ، بالفطرة ، دون تعليم ، ودون حركة أبعد من دوارى أبيها وزوجها .

أشعل سيجارة تركها تنفث احتراقها ، وعاد يقرأ :

أرسلت دوريات لرصد العدو فى الثغرة . أعترف أننى فوجئت بالنتيجة ، أتى الجنود المصريون بالأسلحة والعلم الإسرائيلى . لم يكن ينقصهم إلا أن يأتوا بالجنود الإسرائيليين أيضا، طالبونى بذلك ، فرفضت بشدة . قلت لهم قانوننا الآن المراوغة والسرية ، لا نريد أن يتنبه الباقون ، ونحن على غير استعداد للدخول فى المعركة . أوقفت حماس جنودى

بصعوبة . ازداد إصرارهم واستعادوا الثقة بالنفس ، وارتفعت روحـــــهم المعنوية إلى السماء . والأهم أن العدو فقد الهالة الكبيرة الـــتى اكتســبها باحتلال الثغرة ، وعدت لبناء اللواء بطريقتى ، حتى سبتمبر ، إذ نقلت إلى أكاديمية ناصر .

ترنحت المنتهى بين رحى الفرحة بالنصر ، والحزن على رحيل أغلى الأبناء. خرجت الزغاريد من كل دار اطمأنت على ابنها ، ولو برسالة قصيرة . وظهر مع الوقت فى القرية جنود حصلوا على أجازات خاطفة ، أضاءوا بزيهم الأصفر المنتهى ، مثل نجوم تلمع ، تخطف الأفئدة ، وكأن القرية ما كان لها شباب قبلهم. تعلقت بهم الأبصار بفخر ، وخوف على الزهور اليانعة ، لبة القلب ، من أن يغدر بها الأعداء .

حرثت وديدة أرض الحوش مثل أسد مأسور ، تسأل عن الغائب من أبناء الفلاحين ، والمهاجرين ، والأقارب ، فى المنتهى، والهور ، والمدن التى تعرف فيها أية عائلة لها ابن فى الحرب. لم تكن تعرف الفرق بين أن يكون الجندى فى شرق القناة، أو الدفرسوار، أو فى السويس، "كلها بلادنا" كانت تقول .. وتسأل كل من يدخل الدار عن الأخبار.

قال عبد الله ضاحكاً : أنا دخلت معهم مدارس ، ولعبت مع أخوالهم ، ولا أعرف كل من كان فى الحرب يا أمى .

قالت : مشاغلك كثيرة يا عبد الله .

احتل الغائب سماء المنتهى . غيمة حزينة لا تمطر ، كلما تحركت أدمت القلب . أصبح هو البطل الذى تسأل عنه أحجار الدور التى نما فى ظلها ، والشوارع التى حبا فوقها ، والأرض التى رواها . باتت المنتهى لياليها ، تنتظر الغائب علها تعرف عنه أى شئ .

ثم توالى إعلان أسماء الشهداء ، وارتاح الغائب بالعودة أو بالموت. خرجت القرية تودع من كل شارع شهيدا ، وتستحلفه أن يوصل سلامها للأبناء الراحلين قبله . ولم يكن خروج الشهداء اليوم مثل خروجهم فى ذلك اليوم القريب ـ البعيد ، فى ١٩٦٧. شهيد النصر ليس هو شهيد الهزيمة .

قلقلت الحرب مواجع ذكرى استشهاد عبد الحميد ، فعاد يدب فى أرض الدوار ، رضيعا هادئا ، مريحا ، ثم صبيا مشاكسا ، لا يمر يوم دون أن يصيبه شئ. كان مثل مغناطيس يجذب الحوادث إليه . جريحا دائما، ووديدة تصرخ فيه :

ـ إنت " متقترح " على عمرك .

تتذكر نزقه ، ثم تتذكر حنانه . تذكروا جميعا يوم دخل عليهم ملفوف الرأس والركبة، مدهون الجسم بلون أحمر كأنه دخل معركة مع ثور ، وأخبرهم الخفير أنه ربط "سلبة" [1] عجل فى وسطه ، ففر منه، وجره وراءه ، وسحله على الطريق . وتذكروا يوم اختبأ فى "الدست" [2]

[1]) السلبة : الحبل الذى يربط العجل .

[2]) الدست : قزان كبير.

تحت سرير مترو فى المقعد ونام، وخرج الخفراء يبحثون عنه فى الغيطان بالفوانيس ، بعد أن أعياهم البحث فى كل أرجاء القرية .

ثم تذكروا حنانه . تقول وديدة : كان أحن أولادى ، ثم تغرق فى ذاتها .. وتقول ليلى :

ـ لم أر فى حياتى رجلا أكثر منه شهامة ورقة . أشتاق إليه ، وأشعر به حولى فى كل مكان .

ويصمت الجميع .

تعاملت وديدة مع الموقف طوال الحرب باطمئنان على ابنيها محمود وعاطف ، لم يفهمه غير طه الذى لم يستطع التحكم فى دموعه أبداً بعد رحيل عبد الحميد ، وكثيراً ما رآه الأطفال يبكى وحيداً فى الشكمة ، فينقلون الخبر إلى جدهم .

قالت له وديدة ذات يوم :

ـ كنت أعرف فى داخلى أن عبد الحميد منذور يا حبة عينى للموت من يومه . لم يكن ابن دنيا ، لكن لا محمود ، ولا عاطف ، صدقنى يا طه .

دبت العافية فى روح وديدة وجسمها مع الفجر ، فطارت مثل نحلة لا تهدأ، استعداداً لوصول العائلة كلها . وصل محمود قادماً من الجبهة للمرة الأولى فى الصباح الباكر وبصحبته زوجته صافى وابنه سمير، ووصل

عاطف من معسكره على مشارف القاهرة ، وجاء رشدى أخـو طـه ، وابنته لبنى خطيبة عاطف .

هاص الحوش ، جلس الجميع على المصاطب ، ووديدة تدور بـين الكوانين والأفران ، وخادماها يعملن بهمة وفرح .

دخلت ليلى أرملة عبد الحميد إلى وسط الحوش تسـبقها زيطـة علاء، وفى يده نقود معدنية كثيرة وضعها فى حجر جدته ، وارتمـى فى حضنها قائلاً :

ـــ نينا ، عرفتِ إن بابا شهيد ؟

بوغتت وديدة التى تحتضنه ، فلم تستطع أن تمنع الرجفة التى هزت جسدها بشدة من أن تصل إلى حفيدها ، ووقعت العمـلات المعدنيـة ، وتدحرجت إلى الأرض . احتضنته ، فتعلـق برقبتـها ، وهـى تقـوم لتسـتقبل ليلى والدموع تطفر من عينيها ، والسؤال يحوم فى سماء الدار :

ـــ حمداً لله على السلامة ، غيبة طالت يا ليلى .

قالت ليلى ، وهى تومئ برأسها لوديدة أن تمرر الموضوع :

ـــ أوحشتينا يا نينا .. والله ما نقدر نبعد عنك سـاعة ، لكـن المدارس فى عز الشغل.

تعالت الضحكات تحاول إخفاء ما قاله علاء ، لكنـه لم يـبرح مكانه ، وقال لجدته :

ـــ نينا ، عملنا حفلة فى المدرسة لأولاد الشهداء ، كل ولد (باباه)

شهيد وقف فى الحوش ، وكل المدرسة صفقت له ، وغنينا كلنا أنـــاشيد عن مصر . تعرفى، بابا كان مسافر ، راح الحرب ، واســتشهد هنـــاك. شـــوفى ، لبسنا شارة ، وكان صاحبى شريف نفسه ياخدها مـــنى ، لكن أنا قلت له لازم أبعتها لنينا.

لم تحتمل وديدة أكثر من هذا ، وغرقت فى دموعها ، والمشـــهد حولها كله لا يجسُر إلا على دموع صامتة .

قالت ، وهى تفرق بأصابعها المرتجفة خصلات الشعر فوق جبهته:

ــ أنت كبرت ، وشعرك طويل يحتاج مقص .

سألها : صحيح النعجة ولدت ؟

قالت : فى زريبة الغنم خرفان صغيرة ، وسمير ابن عمك محمـــود هناك ، طيران !!

تركها راكضاً ، مقلداً حركة الطائرة ، يزن فووو حتى اختفى .

قالت ليلى : حقك علىَّ يا نينا ، أنا انتهزت فرصـــة الاحتفـــال بالشهداء فى المدرسة ، وناديت عليه فى الطابور ، أحســن ما نقول لـــه أبوك مسافر ، قلت وسط العيال تمر المسألة ، ومرت والحمد لله .

قالت وديدة : ليلى يابنتى : أنا راضية بنصيبى والحمد لله . عمرى راح ، وربنا عوضنى بعلاء ، والدور والباقى عليك أنـــت ، مشـــوارك طويل، وربنا يقدرك وتشوفى علاء أحسن من أبيه .

دخل طه إلى الحرملك مفرود الجسم ، بطيئاً مثل جمل ، فوقف الجميع لتحيته . رأى وديدة تقبل رأس ليلى التى انحنت تقبل كفها . قال مازحاً :

— وصلوا أحبابك يا ستى ، لا لزوم لى الآن .

هلت عصارى المنتهى البديعة صيفاً وشتاءً ، والتفت نساء العائلة حول الشاى فوق السباط . قالت ليلى :

— جيراننا ناس طيبين ، عندهم بنت خرجت من التعليم ، وقاعدة فى البيت — كانت تلميذة عندى فى المدرسة — وأهلها يشرفوا ، قلت يشوفها إسماعيل .

قالت وديدة : يدى على كتفك ، أنا تعبت ، نفسى يبقى له بيت ويتلم ، ومراته تملأ الدار ، اتكلى على الله وحددى يوم نزورهم .

مالت قمر على أذن أمها :

— سارح وراء بنت من البلد .

قالت وديدة : عيب اختشى ، كان لعب عيال ، وراح لحاله .

أشاحت بنورة بوجهها إلى اتجاه آخر :

— المهم تكون بنت حلال ، حلوة ؟

— قمر .. ليلة تمامه .

نظرت وديدة إلى الطابق الثانى حيث كان يسكن عبد الحكيم ،

وتذكرت أن الشقة معدة الآن لاستقبال العروس التي تـــأخر اختيارهـــا بسبب الحرب ، وآن الأوان الآن . قالت :

ـــ خير إن شاء الله ، والله وحشتنا كوثر .. على الله تلحق الفرح.

سكنت الريح ، ورحلت عن القرية مخلفةً هدوءاً ، وصمتاً، ولسعة برد محببة احتملها متولى كلاف العمدة ، رغم تقدمه فى العمــر . شعــر بنشاط يدب فى قدميه، فأقام ظهره بصعوبة ، واستنشق عبيراً حلواً رطباً . أراد اللحاق بصلاة طويلة قبل آذان الفجر، " لو أن الصحة تساعدنى مــا انقطعت ليل عــن العبادة فى العشرة الأواخر من رمضان ."

القرية نصف غافية ، والمسحراتى لم يطرق صحوها بعد . مصابيح بعيدة تخايله ، أصوات محاشر ، وغناء خافت فى دار "أبو كحيلة" التى تعد لكعك العيد. لاحظ انعكاس صورة القمر المشطورة على صفحة النيــل، فتطلع إلى السماء ، وبعث آهة راحة رغم إعياء السنين الطوال . استهلك أيامه فى عمل دائب ، لا ينقطع فى الدوار ، لم يكن الكلاف الوحيــد ، لكن الزرائب كلها تقع تحت مسئوليته ، تخصص فى جَــدْل الأحبــال ، وخرط الأوتاذ ، بالإضافة إلى علف المواشى ، وحلبها . طويــل القامــة بشكل لافت للنظر ، إذ لا يضارعه فى الطول غير حنا ، وأولاده . تقوس ظهره من طول انحنائه ، يفتل التيل ، وهو يمسك أحد طرفيه فى فمــــه ، والطرف الآخر بين أصابع قدمه اليمنى ، حتى أن إصبعه الكبير انفرج عن

باقى الأصابع بشكل دائم ، ولم يعد يستطيع ضمه إليـــها فى الأوقـــات العادية أبداً ؛ لكنه حين يهم بوضع الحبل فى هذه الفتحة تنغلق أصابعـــه عليه فوراً . كثيراً ما ظن أنها ماتت أو تكلست ، إذ يفقد كل إحساســه بها ، خاصةً فى الليالى الباردة ، وتفاجئه كتيبة من النمـــل . تســرى فى أطرافه، رغم خشونتها الشديدة ، فيفقد السيطرة عليها . لكن الصبـــاح يأتى بالعمل ، والقوة على إنجازه . لا يعرف من الدنيا غير هذا المكـــان الذى ولد فى طرف منه ، وعاش فيه طوال حياته ، يراوغه أمل دائـــم أن ينهى كل التيل ، ويحوله إلى أحبال تصل إلى عنان الســماء . يتحســس بعينيه المجدول من التيل ، ولوف السعف ، بعشق وتقدير حقيقى لصاحب اليدين اللتين جدلتاه. وتهفو نفسه للأنواع التى لم يرها ، ويحتفظ بوصلات متنوعة، طلبها من أصحابها الذين يمرون فى النهر فوق المراكب، حـــاملين الفول من الصعيد، يعلقها فوق حائط الزريبة مثل كنز ثمين ، يتملى مـــن رؤيته وصحبته. يتعجب أبناؤه ــ الذين رفضوا العمل فى صنعته ــ مـــن الفوارق الدقيقة التى يراها ، ويصعب أن يلاحظها غيره، ومن حديثه عنها كأن الدنيا هى دنيا الأحبال والأوتاد .

انتبه لصوت أزيز باب انفتح بجواره ، ورأى بيومـــى المســحراتى يحكم الكوفية الصوف حول رقبته ، ويسعل بصوت أجـــش ، فتبـــادلا التحية :

ــ مبكر اليوم على غير العادة ، والا ناوى تقابل ليلة القدر؟

ضحك متولى زامّاً شفتيه :

ـــ ليلة القدر .. ياه ، فات يجرى وما شبعنا منه ، الأيام الحلوة .. كل سنة وانت طيب .

ـــ عمرنا كله ما شبعنا منه ، ومحظوظ من تنفتح له طاقة.

ـــ ليتها تأتى ، لكن كيف ؟ هى لأصحابها ، وليست لنا يــــاعم بيومى ، طول العمر أصلى العشاء متأخراً فى رمضان ، وأقرأ القرآن حتى آذان الفجر ، لكن ما صادفتها أبداً .

ـــ أرزاق .. وكل ونصيبه .

انحنى بيومى مع الزقاق ، ودق فوق الطبلة ، وسمعه متولى ينادى :

اصحىٰ يا نايم ، وحـــد الدايم ، رمضـــان كـــريم ،

يابت يا خضرا ، ياواد يا مســـعد ، يافطـــوووم ،

يا راويـــة، يا قدرية ، اعملى مهلبـــية للعـــــــيال.

استيقظت القرية فى كسل ، وردت على صيحاته بأنوار صغـــيرة تلألأت من وراء النوافذ ، سرعان ما استجاب الأطفال ، وسرحوا وراءه رغم البرد..

أنصت متولى للصوت الذى يدغدغ حواسه ، رغم بحته التى زادت فى السنوات الأخيرة . توافقت خطواته مع الإيقاع الذى راح يخفت كلما ابتعد . تأمل السماء ، وهو يعيد فى ذهنه كلمات بيومى ، وقال :

ـــ يا رب !!

ارتجف جسمه الخالى من الشحم واللحم إلا ما يستر الهيكل الجاف.

ماذا فى سماء الليلة ؟ صفاء ، ونجوم تلمع فوق العادة ، ما كل هذه الزينة !! سبحان الله ، سمعت أن السماء كانت تتزين لميلاد الأنبياء ، لكن زمن الأنبياء انتهى ، وهذا الفرح منصوب فيها ، هل هو للصالحين من العباد ؟ ماذا فى الليلة؟ وحشة يا رمضان حتى قبل أن ترحل ؟ أحس دبيباً فى دمى ، وخشوعاً كأن روحى تريد الإفلات من جسمى ، منا كل هذه الطمأنينة ، خيمة من أمان سابل علينا ، ليت السنة كلها تكون على هذا الحال، لا أحد يخالف الله، والجن والشياطين مسلسلة ، وصيام الشتاء سهل، طلع النهار ، خلص النهار ، والنفر منا لا يحس بالتعب لا فى صبح، ولا فى ظهر ، والروح تهفهف كأنها ما شقيت وما عرفت ألم الجسم الفانى .

تسلل إلى نفسه سؤال ضحك طويلاً بسببه دون أن تظهر أسنانه :

ــ ماذا تطلب يا متولى إذا ظهرت لك الطاقة ؟

أجاب بسرعة : الستر !

توقف قليلاً ، وعاد يجادل نفسه :

ــ ماذا سأطلب ؟ وماذا يحتاج مثلى الآن ؟ والعمر كاد أن ينتهى، والعيال كبرت، عمل من عمل ، وتعلم من تعلم ، وأمهم راضية والحمد لله، لا طلبات لى الآن، كان زمان أيام الشقاء ، كنت طلبت أن يتعلم واحد منهم ، تغير الحال. كل أولاد ابنتى فى المدارس ، وعيال

البلد بحالها ، ماذا أطلب الآن ؟

تصاعدت حمحمات صغيرة ، التحمت معاً ، كأنها حزمة من ضوء، نفخت فى جسده الواهن حرارة، وتهدج صوته، والدموع تهرب من عينيه ، وتضرعت كفاه إلى الله :

ـــ الستر يا رب !!

غشيت بصره ومضات سريعة ، أجبرت عينيه على الانغلاق ، لكن رموشه عادت ترف ، وهو يحدق فى المدى البعيد، يبحث عن الطارق. كان نور يسرع كأنه قادم نحو بؤبؤ عينيه، مرق فى سواد الليل، وتوهج فى لجة ، مفسحاً الطريق لطاقة كأنها مصباح ، والمصباح فى زجاجة، تعلقت مثل ثريا كبيرة أشعت فى الفضاء الواسع ضوءاً ربانيّاً، أنار السماء كلها ، صرخ :

ـــ يا رب العالمين ، أنا لا أحلم ، هذه طاقة القدر .

تسارعت دقات قلبه ، وهو يحشد ذهنه .. ماذا يطلب ، والسماء مفتوحة له :

ـــ الستر ، الستر يا رب !!

شفتاه ضارعتان لا تقويان على نطق الكلمات ، تصاعدت داخله همهمة خافتة ، لم يعرف إن كانت مسموعة ، أو محسوسة فحسب ، ثم انتابته شجاعة حفزته على النطق :

ـــ يا رب ، املأ لى المخزن بالأحبال ، والأوتاد !!

اختفى النور كما ظهر ، تاركاً مساحةً من التناغم بين الكائنات التى خشعت له .. وتركه وحيداً تائهاً ، غريباً ، كأنه لا أهل له غير هذا الذى عرف الآن ، وما عرفه فى سنوات عمره الطويل . بحث عنه قدر ما تستطيع عيناه المتعبتان ، فلم يجد شيئاً . انهمرت الدموع مفسحةً لها طريقاً فى أخاديد وجهه الغائرة حتى امتلأت ، وفاضت على البشرة الخشنة المتغضنة . ما زالت يداه ضارعتين تتوسلان ، وجسده يهتز من فرط الرهبة، وعقله راحل وراء النور فى الأعالى حيث سدرة المنتهى ، ووجه الله .

ـــ يا رب ، أطعتك وجاهدت نفسى ، ما فعلت كبيرةً ، ولا حملت حقداً لأحد ، وأنت الوهاب، غمرتنى بفيضك الكريم، قبس من نورك ، النور هنا فى قلبى منذ ولدت . أكرمتنى ، وأظهرته لى دون غيرى.

ارتعشت قدماه ، ولم يحتمل جسمه هذه الرجفة ، ولم يشعر بهما وهما تسحبانه إلى الأرض فى وسط الطريق ، كفاه ما زالتا ضارعتين ، عيناه لا تريان إلا النور ، صخب فى قلبه ، منع عنه كل الضجة التى تصاعدت حوله ، تطوح يميناً ويساراً ، وهو راكع على ركبتيه مناجياً :

ـــ يا الله .. يا الله ..

اندفع ساجداً ، معفراً رأسه فى التراب ، وصوته المتهدج يئن :

ـــ أنا عبدك الضعيف . أكرمتنى بنورك ..

انتبه للأصوات التى ظنها بعيدةً حين حملته الأيادى من فوق

الأرض، اكتشف ملامح الوجوه بصعوبة ، منصـــور ، الفحـــام ، أبـــو كحيلة، وصابر ، وسعفان ، بكى فى صدر فرج أبو شعيشع قائلاً:

ـــ الطاقة ، الطاقة يا حاج فرج ، رأيتها .. هل ظهرت لكم ؟

غمغموا مبهوتين :

ـــ طاقة القدر يا متولى ، طاقة القدر يا ولد ؟ كبيرة يا متولى ؟

ـــ نعم ، ليتكم ترونها ، اسألوا بيومى المسحراتى ، والعيـــال فى الشارع .

قال الفحام : شارع والا غيره ، الطاقة تظهر فى أى مكان.

حدق فى عيونهم مبهوراً ، وخرج صوته قادماً من بعيد :

ـــ النور .. يا الله .. النور فى السماء ، لا فى قلبى ، نزل وفتـــح قلبى .

قال أبو كحيلة مربتاً على كتفه : يا صلاة النبى ، والله نلتها يا أبو قلب طيب ، ماذا طلبت ؟

أنصت للسؤال كأنه لا يتوقعه ، كأنه ما طلب ، وأجاب ذاهلاً :

ـــ طار عقلى ، لم أصدق أن يتحقق حلم العمر فجأة ، وأنا بينى وبين القبر خطوة .

دفع عم خليل الرجال نحو الجامع قائلاً :

ـــ نكمل الكلام فى الداخل ، والكل متوضئ .

ركض مدحت بن منصور — الذى جاء إلى الصلاة فى صحبة أبيه — إلى بيوت القرية كلها ، حتى وصل إلى المسحراتى الذى هلل ، ونقل الخبر إلى الباقين وهو يوقظهم مرتجلاً غناءه ، ولم يتوقف عن هذا الغناء بعد ذلك طوال حياته .

استعاد الرجال الكلمات التى سمعوها من متولى ، وسألوه نفس الأسئلة ، وهم يخلعون النعال بجوار باب الجامع . لم يصبروا حتى يجلسوا فوق الحصير ، ويتحلقوا حوله . لم يساور أحدهم أدنى شك فى صحة كلماته، صدقوها على الفور، غمرتهم مشاعر محبة جميلة، وهم يلتحمون معاً ، ليجلس بقربه أكبر عدد من المصلين الذين وصلوا متواترين، مسرعين ، على غير العادة بعد أن شاع الخبر .

— ماذا طلبت ؟

نظر إلى صاحب السؤال ، ثم التفت إلى أبى كحيلة صديق العمر ، وقال :

— ليس كثيراً على الله أن يحقق أملى . سألته أحبالاً وأوتاداً حتى السقف .

أطرق أبو كحيلة ثم قال : هذا من قلبك الأبيض ، ونيتك السليمة!

سأل سامى أبو مندور من بعيد ، بصوت عالٍ ساخر :

— طلباتك كانت للعمدة ؟ وعيالك ياكلوا بعضهم ؟

تطلع نحوه بدهشة مردداً :

ـــ لحضرة العمدة ؟ طلباتى كانت لراحتى ، شئ يشيل الجِمل عن كتفى ، ويملأ الدنيا ، ويكفى البهائم. أنا كبرت ، والجِمل ثقيـــل ، ولا ينتهى .

ضحك سامى أبو مندور حتى أثار سخط الجميع من حوله، فلكزه منصور فى جانبه ، وطلب منه أن يكف ، لكنه رفض :

ـــ إذا كان عند العمدة أحبال وأوتاد تكفى بلد بحالها ، تقعد أنت بجواره ؟ ها تطفح الكوتة، هاتطفح الكوتة ، حتى لو تحققت طلبـــاتك ، أين مكسبك أنت؟ والطاقة ظهرت لك !!

قال فرج أبو شعيشع : كسب صلاة النبى .. كسب النور!

رد متولى : رب العالمين اصطفانى .. اصطفانى ..

صعد المؤذن إلى المئذنة ينادى لصلاة الفجر . بعد قليـــل دخـــل الشيخ طه المصيلحى متوكئاً على عصاه ، قاموا وراءه فى صفوف متراصة دون أن يفتح أحدهم الموضوع ، وأقاموا الصلاة حتى انتهوا ، نادى طـــه على متولى الذى جاء مسرعاً إليه وقال له :

ـــ أنت تستاهل كل الخير ، وربنا يكرمنا جميعاً !!

وأردف ضاحكاً :

ـــ طيب كنت اطلب الحج .. ما حدث قد حدث ، وربنا يجعل أيامنا كلها أعياد ..

قام ، والرجال معه ، كاد الشبان أن يسألوا العمدة الدخـــول إلى المخزن لمعرفة إن كانت المعجزة قد حدثت أم لا .. وحين شعـبـــر طـــه بقلقلتهم خلفه ، التفت نحوهم وقال :

ـــ كل شئ له أوان ، فى الصباح رباح .

لم تنم القرية باقى الليل . سهروا يستعيدون القصة ، حـــتى حـــل موعد الحلابة، ودخل متولى إلى الزريبة قاطعاً الصفـــوف التى تجمعـــت بباب الدوار الخلفى الذى يفضى إلى المخازن والإســـطبلات. رجـــال ، ونســـاء، وأطفال ، أرادوا المشاركة ، منعهم الخفر من الدخول ، وهـــم يتحرقون شوقاً أن يسبقوا متولى، أو على الأقل يصحبونه ، وهو يفتـــح الباب .

شد متولى سقاطة الباب ، وسمع صوته المعتـــاد زىىى زاااا ثم سقط مغشياً عليه ، حين رأى أكوام الأحبال ، والأوتاد ، مرصوصـــة فى ركن المخزن، متساوية، ناعمةً ، خُرطت بيد ما رأى مهارتها من قبـــل . وأفاق على صوت زغاريد النساء التى جلجلت فى سماء المنتهى . ولم يفهم حتى مات بعد سنوات عديدة ، وبعد أن اجتاحت تربية الدواجن البيضاء أرض المنتهى ، لماذا غضـــب أولاده مـــن أمنيته ، وماذا كانوا يريدون له أن يفعل ؟

لم تقطع المنتهى أبداً فى أى زمن حدثت هذه الحكاية ؟ وهل هى لمتولى كلاف طه ، أم لأبيه حسن كلاف الحاج عبد القادر . وقيـــل أن

العمدة عاش سنوات طويلة يزرع التيل على "بتون" [1] حدود القطن، ثم يعطيه لمن يحتاجه بعد أن اكتفى بما رزق الله كلافه ، ولم يكن مستساغاً فى هذا الزمن بيع التيل ، أو الاتجار فيه .

الغريب أن أطفال دوار المصيلحى كانوا يسألون طه عمدة المنتهى السابق فى شيخوخته عن صحة هذا الحادث ، فكان يطلق ضحكةً طويلةً، ولا يجيب !!

---

(1) البتون: الحد الفاصل فى الأرض بين الجيران .

الشمس غابت فى عز الظهر .

ــ يا لطيف .. يا لطيف !!

صاح الأطفال الذين لم يعودوا حفاة ، ووراءهم كلاب الناحيـــة تنبح . طرقوا قعور الصفائح ، ودقوا الطبول الصغيرة ، ارتفعت حناجرهم بضحكات صافية ، وجاوروا النهر ، ينادونها ، كمـــا ينـــادون القمــر المخنوق بالسحب ليفكوا أسره . لم يكن شتاءً أو ربيعاً ، ذلك الـــذى أغرى مصباح الدنيا المتوهج أن يطفئ نيرانه، ويصيـــب سمـــاء المنتـــهى بالعتمة، بل غيمة كبيرة ، جاءت فى وضح النهار ، ووقفـــت تستـــحم بالأشعة ، وتحترق. ازداد صياح الأطفال:

ــ يا لطيف ، يا لطيف ..

الغيمة جاثمة فى المدى ، تحفر أنفاقاً فى الشمس ، وتنثر بقعاً سوداء فى السماء. وقف الناس فى الشرفات ، صرّت أسنانهم واصطكت ، تسلل إلى عظامهم نقر أشبه بنخر البرد، وتلطعت فوق جلودهم لزوجـــة مـــا عهدوها أبداً. قالت وديدة الغارقة فى صفاء شيخوختها :

ــ الدنيا كتمة ، فى الفضاء خنقة ، ما عهدناها حتى يوم سكرت

الحيوانات، يوم حادث أبو مندور ، كتمة تقبضُ القلب ، وتعصره ، يـــا فتاح يا عليم .

سكنهم ملل ووحشة المستنقعات ، ورطوبة أبيب ومسرى الـــتى تطقطق الأبواب ، لكن حوائط الدور ما تندّت . زار المنتهى كائن مـــن غبار أصفر ناعم، تلطع فوق النباتات الخضراء ، حتى كساها ، واعتلـــى الأثاث وحواف النوافذ . طالت أيامه ، حتى امتزجت بعناصر الســـهل ، وما نجا منها النهر الذى هدأ لطول ما كسروا أياديه بأطنان من الخرسانة، وسجنوا جريته ، فاختنقت أوردته ، وســـكنتها الطحـــالب الزرقـــاء . خرجت الثعالب من جحورها ، وأطلت زواحف الليل ، وشوهدت أفاع تتنسم عبير الصباح دون خوف. علا فحيحها ، بلا اعتذار ، وتحركـــت تتلوى، حتى نفذت من تحت عتبات الدور برعونة، فخيل لأهل المنتـــهى أنها جُنت ، لكن وديدة قالت :

ـــ لم أر فى حياتى فجوراً أكثر من هذا .. !

اعتصم الناس بالبيوت ، شهوراً استهلكوها فى أحاديث فارغـــة ، وأمل لم يدفعوا ثمنه فى أن تنزاح عنهم الغُمة . سدوا شبابيكهم بأقمشـــة مبللة، تمتص التراب ، وانشغلت النســـاء طوال نهارهن بإزاحة ما عبر منه إلى ممرات البيت، وسكن شرايينه ، دون جدوى ، حتى وصل إلى العيون، فالتهبت، وانتفخت ، وســـالت الأنوف ، وتجرحت حوافها . تكـــاثف ضباب باهت، فما عادوا يتعرفون على بعضهم إلا من خلال الصوت، أو اللمـــس. تخبطوا ، وهم يتنقلون من حجرة إلى حجرة . زقزق فى كـــوة الصدر حنين إلى شمس وهاجة ، مصقولة بذخائر الوضـــوح. أصـــاخوا

السـمع لأصوات ارتطام طيور بالنوافذ ، لكنهم ما تحركوا، قالوا ضلت الطيور طريقها فى الظلام. استحلفهم الصغار أن يفتحوا لها طاقـةً حـتى تدخل، ويلهوا بها، أو يسـمحوا لهم بالخروج لاصطيادها، لكن الآبـاء رفضوا خـوفاً أن يبتلعهم المدى الأصفر. زادت الأصوات حتى تخلقـت استغاثة، خيل إليهم أنها بشرية . مسحوا فى الزجاج دوائر أطلوا منـها ، كشفوا قناديل صغيرة من النور، كأنها قادمة من بطارية ضعيفة . شبه لهم أنهم يعرفون هذه الوجوه التى تنقر الزجاج بحدة، وهـذه العيـون الـتى تحـدق ، فتخلع من القلب شرايينه . تذكروا ببطء أين رأوا هذه الملامح التى وشمت فى الفؤاد صورة لعصافير خضراء ، زارتهم مـرةً، وطالبتـهم بالثأر مرةً ، وبالصحو مرةً ، وبتطهير الأرض مـرةً ومـرةً . بكـت العصافير لتى اسـود لونها ، وجف جسمها، وشـاخت من هول مـا رأت عبر الأزمان والأسفار . (اغرورقت) بدموع من دم ، رشحت فوق الطرقات ، قطرةً قطرة ، تعفنت لحظة خروجها من الأجساد التى تموت .

بحثت الأمهات فى عيون العصافير عن أولادهن ، حتى وجدت كل أم فتاها . وفتشت وديدة عن عبد الحكيم أخى زوجها ، وعبد الحميد ابنها . هالها أن تكون كل العيون هى عيونهما ، كلما تعمقت فى النظر إليها ، ما عرفت من منهم الذى يبادلها النظر فى هذه اللحظة . عيون تنبض بروح أحدهما ، ثم تعـود وتنبض بروح الآخر .

يا الله !!

سمعت بكاء أم مندور على شهيدها ، ونداء هاشم على أمه الـتى

رحلت من زمن . أرادت أن تطوطم ، وأن يتسلقوا كتفيها كما اعتادت كل الطيور . مدت يدها ، وسط أيادى الفلاحين الثكلى : أرامل الشهداء وأمهاتهم ، أبنائهم وأبناء عمومتهم .. كل البيوت .

سألوهم غير مصدقين ، والخوف يلجم ألسنتهم ، يرسم قوساً لطرقات ، والطرقات بياض الماضى ، والنسيان يتراح من تجاويف السنوات ، وكهوفها :

ـ لماذا تغيرتم هكذا ؟

شرقت العصافير ، وهى تشهق بآخر أنفاس الحياة ، وتسقط محترقاً ريشها الناعم :

ـ ليتكم ما سألتم . كانت اللآلئ الحارقة تعمى العيون أيام كان عبد الحكيم يحارب الإنجليز ، احتلت الآن قلوبكم ، وختمتها بالصمت فنسيتمونا .. وقبلتم ما لا يقبله كائن . فى الجو رائحة غدر ... ألا تبصرون ؟ هفت نفوسنا للمسة، رغم الجحود والظلم ، وتخثر الحزن فى أيام الفواجع ، تقدموا ، ساعدونا على العودة .

همَّ الناس بفتح الأبواب ، دون خوف من الغبار ، للأبناء الذين رحلوا فى حروب كثيرة ، لم يهتموا أن يحصوها . وقعت ملايين العصافير، التى كانت خضراء يوماً ، تجوب الفضاء ، جففها النسيان ، تمزقت أمام العيون مرات ، ومرات . والأهل لا يستطيعون الاقتراب خوفاً أن تتفتت الأجساد الهشة ، رغم النظرة التى رشقت الأفئدة بلهيب من الذكرى ، أيقظت فى عقولهم صوراً لأيام حلوة ، لم يستطيعوا طمسها.

قرر الفلاحون ــ الذين تأكدوا أن العصافير الخضراء فانية لا محالة ــ أن يستضيفوا موتاهم ، وأن يهبوهم نعيم الاستقرار. رأوا الأجساد تتبخر، وهى تنفث رائحة عظام متفحمة ، وباروداً . حملتها الريح حتى غابت فى الأفق البعيد ، وما عاد هناك أثر للحريق .

نسى الناس إصفرار الهواء وترابه . خرجوا يتحدثون غير متيقنين إن كان قد حدث فعلاً ، أم إنه وهم من تفسخات العزلة؟ شغلتهم ــ بعد أيام ــ عنجهية قوافل عابرة للصحارى ، والمحيطات ، جاءت إلى السوق ببضائع لامعة ، تبرق بألوان فوسفورية ، وألعاب نارية ، تزين الليل الطويل . واكتشفوا أن فى البلدة نوافذ ألومينيوم ، وحمامات من السيراميك الإسبانى ، وأوعية طعام ، وزجاجات من البللور ، والكريستال ، لم يتعاملوا معها أبداً ، رغم أنهم يشاهدونها " تتلعبط " كل يوم على الشاشة الفضية. شغلهم البريق ، حتى أنهم ما عادوا يختنقون برائحة التراب الأصفر، فرحوا معها ، و لم يلاحظوا أن الطيور ، كل الطيور، ما عادت تحط فى قريتهم .

بعد سنوات طويلة ما عرفوا كيف يحصونها ، تنبه واحد إلى أن صور الشهداء ما عادت معلقةً فوق حوائط الدور. فلما سأل ، قالوا له أن غريباً مرَّ بالقرية ، بثياب فاخرة ، وسيارة فارهة ، وغليون ينفث لهباً أزرق ، أخبرهم ــ وسط السرادق الكبير الذى أقاموه فى الجرن القديم ــ أنه جاء ليعيد طلاء البراويز بماء الذهب ، وأنه مندوب من جهات عليا أمرته بأن يخلد الأبطال إلى الأبد . لم تنم القرية ليلتها ،

فتشوا صناديق العرس الخشبية المطعمة بالعاج والصدف ، والصناديق المشغولة بالنحاس ، والصناديق التي وقعت مفصلاتها ، وفى الكودية[1]، فى حوائط الدور الواطئة . أخرجوا صوراً قديمةً باهتةً لجنود ما تجاوزوا السابعة عشرة بكثير، شعورهم مجعدة ، خدودهم غائرة ، فى عيونهم شرر من رغبة فى الحياة، ما تبددت بفعل السنين، بعضها معبق برائحة المسك والعنبر ، وأخرى لها رائحة الورد والياسمين ، وأغلبها تفوح منه رائحة الحلبة . تفاخروا وحكوا قصص البطولة ، وتباروا فى تعداد ما قدموه من شباب.

مرت سنوات ، وما عادت الصور إلى خزائنها ، ولفائفها فى القيعان المظلمة .

اعترض صوت آخر على القصة ، قال :

ــ لا .. هى موجودة أمامكم ، لكنكم لا تنظرونها . لقد أعادها الرجل بأُطُر مذهبة ، عمت البصر بأشعتها الحارقة ، فلم يعد واحد يستطيع أن يشاهدها، أو أن يقترب منها ، فنسيتموها!!

---

[1]) الكودية : دولاب صغير فى الحائط .

أنهيت الدراسة ، وعينت رئيساً لشعبة عمليات الجيش الثـــالث ، وهى فترة من أفضل فترات حياتى .. علاقة طيبة بالضبـــاط ، وبرئيـــس الجيش الثالث الذى أعطانى فرصةً للانطلاق . كان أكثر ما يشغلـــنى فى هذه الفترة أن خططنا تقليدية . شغفت بإعادة النظر فيهـــا، وتغييرهــــا وفقاً لتصوراتى . وكنت أعرض رأيى، وأتوقع الرفض أكثر من القبـــول، لكن ما حدث أن رأيى قُبِل بنســبة ثمانين بالمائة . وذهب الســـادات إلى إسرائيل فى مبادرته الشهيرة ، وانقلب الجيـــش إلى مناقشـــات حـــادة . فجرت الزيارة وتوابعها كل ما عرفناه ودرسناه عن العلاقة بإســـــرائيل . أبديت امتعاضى منها ، وناقشت وزملائى أبعادها ، وشرحت مساوئها ، حتى عاد رئيس الجيش الثالث من الحج ، ففتحنا معه الحوار، ولاحظـــت أنه يبدى قبولاً لها. كنت أعرف أن الفرق كبير بين الشعور ، والتعـــامل بحكم المنصب . وبدأنا الاستعداد لزيارة أنور السادات فى يونيـــو ١٩٧٨ للاجتماع بالضباط . طلب القائد من مساعده ومن رئيس الأركان ومنى تجهيز مسودة للكلمة التى سيلقيها أمام الرئيس .. كتب مســـاعده كلمة وافية ، وكتب رئيس الأركان نصف كلمـــة ، ولم أســـتطع الكتابـــة .

استدعانى إلى مكتبه، وسألنى :

ـــ لماذا لم تكتب ؟

ـــ لم أستطع .

ضحك ، ووقف فاتحاً ذراعيه للزميلين الواقفين فى الغرفة :

ـــ سنخرج نحن الثلاثة ، ونترك لك مكتبى .

لم أستطع الرفض . أمسكت بالقلم ، وأنا أفكر فى التناقض بين ما أريده ويريده الضباط ، وبين الممكن . فى النهاية ، كتبت صفحةً ونصفاً قلت فيها باختصار أن الجيش يرحب بالقائد الأعلى، وأننا نفهم الزيـــارة على أنها تأكيد لمهمتنا فى استعادة الأرض التى سلبتها إسرائيل فى يونيـــو، وتأمين الملاحة فى قناة السويس بعد إعادة افتتاحها. وسلمت الورقـــة إلى القائد ، وانتظرت تعليقه . شعرت من ملامحه بإعجابه بها ، لكنه سألنى :

ـــ أليست جافة ؟ الحقيقة أنها جافة جداً ..

مد يده نحوى بالورقة :

ـــ خذها ، خففها ، استعن بما كتبه مساعدى .

أمسكت بالورقة ، ثم أعدتها إليه معتذراً :

ـــ آسف يا افندم ، كتبت ما أستطيع ..

مرت الزيارة ، واستمرت انتقاداتى للمبادرة بكل صراحـــة مـــع زملائى ، ولاحظت أن الضباط الذين يؤيدوننى يصمتـــون حـــين يبـــدأ

النقاش، أما من يجادل فكان على الأقل لديه الاستعداد لقبولها.

نُقلت لقيادة فرقة فى الجيش الثانى . عموماً أنا أميل لعمل القيـــادة أكثر من رئاسة العمليات . ذهبت وأنا أســأل نفسى : ما هو هدفك ؟ وبعد تفكير لم يطل قررت أن تكون الفرقة جاهزةً لتنفيذ المهام التى تكلف بها فى الحرب ، بكفاءة وشرف ، لأن النصر أو الهزيمة أكبر من مســئولية فرقة ، وهذا ما أبلغته لزملائى الضباط .

فوجئت بنقل استعراض أكتوبر العسكرى إلى أرض الجيش الثانى بدلاً من طريق النصر فى القاهرة ، فور توقيع اتفاقية كـــامب ديفيـــد فى سبتمبر ١٩٧٨ . وطلبَ منى الحضور مع ضباط الفرقة فى الاســـتعراض . شـــعرت بثقل المهمة ، واستكثرت على نفسى الاشتراك فى اســـتعراض هذه هى روحه العامة . كما أننى لا أحب الاســتعراضات ، ولى معـــها تاريخ بالرفض منذ وجودى فى مدرسة المشاة بعد التخرج .

فتح درج المكتب ، وأخرج سلسلة مفاتيح من الذهب الخالص ، وعلباً قطيفة تحوى أزراراً من الذهب والأحجار الكريمة، وبعض المشابك الذهبية لأربطة العنق، وسلسلةً محفور فوق دلايتها اسمه ، وعلى وجهـــها الثانى آية الكرسى ، وغليون وساعة ثمينة ، يحدد الماس فيها بدء النـــهار ومنتصفه ، وعدداً من أشهر ماركات النظارات . قام إلى الدولاب الصغير المتزوى فى ركن الغرفة وفتحه، ومرر أصابعه فوق القمصـــان الحريريـــة والقطنية الفاخرة ، وهز رأسه قائلاً بصوت عالٍ :

ـــ لا يحب الاستعراض ؟ ما كل هذا ؟ وكيف يحرص شخـــص

واحد على كل هذه الأناقة والرفاهية ، ويعيش خشونة الحياة بهذه الطريقة التى أقرؤها ؟ يا الله، من أنا ؟ من أنا ؟

ـــ تقول أن الصحراء علمتك الصبر ، أين هذا الصبر ؟

حاول أن تتذكر ما حدث فى استعراض ١٩٥٥ . وكما حدث وصالحت المتناقضات السابقة ، ستصالح هذه .

جلس فوق كرسى "فوتى" أمام المكتب . وأطفأ الأنوار ، إلا ضوءاً خافتاً..

عينت ضمن قوة الاستعراض ، فذهبت إلى قائد الجناح وقلت له :

ـــ أنا جديد فى المدرسة والجناح ، ولا أميل إلى الاستعراض، فأرجو إعفائى منه !!

رد بغضب : "باظ" الجيش ، هل أصبح العمل على الكيف؟ نفذ الأمر !!

تأزمت العلاقة معه . وفى أحد الأيام ، وصلنا متأخرين إلى الكلية، فسألنى عن السبب ، فأخبرته أن السيارة تأخرت . لكن ردى لم يعجبه ، فأرسل خطاباً سرياً يسألنى رسمياً عن أسباب التأخير . انتابتنى حالة شقاوة ، بروق من السخرية داعبت عروقى، فأجبت بأن دفتر البوابة يشير إلى الثامنة إلا خمس دقائق ، ونوبة الضباط تبدأ فى الثامنة إلا عشر، ولا أعرف كيف أكون موجوداً قبل هذا الموعد فى مكانين ؟ حولنى إلى مجلس تحقيق انتهى إلى لا شئ .

ابتسم ، وقام فأشعل الضوء ، وسأل : ماذا أنا فاعل فى هذا الاستعراض بعد ثلاث وعشرين سنة ، وماذا كتبت ؟

مرض ألزمنى الفراش أسبوعاً كاملاً ، وسألت نفسى إن كان المرض الذى جاء فى وقته هو مرض عضوى بالفعل ؟ أم أن جنسمى رفض الاشتراك والزحزحة عما أجبرت الظروف والواجبات عقلى على قبوله؟

لم أناقش الأمر كثيراً ، وحمدت الله على حدوثه ، لكنه ذكرنى بأحداث مرضى فى عام ١٩٧٢ ، والشهور الأربعة التى قضيتها فى مستشفى المعادى ، أعانى من آلام لا يعرفها الأطباء . عاد الإحباط يعتصرنى، فأقاوم ، وتصمد الروح ، لكن إلى متى ؟!

أمسك الدفتر ، ودق فوق خشب المكتب مرات وهو يتلوى ، كم مرة يا جسدى رفضت الانصياع لى؟ ربيتك ودربتك بدأب ، وصبر : فروسية وتدريبات لياقة عنيفة ، و"اسكواش راكت" ، وصيد ورماية . ماحاجة الضابط لأكثر مما فعلت ؟ هل ضغطت عليك بإرادتى حتى وقعت ؟ أم أن الحادث لم يكن صدفة؟

عدت إلى العمل . لم تخل الأحداث من مضايقات ، حتى لو كانت بعيدةً عنى ، لابد أن يمتد تأثيرها . كنت أشبه كائناً ماصاً ، أعصابه مستعدة فى كل لحظة للالتقاط عن بعد ، ويكفى أن يأتى إلينا بيان بتقييد الدفاع الجوى، بسبب زيارة رئيس وزراء إسرائيل ، حتى ينقلب مزاجى .

تبنت صافى زوجتى الدعاية للمبادرة . ناقشتها طويلاً بهدوء، دون جدوى . شعرت أنها تتلذذ بإيلامى أكثر مما تتحمس للسلام المزعـــوم ، وتسعد لمجرد الاختلاف معى فى الرأى . ثار قديم بينها وبـــين عملـــى فى الجيش. تعجبت لتمسكها الشـــديد بعودتى إلى القاهرة ، بل والتلويـــح بالتقاعد ، رغم أنها لا تحتمل وجودى فى العطلات القصيرة الـــتى أعـــود فيها، وتتشاجر معى لأتفه الأسباب. رتبت أجازتى حتى ألحق بعيد ميلاد سمير، لكننى تعطلت عن الخروج فى الصباح المبكر لأشغال طارئة ؛ فقـــد كُلفت بتعيين حرس شرف فصيلة لتأدية التحية لرئيس الجمهورية أثنـــاء مرور مركبه من بورســـعيد ، وعبوره القناة . عينت قوةً مـــن ثلاثـــين جنديًا وأعطيتهم التعليمات . فى الواقع لم أشـــــرف عليـــها بنفســـى وانتظرت الخبر بالتليفون .

مر الرئيس أمام القطاع ، وأُديت له التحية .

ركبت السيارة إلى القاهرة فور انتهاء المهمة . قطعـــت الطريـــق بسرعة مكنتنى من الوصول بصعوبة إلى البيت فى وقت مناسب . انشغلت طوال سفرى بالتفكير فى تربية ابنى الوحيد الذى أخاف عليه من تدليـــل صافى . جاء بعد سنوات من الحرمان، والعناية الإلهية وحدهـــا كفيلـــة بإنقاذه من اهتمامها المفرط . هو طفل ذو معدن نقى على أية حال ، غداً ينمو وينفلت ..

أشاعت الأنوار الملونة التى اعتلت الفيلا الصغيرة الفرح فى نفسى ، وتوقعت رد فعل سمير لوصولى بعد انتظار . ناديته من وسط " زيطـــة " الأصـــحاب فجاء مهرّولاً إلى حضنى . علقت صـــافى علـــى تـــأخرى

بقســـم أن تذبح خروفاً يوم خروجي مـــن الجيـش ، فلـم أعلـق ، وانشـغلت بتحية الضيوف ، وإطلاق أكبر ضجة ممكنة لإعلان بلـــوغ سمير العاشرة ، ثم وقعت في مصيدة رسمتها صافي لمناقشة الأوضاع علـى الجبهة وظروف السـلام وإمكانياته . التف الكبار في حلقـة تـاركين للصغار الاستمتاع بالحياة . حاولت الإفلات دون جدوى ، استهلكني الشـرح ، وتكاثفت الكلمات في سحابة قاتمة عبرت سمـاء الحفـل ، مفرداتها التعب، وعدد الشهداء، وقدرة أمريكا وضعفنا ، وابتعاد الروس ، وحلم السلام . قلت حاسماً الموقف :

ــ نعم سيتوقفون عن الحرب معنا مؤقتاً ، وسيأخذون أراضـي الدول العربية المحيطة قطعةً قطعةً ، مرةً بسبب الإطلال على البحر ، ومرةً بسبب المياه العذبة والأنهار ، ثم يعودون إلينا بعد أن يكونوا قد زرعـوا الفتنة لتصبح مصر أرضاً صالحةً للسقوط .

فاجأني اندفاع صافي وصراخها :

ــ تعبنا . نريد الحياة في هدوء مثل خلق الله . دفعنا الثمن طوال العمر . ابق بيننا الآن ، اختر مكاناً في القاهرة ، ويكفي مـا عشتـه في الجبهة سنوات الحرب.

قلت بهدوء ، محاولاً امتصاص الغضب :

ــ مكاني هناك ، والحرب قادمة . إذا لم أدفع ثمنها اليوم أو غداً؛ فسيدفع ابني ثمنها . ومن يعرف كيف ستكون ظروفه ؟ بل إنني أكـاد أستبصر ظروفه منذ الآن .

انتهى الحفل بوجوم بدا أبدياً ، انطبع على وجه صافى ، فالتزمت الصمت طوال أجازتي . عدت إلى عملى ، وانشغلت به، حتى جاءت اللحظة التى صبغت حياتى ببصمة أبدية لا مفر منها. لم يكن هذا اليوم ينبىء بأى شئ ، تكرار لأيام كثيرة مشحونة بالعمل ، والتدريب . الماء فى القناة منساب بهدوء وميوعة الأشياء المصنوعة التى لا لون لها ، رغم أنها ربيبة الآلام ، والفجيعة . تختزن على ضفتيها عرق الدم الممتد عبر الزمان من الوادى إلى الصحراء مجاهراً بالرغبة فى الحياة . استيقاظ عادى فى الصباح الباكر ، وإجراءات تمطية حتى العصر ، اتصل بى مندوب العمليات ، وأبلغنى بإشارة :

اليوم ٢٨ مايو ١٩٧٩ .

تُعين قوة لتأدية التحية لعدد ثلاث ناقلات جنود إسرائيلية تعبر قناة السويس من الجنوب إلى الشمال .

انتفضت ، فز الغضب من كيانى فلم أعلق . لا أعرف إن كنت قد استرجعت حياتى العسكرية كلها ، أم تجمدت الحياة العسكرية فى الكلمات . قلت بهدوء :

نأسف لعدم تنفيذ هذا الأمر

أدرت ظهرى للموقف كأنه ما كان إلى أن يتم استدعائى إلى تحقيق رسمى. لكن ذلك لم يحدث ، وانشغلت بالعمل متعلقاً بالأفق البعيد الذى أمتلكه ، ولا يمتلكنى ، بالتحديق فى وجه المستقبل بثقة .

قابلت رئيس أركان الجيش بعد يومين مصادفةً ، وسألته :

— ما هى حكاية الإشارة التى أرسلتموها لى ؟

قال مازحاً :

— ماذا أفعل لك ؟ إذا كان الرئيس السادات فى جزيرة الفرسان قد أدى لهم التحية مرتدياً ملابس البحرية!

لم أعلق .

سرت الإشارة والرد عليها مع إيماءات الصحراء ، وعبرت وديانها وسفوحها ، وجبالها الصغيرة شمالا، وعادت إلى السرايا فى الجنوب ، وتسربت مع الحنين إلى الرجال ، ولم أدر كيف تضخمت حين عادت لى فلم أتعرف عليها .

.. ..

.. ..

.. ..

قال الفلاحون حول طبالى العشاء إن محمود المصيلحى جاءه أمر عسكرى بأن يحمى سفن إسرائيل التى تمر — للمرة الأولى — فى القناة ، فوقف مثل أسد جسور أمام رؤسائه ، وقال لهم نحن هنا للدفاع عن مصر ضد الأعداء ، وليس لحماية الأعداء. وسألت كحيلة ابنها عبد المنعم المتطوع فى الجيش .

ـــ سيناء : فيها كم عدو ياعبده ؟

فلم يستطع الشاب الذى لم يستكمل ربع قرن مــــن الزمـــان أن يكمل طعامه، وترك صحن "المقصوصة" [1] التى صنعتها أمـــه خصيصـــاً لعودته ، وقام خارجاً من الدار وسط ذهول أخوته المتحلقـــين حولـــه ، فرحين بعودته من الجبهة .

وقالت كحيلة ، تعليقاً على فساد اللمة التى تحلم بها كل شـــهر ، وقشعريرة تسرى فى بدنها ، دون أن تستطيع إبعاد النظرة الغريبـــة الـــتى تسمرت فى حدقة ابنها، والتى علقت بوجهها وملابسها طويـــلاً ، بـــل أقلقتها فى منامها أيضاً :

ـــ والله ما أنا فاهمة حاجة ؟ الناس فرحانة وتحكى وابنى غاضب . كان لازم ياربى سيرة محمود وغير محمود ؟ فى فرحهم زعلانين وحزنهـــم زعلانين ؟!

قال ابنها حنفى :

ـــ هل صحيح يا أمى أنت أرضعتيه ؟

قالت : لا . أمى ونسوان البلد بحالها ، أصله ياعين أمه كان يرضع كل يوم من واحدة .

.. ..

.. ..

.. ..

---

[1]) المقصوصة : معجنات تشبه المكرونة .

قلب محمود الأوراق المكتوبة بين يديه . لم يجد فى الدفـــتر غـــير أوراق قليلة العدد ، باقية من مذكراته .

كم أشعر بحاجة إلى طعام شهى ، ودفء أمى ، التى تتســرب إلى المكان مثل نســمة صيف هادئة ، وتعده بنفسها ، كأنها ما فارقتنى طوال رحلة الحياة ثانيةً واحدةً ، فى الخيمة ، والمعسـكر ، وغرفة مكتـــبى فى القاهرة، وعاشت الحرب معى أيضاً. أريد أن أقبل يدها ، وأقول لها أنهــا استردتنى، حتى هذه الأوراق ، لم أعد فى حاجة إليها الآن ، فأنا أعرفــها جميعاً ، ويجب أن أعطى لنفسى فرصةً حقيقيةً لاتخــاذ قــرارات إعــادة الانخراط فى الحياة ، ويكفى ما ضاع .

تك .. تك .. تك ... دخلت وديـــدة ، مرتاحــة القســمات، كعهدها دائماً، خفيضة الصوت باسمة . دمعت عيناه ، ووقف هاشاً لها ، وانحنى يقبل كفها ، وهى تقول :

ـــ جئت أسألك إن كنت تقبل الانضمام إلينا فى العشاء ، العائلة كلها موجودة .

قال ، وما زالت رأسه مدفونةً فى صدرها ، محنيةً لتتلقى قبلتها :

ـــ أأمرينى .

كأن الذى بنى الدوار كان يعرف أنه لا يبنى بيتاً فحسب ، بكنه يبنى شيئاً أشبه بمرسى للقوارب ، يعمل حوله عمال دائمون وآخرون مؤقتون ، وتأتيه بواخر تفرغ شحنتها وترحل ، وقد يتبقى فى الميناء نفر ، أو اثنان يستهويهما المكان أياماً أو شهوراً، ويمتد البقاء ببعضهم حتى يصعب عليه الرحيل . تراهم فى شرفات الدوار : مطلقات وأرامل ، عاطلون بالوراثة فقدوا ثرواتهم، يحطون كلما ضاق بهم الحال، يطلقون أبصارهم إلى المدى، يبحثون عن أيام هاربة، ناسين أنهم هم الذين فروا منها إلى السكون . والدوار يزدحم أياماً ، ويعانى الملل والفراغ أياماً أخرى كثيرة . وقد حدث أن توالى وصول أفراد من العائلة فى أسبوع واحد كأنهم على موعد للعودة ، وبدا الدوار كأنه استعاد زمن الضجيج الماضى. دبت فيه العافية ، ونشط الحرملك مثل خلية نحل فى موسم جمع الرحيق ، واشتعلت أفرانه وكوانينه طوال اليوم، وعادت وديدة تدب فى كل مكان فى نفس اللحظة، اكتسبت قوتها من تدفق العائلة ، واحتياجاتها للخدمة.

جاءت بيللا ابنة حيدر بعد أن أنهت دراستها ، وفتحت الجناح

الذى عاشت فيه مع أبيها ، وزوجته كريمان وابنهما حكم، قبل إصرار كريمان على النزوح إلى القاهرة حيث توفى حيدر . راحت ترممه بدأب النملة التى لا تكل، رغم اعتلال صحتها بسبب وراثتها لمرض فى القلب من أمها التى رحلت يوم ولادها. بعثت فى أرجاء الدوار ذكرى عطرة لإقبال الشفافة ، التى كسبت حب العائلة كلها ، رغم الزمن القصير الذى عاشته بينهم .

وجاءت نعيمة ، التى تلاعب بها دوار أبيها ، كما يتلاعب طفل بعصفور صغير مربوط من قدمه ، يطلقه للطيران ، ثم يجذب الخيط ، ويعيده إلى كفه . عادت إلى المكان الذى حطت فيه ورحلت مرات ثلاث، قبل أن تقرر العودة النهائية إليه . إذ تزوجت نعيمة فى الثالثة عشرة، وكانت جميلةً هذا الجمال الشركسى المصرى الذى يلفت نظر الرجال الذين يحملون ملامح تعتمد على سمار البشرة والشعر المجعد ، فاختارت من بين خطابها عطية سيد أحمد ابن صديق والدها الحميم . وما كادت تبتعد خطوات بالتختروان عن دوار أبيها حتى اخترقت صدر العريس رصاصة ، وقلبت الفرح ، الذى تحدثت المنتهى بيذخه ، إلى غم أرّخت به القرية أيامها . عادت عذراء إلى دوار أبيها ، وعاشت تلوم نفسها على أنها جلبت النحس ، حين فكت " التحويطة " التى قدمها لها الشيخ، ليلة زفافها . ثم تزوجت بعد سنتين ، من إبراهيم مسعود عمدة قرية الهور ، أرمل أربعينى ، وله ثمانية من الأولاد ، أعجبتها شطارة ابنته الكبرى وديدة فزوجتها لأخيها طه المصيلحى . كان حمل نعيمة عزيزاً ، فلم تنجب غير حلمى، بعد سنوات طويلة من زواجها ، ومات

عنها زوجها ، وطفلها لم يبلغ العاشرة . ولم يمر وقت طويل حتى تشبت المعارك بينها وبين أبناء زوجها على الميراث ، ونصيب حلمى، فحملته ، وعادت إلى الدوار ، للمرة الثانية ، مقررةً أن تبقى فيه إلى الأبد. لكن حلمى سرعان ما احتاج إلى الرحيل للمدرسة الثانوية ، فرحلت معه إلى القاهرة ، ثم الإسكندرية ليلتحق بجامعتها . فلما تزوج حلمى من نحى ابنة عمها عاشت معهما فى نقار متصل، حتى قررت العودة النهائية إلى بيت أبيها بعد ما يقرب من ربع قرن من رحيلها الثانى . تغيرت نعيمة كثيراً . لم تعد تلك الشابة التى وصفتها المنتهى ليلة زفافها بأنها مترد بتمامه، وتساءلت أين كان يخفيها العمدة، إذ بدا ضياء وجهها ساعتها وكأنه ما شاف الشمس أبداً . جاءت تتكئ على عصا نُحِتَ طرفها على شكل رأس أسد ، مرتعشة الكف ، محنية الظهر ، تتحرك بصعوبة بسبب أوجاع الروماتيزم . خفت صوتها الآمر مستبقياً أنّة الكبرياء ، وعكست عيناها نظرات صارمةً مشمئزةً من عدم دقة من يعيشون حولها. لها هيئة أرستقراطية ، سمينة بغير إفراط ، تعقد شعرها الأبيض ملتوياً تحت شبكة رقيقة من الخيوط بدلاً من الضفائر السوداء الطويلة ، التى كانت تضيف إليها أيام العز"الصفا"، وهو أسلاك من الذهب الخالص . لها ــ رغم وهن عافيتها ــ ذهن صاف رائق ، وسمع حاد ساعد وديدة ــ التى احتفظت برشاقتها وديناميكيتها ، وعانت من ضعف السمع ــ على إقامة علاقة من التكافل، فباتا أشبه بشخص واحد يتكئ على أبعاضه . احتملتها وديدة طوال حياتها ، ورعتها فى كبر سنها ، رغم أن نعيمة لم تنس ، للحظة واحدة ، السلطتين اللتين تتمتع بهما تجاهها :

سلطة زوجة الأب ، وسلطة أخت الزوج . ولم يتناقض هذا فى نظرها مع حبها الشديد لها، خاصةً أنها لم تكلّ بها أبداً ، حتى أن نعيمة فضلت أن تعود لتنهى حياتها فى المكان الذى ولدت فيه. وشهد العصر جلوسها فوق مقعد عال، أمام الحصير المفروش فوق أرض السباط لجلسة العائلة تستمع إليهم، وتعلق من وقت لآخر. تبدو مثل تمثال يهتز ، منحوت من تاريخ طويل لطبقة لم يبق منها سوى أطلال، تنتظر هبة ريح.

توالى وصول العائلة. عادت كوثر من السعودية ، بعد أن نقل زوجها محمد سليم أعماله الرئيسية تدريجياً إلى مصر ، مستبقياً فرعاً لشركته هناك. وشهدت المنتهى حالة شراء محموم للأرض الزراعية التى تعانى من الكساد . ولم يفهم المزارعون ـــ الذين أسرعوا بالتخلص من الأرض أمام إغراء السعر المعروض ـــ سبب اهتمامه باقتنائها وهو ليس بفلاح ، لكن كان من الواضح للمقربين أن محمد سليم ، الذى أشرف بنفسه قبل سنوات على تمويل مؤسسة كبيرة تضم حضانةً ومدرسةً ومسجداً ومستشفى فى كل من الهور والمنتهى ، إنما يرتب لإقامة مشروع ما فى كل من القريتين ، لم يفصح عنه بعد ، وأن تحت يده أموالاً كثيرةً لا يعرف أحد مقدارها ، يتصرف فيها بكل راحة واطمئنان.

نسى الناس خروج كوثر وزوجها إثر محاكمات ١٩٥٤ ، بعد أن انتظمت زيارتها للمنتهى فى السنوات الأخيرة، حاملةً للعائلة والأصدقاء هدايا ثمينة ، من بينها طرح للشعر و"إيشاربات" حريرية ، مقنعةً النساء بالحجاب ، بالترغيب تارةً ، والترهيب تارةً ، حتى أن ودبدة التى لم تخلع الغطاء من فوق شعرها أبداً ، بعد أن تزوجت بسنوات قليلة،

لم تفهم سر شغفها هذا ، ولا عصبيتها الشديدة التي تواجه بها رغبة إحدى الفتيات بالبقاء سافرة كما هي . وكانت تتذكر كوثر قبل الزواج مرتدية آخر صيحة في خطوط الموضة . فساتين بدون أكمام ، وأحياناً بدون كتف . عارية الظهر في حفلات السهرة . واحتدت عليها ذات يوم ، حين لاحظت أن ابنة خالتها — التي جاءت تطلب منها مساعدة زوجها في الحصول على عمل في السعودية — خرجت غاضبةً لأنها اشترطت أن تساعدها بعد أن ترتدي الحجاب . كانت واقعةً سمعت بها العائلة كلها ، إذ لم تتصور كوثر أن تناقشها أمها بشدة الحدة، واعتبرتها معركة تحدٍ ، فازت بها في النهاية أمام رغبة الرجل في السفر ، وخضوع الزوجة لشروط كوثر. وتحدثت العائلة بشيء من التكتم ، دار همساً، أن ابنها هشام لا يصافح النساء، وأنه يتوارى ورائهن حين يدخل إلى الحرملك حيث جداته ، وخالاته ، وبناتهن ، وأنه يظل واقفاً محني الظهر مطأطئ الرأس، لا يرفعها أبداً، وترمش جفونه بعصبية شديدة غير مبررة ، على عكس أخيه وليد ، الذي اكتسب حب العائلة على الفور ، لدماثته ، ومرحه ، ومرونته الشديدة .

عادت بنورة من باريس بعد زيارة سريعة لزوجها نبيل إبراهيم الذي خرج بعد أحداث سبتمبر مع بعض الصحفيين . قالت لهم ساهمةً ذات مرة :

— هل تصدقون أن زوجي ، بعد كل هذا العمر ، كأنه ما تزحزح خطوةً عما كان يفكر فيه قبل ثورة يوليو : "الثورة غداً" .

ينتظر رد فعل الناس ، وفهمهم . لديه أمل غريب فى تغيير كل شـــىء . أخفيت عنه كل ما أســـمعه حولى ، حتى لا ييأس . أحد الثوار الذيـــن كانوا يحاربون الإنجليز ويعيش منفيّاً هناك، قال لى باطمئنان غريب : نحن نقاوم ما يفعله الســـادات، وسيحملنا الناس على الأعناق عندما نعـــود، ويلاقوننا بالورد حين يكتشفون حجم الخديعة . لم أستطع الرد عليه ، من منا الواهم ، أنا أم هم الذين مازالوا يحلمون ؟ بعضهم عاش ســـنوات من السجن فى كل العهود، وسنوات من الهروب داخل البـــلاد ، وســـنوات قادمةً من النفى والتشرذم فى الغربة . لم أنم ليلتها ، وبعد أن خرج ضيوف نبيل سألته : هل يعقل أنكم بتياراتكم المختلفة فى المنفى منتظرون تغيـــيراً سريعاً ؟

قال بهدوء :

ــ لا ، فتحوا القمقم للمارد الذى سيدمر المعبد على من فيـــه ، الحياة يا بنورة لا تسير على قدم واحدة، لابد من يمين ويسار.

تناقشوا كثيراً دون أن يصلوا إلى شىء ، وأصبحـــت العـــادة أن يعملوا وأن يتكلموا !

ذات مساء طرح عبد الله بعد العشاء كلاماً جديداً ، قال :

ــ شحّت الكتاكيت من الســـوق ، أحـــد مكـــاتب التصديـــر والاستيراد عرض علينا كتكوتاً إسرائيلياً ، أتصدقون ؟

قالت نعيمة : يا نهار أسود !

قال محمود : ياما فى الجراب يا حاوى .

قال فريد شوكت : مستحيل طبعاً .

هاصت الجلسة ، وعلت أصوات رافضة حتى شق الضجيج صوت إسماعيل قائلاً :

ـــ رأس المال بلا وطن !!

قال عبد الله غاضباً : على رقبتى ، والله أحرق المزارع أحسن .

قال إسماعيل : تتحدث بعواطفك ، لو لم تجد غيره ، أو وجدته أرخص سعراً ، فستشتريه ، لأنك لن تنافس منتجاً يربى بتكاليف أقل .
صمت الجميع .

قال محمود : الموضوع كبير جداً ، انتبهوا !

قالوا بالإجماع : لن نتعامل مع بضاعة إسرائيلية ، مهما كان الثمن.

ارتبك محمود أمام الغزو الذى حل بالدوار . لم يعرف إن كان ضجيجاً مؤقتاً ، أم أن زمن الضجيج الماضى قد عاد . لكنه أجل التفكير فى إجابة السؤال الذى طرح نفسه على ذهنه فجأة عن صلاحية المكان للبقاء فيه ، تاركاً للأيام المقبلة الرد عليه . احتفظ بمسافة من الصمت الودود بينه وبينهم ، وانزوى معظم الأوقات بين غرفة المكتب والحقول . عاد إلى ممارسة هوايته القديمة فى التجديف ، لكنه لم يعد للصيد ، بل يصحب القارب فى رحلة طويلة نهرية يقلب فيها أيامه وأفكاره على مهل، ثم يعود إلى أوراقه يسألها أن تفصح عما بها. أقلقته

عودة عمته نعيمة أم حلمى التى أحبها بشدة طوال العمر ، وسأل نفسه "هل يعقل أن تختلف نهى مع عمتى ، فتدفعها للبعد عن ابنها الوحيد فى هذه السن ؟ لا يوجد سبب واحد فى العالم يبرر هذه الفعلة ، حتى لو كانت عمتى أمنا الغولة . كيف تتركها — وهى تقترب من الثمانين — للإهمال والغربة ، وهى لا تملك من الدنيا غير حلمى ؟ نهى ؟!"

أضاءت صورة فى رأسه وبرقت ، وسمع صوته صبيًا يصرخ من بين خشبات الدرابزين : "هادئ . ابن أمه" ، لم يجد صعوبة فى استعادة الواقعة. يومها، دخل إلى الحرملك بثياب مبللة ، شعره الأسود الفاحم ملتصق بجبينه وأنفه الطويل، راكضاً نحو الدرج . صاحت وديدة عليه :

— أين كنت طوال اليوم بلا طعام ؟

— تجلسون هنا والبلد هائجة ، وفيها غريق ؟

ركض هارباً إلى " المقعد " [1] فى الدور الأول ليغير ثيابه قبل أن يراه طه . سمع جدته تقول لأمه :

— شوقى ، حلمى عاقل . ربنا يهديه .

وهو يرد عليها مستنكراً : عاقل ؟ ابن أمه !

استجمع فى رئتيه هواءً كثيراً ، حزيناً : "هل عانت نهى بين رحى أم متسلطة ، وزوج متخاذل لم يوازن بينهما ؟ لماذا لم أسألها عن أحوالها طوال العمر؟ ولماذا لم أقبل مساعدة حلمى حين حاول أن يقترب منى بعد

---

[1]) المقعد : غرفة علوية فى بيوت الفلاحين .

الحادث ؟ كان أعز أصدقاء طفولتى وصباى ، ماذا حدث لعلاقتى به ؟

واضح أن الحروب شغلتنى مدى الحياة ، فلم أحتفظ بأية علاقة سليمة . أم أن هناك أسباباً أخرى ما زلت أجهلها ؟! لماذا أجهد عقلى بهذا الشكل ؟ ألا يكفى ما أصبحت أعرفه وأتذكره؟!"

دخلت أمينة ، مربيته فى الطفولة ، وراعيته طوال العمر ، بثياب نظيفة تضعها فى دولابه . قالت :

ــ العواف .

قال : أهلاً أم سالم ؟ ألم يصلك شىء من سالم حتى الآن ؟

قالت : من يوم ما وصل جواب مع حسنين أبو كحيلة من شهرين ، وأنا لا أعرف إن كان حيّاً والا.. ؟؟

قال : لا تخافى .. هو فى مكان بعيد عن الحرب .. ربنا يطمئنك عليه .

كان يكذب ، وكانت تعرف ذلك .

قالت : الله يطمئنك ، ويطمئنى عليك انت يا بنى .

خرجت تغمغم "يقطع الفراخ وسنينها" ، وأمسك هو بالأوراق ، وعاد يقرأ .

استغرق الصراع العربي الإسرائيلى كل حياتى . لم يخل يوم من اعتباره الحقيقة الوحيدة . لم أستطع أن أتسامح مع الواقع المفروض إجبارياً ، ولم يتغير رأيي بتغير الظروف . استغرقنى العمل العادى فى الفرقة، ولم تنقطع المناقشات ، وتعددت المحاضرات ، واللقاءات بين الضباط والقادة . جاء إلينا مدير أكاديمية ناصر للحديث عن المعاهدة ، وعرض أفكاراً استفزتنى ، فانتظرت أن يهدأ الحوار، وطلبت الكلمة . قلت :

ـــ خلال ثلاثين عاماً من دراستنا للصراع العربي الإسرائيلى. كنا قد وصلنا إلى نتيجة هي أن الاستعمار الإستيطانى لا ينتهى إلا بالقضاء على أحد الطرفين، هل حدث شيء يجعلنا نغير هذا الاستنتاج ؟

انتشر فى القاعة صمت قلق ، شعرت به وأنا أعود إلى مكانى ، وخزات توتر مكتومة ، وهمهمة خافتة ، والمحاضر يبدأ الإجابة . قال باختصار منتقياً كلماته بصعوبة وصلتنا جميعا :

لابد أن نكون حذرين ، رأيي أن يكون السلام مسلحاً .

التقط الخيط قائد الجيش ، وطلب الكلمة ، قال :

تأتي بعض الظروف يرى فيها الطرفان تجميد الصراع لفترة. لكن لابد أن نعرف أن الصراع لا ينتهي بهذا الشكل .

توالت المحاضرات التي دُعيت فيها للحديث ، رغم أن معارضتي للمعاهدة أصبحت معروفةً على نطاق الجيش كله . في يوليو ١٩٧٩ طلب مني مخاطبة مجموعة من القادة حول الدفاع عن الساحل عند المحور الواصل بين القنطرة والعريش . بدأت كلمتي بفقرة كنت قد قرأتها على لسان مناحم بيجن : "المشكلة بيننا وبين العرب ليست هذه القضية أو تلك، إنما المشكلة أن وجود أحدنا ينفي وجود الآخر" . واسترسلت بالتأكيد على هذا المعنى ، والموافقة عليه ، وصولاً إلى أن السلام ليس نهائياً .

وتكررت المحاضرات وسط انشغالاتي المتعددة ، حتى جاء يوم ، مثله مثل أيام الخطر ، بدا طبيعياً لا يبشر بما يحمل خلف ظهره . تسربت الساعات باطمئنان حتى تكتمل لعبة الخطر بالمفاجأة . كان العام على وشك الانتهاء . نزلت إلى القاهرة لأعرض نفسي على طبيب عظام ماهر . كنت قد وقعت ، والتوت قدمي اليسرى ، ووضعها الطبيب في جبيرة استمرت دون تحسن . ذهبت إلى مستشفى المعادى ، وعدت في حالة لا تختلف كثيراً ، ضائقاً بالجبيرة التي تعوق حركتي ، وأنا لا أطيق الجبس . أفكر في تعليمات الطبيب بالتزام الراحة. لكن من أين تأتي الراحة وسط كل هذه الالتزامات؟ انشغلت بأموري الخاصة حتى غلبني النوم ، صحوت على دقات الجرس . انتبهت إلى أن الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً، وصافي تهرول فزعةً لتعرف من الطارق. قلت لها :

ـــ انتظرى ، سأفتح أنا الباب .

وجدت شاباً يرتدى ملابس مدنية :

ـــ سيادتك العميد محمود المصيلحى ؟.

ـــ نعم .

ـــ اللواء مدير المخابرات بالنيابة يريد سيادتك حالاً !!

ـــ الآن ؟

ـــ نعم .

ـــ دقائق لأرتدى ملابسى .

فهمت . ذهبت معه بعد أن طمأنت صافى وسمير اللذيـــن طـــار صوابهما . راجعت موقفى فى الطريق، شهور ســـبعة مرت ، منذ رفضى تأدية التحية للناقلات الإسرائيلية . جاء وقت الحساب. لم أشعر بلحظـــة ندم واحدة . فعلت ما أملاه ضميرى . تذكرت استدعاء مديـــر الكليـــة الحربية لى فى بداية عملى كمدرس، وسؤالى عن الحـــوار الـــذى دار فى سيارة الضباط أثناء عودتنا إلى بيوتنا ، والانتقادات التى وجهها زميلنا إلى تصرفات جمال عبد الناصر ، ثم استبعاده من الجيش بعـــد ذلـــك . درس للجميع ، بأن يبتعد العسكرى عن السياسة . وهل من تورط أكبر مـــن تورط العسكرى فى السياسة ؟ إن سذاجة الفكرة بأنه مجرد أداة لابـــد أن توصل إلى ما أعانى منه الآن .

حققوا معى فى غرفة ملغمة بضباط فى مواقع حساسة . فاجـــأونى

بالتهم والأسئلة دفعةً واحدةً :

ـــ أنت متهم بالتعامل مع دول أجنبية / عربية / وردت معلومات عن اشتراكك فى حركة مضادة للحكم / هل تتصل بأفراد مــــن دولـــة أخرى ؟/ ما رأيك فى السلام ؟/ هل تكلمت مع أحد فى تغيير الأوضاع فى مصر ؟/

أدركت من الوهلة الأولى أنهم لم يستطيعوا حبك التهم الملفقـــة . رحت أجيب عن الأسئلة ، التى استدارت فجـــأةً إلى تفـــاصيل رأيى فى عملية السلام . لم يكن عندى ما أخفيه ، وما أرى أن لا حق لى فيــــه . قلت ما كنت أقوله مئات المرات ، لجميع الزملاء فى الجيش ، بـــل ومـــا كنت ألقيه علناً فى المحاضرات .

انتهى التحقيق بمنعى من العودة إلى الفرقة ، وبقيت فترةً بلا عمل. ارتاحت قدمى الملتوية ، وفك الطبيب الجبيرة ، واستطعت أخيراً المشـــى عليها بصورة طبيعية . ولم تكف صافى عن البكاء ليلاً ونهـــاراً ؛ جـــاء التحقيق معى ليفجر كل متاعبها فى وجهى ، اتهمتنى بجلـــب المتـــاعب للبيت، الذى لم يهدأ أبداً منذ بنائه . استدعيت كثيراً سقراط وصبره على امرأته . وتحول التحقيق إلى المدعى العسكرى العام ، وهنـــاك ســـألونى خمسة أسئلة كل إجابتها :

لا

عدت إلى عملى ، ورقيت إلى رتبة لواء بعد عشرة أيام لا غير .

توقف عن القراءة ، وقام يمشى حول المكتب مثل أسد مأســـور ،

يضرب بباطن يده اليمنى أصابعه المضمومة فى كفه الأيسر .

عشرة أيام .. ما هذا التناقض ؟ هل يعقل هذا ؟ أعـــرف هـــذه الوقائع ، وأعرف ما بعدها ، راجعتها فى عقلى الليلة الماضية ، قبل النوم ، لكنى لم أتذكر أن الفارق بين التحقيق والترقية إلى رتبة لواء، هى عشـــرة أيام . ماذا كتبت ساعتها ؟ وكيف كان تعليقى؟

أمسك بالورق .

تخبطت بين الرجاء واليأس ، ماذا يحدث لى ؟ ما هذا التنـــاقض ؟ قلبت الأمر، ووصلت إلى نتيجة وحيدة ، لم أر غيرها: احتارت المخابرات معى . لم يكن لديها ما يدينى ، وكان التصرف غير المحســـوب ســـيثير الكثير من الضباط الذين كانوا يعتبروننى مثلاً أعلى لهم . لابد أن جهةً ما أعلى هى التى كلفـــت المخابرات بهذه المهمـــة . ثم صـــدرت حركـــة الترقيات ، وكان الوزير ورئيس الأركان مسافرين، ولم يعترض رئيـــس الجيش الثالث على ترقيتى ، فقد كان يقدرنى بشدة ، بعد أن عملنا معـــاً لمدة طويلة .

ردد بصوت عال : لا بأس .. لا بأس ..

عبر السطور الباقية التى تشرح نقله بعد الترقية إلى هيئة تدريــــب القوات المسلحة ، ثم عاد يقرأ .

رُشحت للسفر ضمن وفد رسمى لحضور مناورة فى ألمانيا . حـــين وصلنى خبر الترشيح ، احترت أكثر فى الموقف الذى يـــزداد تناقضـــاً ، وقضـــيت ليلة غريبة، ساهراً ، حتى رأيت نجمة الصبـــح . تطلعـــت إلى

المستقبل أستشرف الآتى . أستنطق الواقع المتناقض ، علـه يومئ لى بملامح المستقبل . غيوم عابرة فى الفضاء المسوس بزرقة خادعة . الأمان سراب غادر ، لا يقود مثلى إلى تصديقه ، النار قانون صاف وحصانها الذى تعتلى. العمر تدفق بخيبة لم تخجل من المجاهرة. ونجاح فى أوقات أخرى ، مثل الفضيحة كاشف . فجـور وفضيلة ، شاطئان متوازيان ، يعلنان وجود كل منهما الدامغ :

اقطع الصحراء لتصل إلى حبيبتك . آيتك ألا تكلم أحـداً أياماً ثلاثة، إن نطقت تحولت إلى حجر .

مشيت فى معبدك ، ونزفت العمر تحت قدميك . أحببتك ، وكفرت بك ، ولعنتك مئات المرات . أنتِ ، أنتِ ، يا حبيبتى ، يا نصف الثمرة المحرمة ، يا تقية، يا فاجرة ، أقبل .. أَقْبلُ أن أُقَبِّلَ عتباتك ، وأن أتوقع مزيداً من الدفع ، لأنك لست أنتِ ، أنتِ من يتغنج ، ويركع ، ويغوينا ليمرغنا فى الوحل ، أنتِ لى .

لم تخدعنى الحفاوة فى مكان ، أو التلويح بالعصا فى مكان آخر . استشعرت أنى على قائمة المستهدفين ، أو المتهمين ، لا يهم. تكرر جرس الليل ، نفس السيناريو : مطلوب لمقابلة مدير المخابرات ، لكنه فى هذه المرة كان أكثر إثارة. السلم ملغم بجنود شاهرى السلاح ، حراس البيت فزعون من استدعائهم بأورطة عساكر فى الفجر ، أبواب الشقق الأربع مفتوحة على مصاريعها ، تنتظر الحدث . الفيلا مطوقة من جميع الجهات ، سيارات كاملة العدة والعتاد ، رابضة أمام البوابة ، تطن وسط صمت الليل . نزلت ، ووقعت عيناى على المشهد كاملاً .

سألت الضابط المكلف بجدة :

ـــ ما هذا الهباب ؟

لم يرد . ركبت إحدى السيارات ، ومضى الموكب ، تتقدمنا سيارة مسلحة ، وتتعقبنا أخرى ، حتى وصلنا إلى نفس المكان السابق . لم أطق الانتظار ، فبادرتهم بالسؤال :

ـــ ما هي الحكاية هذه المرة ؟

قال المحقق : قبض على اثنين من الفلسطينيين فى مطار القاهرة ، وعند تفتيشهما وجدنا معهما ورقة ، مكتوب عليها اسمك . أردنا أن نسأل حضرتك عنهما .

قلت غاضباً : ولماذا لم تسألونى تليفونياً ، بدلاً من إحضارى بهذا الشكل

قدم لى ورقة بها اسمان ، وسأل : هل تعرفهما ؟

أجبت : لا !

قال : تفضل ، انتهى السؤال !!

قلت : لا .. أريد أن أعرف القصة الحقيقية ، هذا كلام لا يدخل الدماغ .

لم يجب .

عدت إلى المنزل قرفاناً ، ثم وصلتنى الإجابة بعد أيام قليلة .

صدرت النشرة العسكرية ، وأُحلت إلى التقاعد .

والباقى معروف : حادث قيد ضد مجهول ألقى بى فى المســـتشفى سنة ، وطلبت صافى الطلاق حتى قبل أن أفيق من العملية ، واتهمتنى بأننى جلبت لها المشاكل والمتاعب ، ويكفيها ما تحملته حتى الآن ، وغـــادَرَتْ البيت وحياتى إلى الأبد .

سقطت آخر الخيوط التى تغلف الشرنقة . انفجرت المرارة، مكونةً سحباً قاتمة .. هشها .

لست الرجل الذى يهزمه صراع يعرف أبعاده ، لن أكون رمـــاداً لقلب احترق . فالصراع القادم أكبر كثيراً من أن تخسر بلادى أى ساعد يمتلك الوعى بها . وخيوط الشرنقة داخل كل منا لا تتحلل ، ولا تضيع ، ولا يمكن إلغاؤها ، لكن يمكن أن نتعامل معها ، بقدر ما نفهم أنفسنا ، بقدر ما نحاول ..

لوث السكون صوت إطلاق رصاص ، أفزع ليل كائنات القريـــة التى لم تعد تعتاد الهدوء ليلاً . لم يعد يهتم أى من أهلها بصيد ثعلـــب أو طائر ، فماذا حدث ؟ كانت نهاية صيف . رطوبة خانقة ، وحرارة تذيب أسفلت الطرقات ، سحب صغيرة بيضاء عبرت القرية متمهلةً ، محافظـــةً على شكلها المحدد ، لا تتلاعب بهـــا الأطيـــاف ، فتشكلـــها إلى آلاف الصور صحت القرية على خبر غريب :

وقف بيع اللحوم لمدة شهر .

سرى الخبر بين مصدق ومكذب . لم ينتظـــروا هبـــوط الليـــل ليتشاوروا فى البورصة ، توقفوا جماعات على الطرق ، وفى العنـــابر، وفى الأسواق .

باختصار ، سيزداد الطلب على الفراخ ، إنتاجـــهم الأول الآن . حسبوا أعمار الكتاكيت فى المزارع ، وحددوا سعداء الحظ الذين ستصل أعمار كتاكيتهم إلى خمسة وأربعين يوماً مع سريان القرار . توجسوا قليلاً من تدخل الحكـــومة فى تحديد سعر البيع ، ولم يجدوا من يدلهـــم علـــى إجابة الأسئلة .

فى المساء قلبوا الأمر فى البورصة ، وسألوا عن الهدف منه : هـــل

هو تخفيض سعر المواشى ؟ أو كيلو اللحم عند الجزار ؟ ولماذا لا تستورد الوزارة لحوما أكثر ؟ أو تربى عجولا من أنواع جيـــدة ؟ لم يفـــهموا ، فأطلقوا النكات تسخر من الأمر برمته .

فى اليوم الأول لتنفيذ القرار ، ارتفع سعر كيلو الدجاج من مائـــة قرش للكيلو داخل المزرعة إلى مائة وثلاثين قرشا ، وباعت بعض المزارع جـــزءا من إنتاجها ، ثم أوقفت البيع طمعا فى ربح أكبر . فى اليوم الثانى، تقاطرت ســـيارات التجار على القرية ، لكن المزارع أغلقت أبوابهـــا . نزل التجار إلى البورصة ليلا ، يحاولون الوصول إلى اتفاق على السعر مع المربين . طالت المناقشات دون جدوى ، واقترح أحد المربين تقسيم إنتاج مزارع القرية إلى حصص تغطى الشهر كله ، فغضـــب التجـــار الذيـــن يريدون الحصول على الإنتاج قبل غيرهم ، وقبل أن تستهلك الطيور من السوق ، فيزداد سعرها .

ـــ تعالوا غدا ، ويفرجها الله . لن "نخلل الفـــــراخ فى الزلـــع" ، ستباع.. ستباع . قال إسماعيل .

هكذا السوق ، يوم لك ويوم عليك .

فى الليلة التالية ، رأى أحد التجار ، أثناء بحثه فى القرى ، مزرعـــة أضاءت مصابيحها الخارجية ، إعلانا عن فتح البيـــع . ذهـــب إليـــها ، وســـأل عن السعر ، قال صاحبها : مائة وخمسون قرشا للكيلو ، ولـــن أبيع . انطلق التاجر إلى الشرطة ، وشرح لضابط القسم الموقف ، فـــأمر بخروج قوة من المركز ، ومفتش التموين . وصلوا بعـــد ســـاعة إلى أول

مزرعة على الطريق ، وحملوا ما بها من دجاج فى سيارة كبيرة ، وأعطوا لصاحبها إيصالا بالوزن ، وانصرفوا إلى باقى المزارع . لكن أحد الفلاحين كان بالقرب من المشهد، فركض إلى القرية، وأخبر المربين فى البورصة بما يحدث . هب المربون إلى مزارعهم ، وبحثوا عن السلاح . أخذوا ما طالته أياديهم من فؤوس ، وشوم ، أو حتى مناجل . وصلت القوة إلى إحدى مزارع إسماعيل ، المزرعة الوحيدة على الطريق، بين محطة القطار والقرية. طرق مفتش التموين والضابط بابها ، لم يجدا غير عامل أخبرهم أنه لا يستطيع البيع لأن أعمار الكتاكيت لم تصل لسن كاف، وأن صاحب المزرعة غير موجود ، ولا يستطيع وحده اتخاذ مثل هذا القرار . وأضاف : خمسة أيام يا سعادة البك، حتى يثقل وزن الفرخة ، وإلا خسرت المزرعة خسارة شديدة . أطلق الضابط صفارة أحضرت القوة ، حاول العامل منعهم :

ـــ أرواح ضعيفة تموت بسرعة .

ضربوه ، وفتح العساكر الأبواب ، ركضوا فوق الدجاج الذى تجمع فوق بعضه خائفاً فى ركن ، ولم يغثه صياحه ، ولم يمنع مصيره المحتوم ، فماتت أعداد غفيرة منه . ركض العامل وهو يئن من آثار الضرب إلى الطريق العام ، أوقف سيارةً عابرة ، أقلته إلى إسماعيل فى الدوار ، وأخبره بما حدث . هب إسماعيل غاضباً إلى السلاحليك ، ومن ورائه كل الرجال الموجودين فى البورصة . فتحه، وأخرج بنادق وشوماً وزعها على رجاله ، وأمر بعض الفلاحين بالاعتصام فى

المزارع، وطلب من الآخرين الوقوف صفاً واحداً على الطريق ، لمنع دخول القوة القرية ، قائلاً أنه ليس لها طريق آخر . لم يعترض واحد، و لم يتردد آخر . نفذوا على الفور، أمسك أحد الخفراء البندقية، وحرك الزناد، فخرج الرصاص الذى أفزع الناس ، وأوصل الخبر إلى جحور القرية وقنانيها ..

ركضت لبنى ـــ العائدة وزوجها عاطف وابنتها منذ أيام قليلة من العراق ـــ قادمة من غرفة اللبن نحو الحوش تستفسر :

ـــ ما هذا يا نينا ؟

قامت وديدة فزعةً من فوق المصطبة :

ـــ الشر برة وبعيد ، اذهبى يا صبحية ، واعرفى لنا الخبر .

علت الأصوات على الطريق ، وأفسحت للذهول مكاناً على الوجوه . تخبط الحمام فى كل حائط وصل إليه ، ونقنقت الطيور ، وهربت إلى ركن عكس اتجاه الضوضاء، وترنح الجميع، كلما صعدت إلى السماء رصاصة .

قالت لبنى : سأصعد إلى المشربية لأفهم . الأصوات تأتى من عند الجسر .

طوت الدرجات معاً حتى وصلت إلى شرفة الطابق الأول ، وهى تتحدث إلى نفسها ، وإلى وديدة فى آن معاً .

ـــ هل يتعارك تاجران فى البورصة ؟ ولماذا يستخدمون الرصاص ؟

هل يقتلون حصاناً ؟ وهل تقتل الخيل فى الليل ؟ أيكون الصـــوت مـــن السلاحليك ! لكنه مغلق منذ زمن بعيد .

فتحت ضلف المشربية ، دفعةً واحدةً .. تتـــابعت الطلقـــات فى الهواء، فكادت توقف الحياة فى شرايينـــها . رأت أبـــواب الســـلاحليك الأربعة مفتوحةً معاً لأول مرة منذ الحادث الكبير، قبل أن يتنازل عمـــها الشيخ طه عن العمدية . تذكرت زوجها عاطف ، أين هو ؟ سمعت صوتاً مدغدغاً من أثر النوم ، والانزعاج. التفتت إليه ، كان عبد الله خارجاً من المقعد بجلباب النوم :

ــ ماذا حدث يا لبنى ؟

ــ لا أدرى .. السلاحليك مفتوح ، وإسماعيل واقـــف وســـط الفلاحين ، والدنيا مقلوبة .

نظر إلى الشارع ، والنهر ، والبورصة ، وصرخ :

ــ يا خبر أسود ، اعطينى القفطان الله يسترك يـــا ابنـــتى . أيـــن محمود؟ وعاطف ؟ أين الرجال ؟ ومن أخذ المفتاح ؟ ولماذا ؟

ساعدته على ارتداء ملابسه بسرعة . ركض ، وهو يعدل طرف الجلباب ، وينثر العباءة على كتفه . نزل يكلم نفسه ، ظهر علـــى عتبـــة الدرج عند باب الحوش، رأى أمه تنوح :

ــ الحقنا يا عبد الله ، ربنا يسترها يا اولادى دنيا وآخرة .

.. ..

.. ..

.. ..

خارج الأسوار مواقد الغاز المتوهجة تفح بصوت واضح وسط الضجيج . النهر فى أقصى عنفوانه الجديد ، يعكس ألوان الزيتون الرمادية المشربة بالأخضر، ويعكس تلؤلؤ جمرات ثلاث الماء لا يجرفها . فى الحقول بؤر ذهبية متباعدة، تتلألأ، يساقط منها الضوء ويبرق فى الظلمة مثل خيال مآتة يخيف الجنيات . القرية حزمة من الألوان الفوسفورية تجتمع فتخدش الأبيض الناصع. ملايين من قطع الماس الصغيرة تظهر فى لحظة ، مع انعطاف الطريق ، ثم تختفى خجلةً وراء شجرة، ثم تظهر صينية من وهج يتراقص فوقها بشر مسكوب من بوتقة رصاص سُبكّوا فى قالب واحد ، اندلق فوقهم لون أشهب . خليط مصنوع من ظلال ونور. حتى الطيور التى اعتادت أن تأوى إلى أعشاشها مع غروب الشمس ، وتحتل الجميزة الكبيرة ، وشجرة السنط ، والصفصاف حول البورصة ، لم يعد يزعجها الضوء الذى لم يعرفه أسلافها . لكنها هذه الليلة استشعرت بالغريزة أن شيئاً ما يحدث هنا ، فتقلقلت ، وشق الفضاء صوت صراخها وعراكها ، وولولات استغاثة ضعافها من مزاحمة غير متوقعة ، ورفرفة لم تبعدها كثيراً عن الأغصان ، وأصوات صحو تشبه تلك التى يبعثها الفجر ، ثم أعقبها سكون استمر بعض الوقت حتى عاد أحد الطيور المتململة من النبوءة إلى وخزات التحرش غير المفهومة له .

ثقل الهواء برائحة الجموح . ارتسمت فوق وجوههم سخرية مريرة واحتقار لكل ما تمثله لهم قوة البوليس القادمة ، التى لم تعد فى

نظرهم رمزاً للعدل كما كانو يحلمون يوماً ، بعد أن جربوا أن يقايضوها ليغيروا الإجراءات، وأن يدفعوا لها إتاوات لكى تقضى لهم مصالحهم الشرعية . فى عيونهم شرر من لهب ، متهكم ، ليس شرر الدفاع عن الحق وحده ، أو رغبة الثائر فى الموت النبيل فداءً لوطن ، لكنه خليط من الدفاع عن المصالح ، واستعراض القوة ، وتثبيت نوع جديد من التعامل ، ونكاية فى قوة القانون التى تكيل بعشرة مكاييل .

عمال يومينون ، أصحاب مزارع ، ومؤسسات كبيرة ، أصحاب أراضٍ ، بيطريون ، نجارّون وعمال بناء ، تجار أعلاف ، وتجار مخلفات دواجن ، مزارعون صغار ، مزارعهم تعلو أسطح المنازل . صيادلة ، وأصحاب محلات بيع مركزات غذائية ، سائقون ، وتجار أنابيب غاز . مئات الفلاحات ، واقفات فوق الدور وأمام أبوابها ، كأنهن قطع من فضة ، نثرها واهب فى عرس، لا تراهن الحشود ، لكن تشعر بتلألئهن. أطفال خاصموا النوم ، ورضع يقطعون الضجيج بحشرجة مواء . روح إنسانية واحدة ، افتقدت الدفء ، وحل محله تآزر التجاوب فى المصاب . تآزر سوف يختفى فى اللحظة التالية . ولا يبالون . تبدلت المشاعر كثيراً منذ خرجوا جماعةً يواجهون تعنت الهجانة ، أيام الشيخ طه ، ويحصدون القمح رغم أنف السلطة . لم يعودوا يتوقفون كثيراً أمام هذا الحس الإنسانى الشفيف ، الذى كان يجمعهم . ظهرت عليهم أعراض الإصابة بمرض الكسب السريع الذى غزا المنطقة كلها مع النفط . امتلأت

نفوس الفلاحين بغل ، وحقد ما عرفوه مدى الحياة . فهل كانوا فى حاجة إلى الحقد ليصلوا إلى الرحمة؟ إلى الحب الذى رضعوه من أثداء الأمهات، وعاشوا يقاومون به كل أنواع القهر؟ هل كان الحقد والاستفزاز من قوة أكبر هو نهر التطهر ؟ البوتقة التى تعيدهم إلى الأصول الأولى ؟ لم يحللوا مشاعرهم التى تدفعهم نحو بعضهم . اكتشفوا فجأةً حجم ما يجمعهم ، وحجم ما يواجهون . كان لديهم هذا الشعور الذى لا يمتلك دليلاً واحداً على أن فى الأمر لعبةً كبيرة ، وأنها تتم لصالح قوة ما ، لا يعرفون لماذا ؟ هل هى صفقة دواجن كبيرة سيتم استيرادها ؟ وإغراق السوق بها بسعر عال ؟ هل هى صفقة أرانب؟ أو ديوك رومية؟ قال واحد فشرقوا جميعاً بالضحك .

شىء ما يتعلق باللحم . من الذى يقوم به ؟ لابد أنه من الكبار جداً ، الذين يملكون إملاء هذا الشرط على السادات ، إلا إذا كان هو شخصياً متورطاً فيه. لا يمتلكون الدليل ، لكنهم يمتلكون اليقين به . لم يكونوا حفاةً ، يرتدون خرقاً ومزقاً ، كذلك العام فى ١٩٤٩ بعد الهدنة . ولم يفح من عرقهم عطر نبات الحلبة التى كانوا يعجنون بها خبزهم، ليزيدوا من القيمة الغذائية لرغيفهم المقلحف . بل ارتدوا جلاليب بيضاء من قطن مخلوط بنفايات النفط ، وارتدى بعضهم الجينز ، وارتدت النساء فوق جلابيبهن السوداء الجورجيت المطعمة بالقطيفة الحمراء "إيشاربات" ملونةً بالزهور . تغيرت النفوس كثيراً . ظهرت على

الشباب جدية جافة، وحصافة التجار ، وفقدوا مرارة الاندفاع ، أمـــام زحف الجليد الذى يتطلبه التعامل مع المال . لكن ما حدث اليـــوم أذاب بعض هذا الجليد ، فالأمر هنا متصل بالقوت . ارتجفت قبضـــاتهم فـــوق العصى ، والبنادق التى لم يشـــرعوها بعد. زرعوها أمامـــهم ، ووقفـــوا بعرض الطريق فى انتظار وصول سيارة البوليـــس ، متســـلحين بحتميـــة وحيدة، أن يمنعوهم بأى ثمن من الاستيلاء على الدواجن بهذا الشكـــل . مجازفة لم تأت دون تفكير . بل جاءت نتيجة تفكير واقتناع ، وإجماع .

قال إسماعيل : أطفئوا مصابيح القرية كلها . بيوتها ومزارعها .

سرى الخبر سريان الشائعة ، وعادت المنتهى تشبه لياليها ، قبـــل دخول الكهرباء .

وصلت القوة . ترجل الضابط من العربة ، وكان قد أدرك رغـــم الإظلام حجم الجموع الواقفة ، والمأزق الذى وقع فيه بالمقارنة بما معه من عدد أفراد. بدا فى هيئته العســـكرية ولباسه الأبيض الزاهى ، مثل ديـــك رومى شديد الثقة برقصته، وطقطقات انفجاره قبل أن يهاجم . قفز اثنان من الجنود ليفسحوا له الطريق للمرور وسط الفلاحين . أشار لهم بيـــده ليتوقفوا ، وواصل المســـير ، مقلصاً عضلات وجهه اللامباليـــة ، ومـــن خلفه مفتش التموين . تخلخلت الجماعة فأولدت ثقباً فى الكتلة ، مرا منها بهدوء . تفتحت بوابات من البشر مع كل خطوة مـــن خطواتهمـــا ، ثم انغلقت خلفهما ، شعرا بأنفاس الناس الملتهبة التى أصبحت مرئيةً لشـــدة كثافتها ، تلسع بشرة وجهيهما ، وتتلطع بلزوجة فى الســـماء كدخـــان

دهن . أبواب العربات الخلفية مفتوحة . ترجل العسكر ، ووقفوا حولها دون أن يتحركوا عنها خوفا من الجموع التى تصدت لهم ، وأغلقت الطريق . أمسكوا بالسلاح المعلق فوق أكتافهم بثبات دون أن يرفعوه كأنهم منومون ، رغم أن قلوبهم التى لم تر ، ولمرة واحدة مثل هذا الحشد الغاضب ، ولا سمعت مثل هذا الهدير ، غاصت وسط الأحشاء، باعثة فيها تلك الترددات الفزعة التى تزن كدبور هائج فى ساعة قيظ . طلبوا من الله سرا أن يهدى المقدم عوض الله عبد الشافى ، وألا يعطى أمرا بالاشتباك مع هؤلاء .

أسلمت موجات البشر الضابط إلى إسماعيل الجالس فى صدر البورصة ، وبجواره عدد من كبار الملاك. استفزه هدوؤهم . لا تكافؤ فى التزال الآن ، حتى وهو يمثل أعلى سلطة فى الدولة . لم يكن أرعن ، أو قليل الخبرة . كتم غيظه من حالة البرود الظاهرة أمامه ، واستعراض القوة الذى لم يعد خافيا . سأل عن عبد الله المصيلحى ، قام إسماعيل وسط الرجال مشيرا إلى الدوار ، وتقدموه على غير العادة بالترحيب بالضيف ، مهما كان شأنه . تحرك الرجال من خلفهم ، حتى ذاب وسطهم ، وأسلمته الجموع إلى بوابة الدوار ، وإلى الفيلا الصغيرة التى شهدت تحقيقات البوليس يوم حادث أبى منلور ، حين خرجت القرية على القوة، وهرستها، وكاد الضابط أن يحتضر تحت اندفاع الفلاحين . كان عبد الله قد رضخ لطلب محمود قبل دقائق ، ودخل إلى الفيلا ليجرى اتصالات بوزارات : الداخلية، والزراعة ، والتموين ، وبالمحافظ ، وكل ما

تصل إليه يده لوقف هذا الترف . تذكرا معا أباهما ، والحادث الذى أوقفه عن العمدية، انحاز إلى أهالى قريته. لم يكن عبد الله صغيرا ، ولا محمـــود كذلك ، كانا واعيين بكل النتائج ، ورأيا الهجانة ، وهى تتبختر فى أروقة القرية ، ودفعا مع الأهالى الثمن كاملا . شعر عبد الله بالفخر من ســـيرة أبيه العطرة ، وتمنى وجوده معه الآن ، والناس تتقدم نحوه طالبة الحـــل . .وتذكر محمود ليلة أن طار القرش فى الهواء ليحدد من من الأطفال سيتكلم مع العفريت سح سح ، وكيف وقعت القرعة على حسنين الفحام، ونزل إلى الرحل الذى يعتلى الجمل ، وتحدث إليه ، وكيف أعطاهم إدريس ــ الذى عرفوا اسمه بعد ذلك ــ السيجارة ، ليتبادلوا وضعها فى فم الجمل. وكيف كسروا الصمت بين القرية والهجانة دون أن يعوا . لم يعلمـــهم أحد حكمة عدم الاطمئنان لسلطة أبداً ، حتى لو تبسمت فى وجوهـــهم إلى حين ، بل خبرة اكتسبوها بالتأمل ، وورثوها من تاريخ طويل ظالم .

وصل الضابط والمفتش بصحبة إسماعيل والناس :

ــ أريد عبد الله المصيلحى .

ــ نعم ، خير إن شاء الله .

ــ مطلوب تسليم كل ما لديكم من دواجن فى المزارع حالاً .

أجاب عبد الله بلهجة متهكمة ، ابتسم لها الضابط :

ــ كل ما لدينا ؟ لا يوجد قانون يجبرنى على تحديد وقت البيع .

ــ قانون التموين ، والامتناع عن البيع فى وقت حاجة الســوق ،

والمضاربة فى السوق السوداء .

ـــ لا توجد عند المربى سوق سوداء ، ولا مضاربة .

ـــ الامتناع يوقعكم تحت طائلة قانون الطوارئ .

ـــ طوارئ من ؟

تعالت الهمهمات بين الفلاحين .. طوارئ ؟

قال محمود المصيلحى : ليس هذا هو الأسلوب الذى يحل المشكلة.

قال الضابط : وما هو الأسلوب ؟ أسلوب الجشع ؟

قال عبد الله : ليس جشعاً ، بل دفاع عن مصالح أهدرتموها. انظر إلى البيوت والغيطان من حولك . لجأ الفلاحون إلى المزارع ، مسلحين، حتى بالعصا . هل ستدخل معركةً من هذا النوع ؟

ـــ لا تجبرونى على أخذ الدجاج بالقوة .

ـــ تحصل عليه إذا تركت المربى يزن دجاجه بنفسه ، ويحمله عماله إلى الميزان ، ثم إلى السيارة ، وإذا دفعتم ثمنه . أهلكتم المزارع التى دخلتموها ، وسرقتم أصحابها ، لأنكم لا تعرفون التعامل مع الموازين ، وأعطيتم الناس إيصالات بدلاً من النقود ، وسيعانى المربى من الركض وراء خزائن الدولة ودواوينها ، وهو فى حاجة إلى مال سائل لكى يشترى كتاكيت للدورة الجديدة ، وأعلافاً لمزارعه الأخرى إن كان يمتلك غيرها ، ويوم الحكومة بسنة .

تعالت صيحات الناس مؤيدةً لكلمات عبد الله الذى أردف:

ــ ثم إن الحكاية كلها لا تدخل رأس بعوضة ، والأيام بيننا، إن لم يكن الموضوع كله لصالح أحد المستوردين .

استفز الضابط ، وقال بغضب : عامل عمـــدة ســيادتك ؟ والا معترض على سياسة الدولة ؟!

قام عبد الله واقفاً ، احمرت بشرته بالغضب ، وقال :

ــ ما رأيك ؟ أنت فى بيتى ، ولولا ذلك ..

قطع الصالة إلى الباب ، ووقف مشيراً إلى الناس :

ــ تفضل ، البلدة أمامك ، لا تريد مشورتى ، افعل ما تشـــاء ، وتحمل النتائج .

همَّ بالخروج من الباب ، فتعالت صيحات الناس ، ومنعوه مـــن الخروج . ووقف محمود يهدئ الجموع حتى عاد بأخيه إلى المجلس ، وقال للضابط :

ــ أنا اللواء أركان حرب محمود المصيلحى . أنت لا تتعامل مـــع مجرمين ، اعرف حدودك ، حتى لا تقع فى مشاكل أنت فى غنى عنها . فى القرية أربعة ملايين كتكوت ، أعلى إنتاج فى مصر كلها ، ولن تمر الأمور ببساطة، إذا لم تتعامل معها بحكمة !!

نظر إلى عبد الله موجهاً الكلام إليه : ما هو الحل العملى الآن يـــا باشمهندس؟

أجاب الضابط قبل أن يرد عبد الله :

ــ أريد إخلاء المزارع فوراً ، وإصدار أوامر للفلاحين بالتعاون معنا !!

شمر عبد الله كم جلبابه الواسع ، وعدل من تهدل القفطان، وقال:

ــ ليس هذا بحل . إذا أردته ، قم به بنفسك . أما ما أراه فاسمعه: غداً تجتمع لجنة فى وزارة التموين لتحديد السعر ، وهذا ما سمعته من مسئول كبير فى الوزارة تليفونياً الآن . لماذا لا ننتظر حتى نعرف الأسعار؟ وعندئذ تستطيع أن تتدخل إذا باع أحدهم بسعر أكبر ، ويكون فى هذه الحالة لديك الحق فى التصرف مع من يخالف .

تردد الضابط قليلاً ، ونظر إلى مفتش التموين الصامت بجواره ، فلمح على وجهه ملامح رضاء .

تعالت الأصوات تطالب بالتعويضات عن خسائر المزارع التى دخلها العسكر ، وعبد الله وإسماعيل وعاطف يعدونهم بالحل . رحل البوليس ، ولم يغادر الفلاحون المزارع . ناموا حولها حتى جاء الصباح بخبر تحديد أسعار البيع بمائة وعشرة قروش للكيلو ، فحصلت القرية على شئ من الراحة بعد التعب .

فجر الحادث فى البورصة أسئلةً كثيرةً لم تخطر لهم على بال من قبل، عن حلقات الإنتاج ، المربى الصغير ، والتاجر والوسيط والدولة . ولأول مرة فى تاريخ المنتهى ، رغم التعليم الذى دخل إلى كل البيوت،

طرح عبد الله للنقاش العام مع الفلاحين معلومات عـــن الاحتكـــار ، و "التروستات" [1] الكبيرة ، والشركات متعددة الجنسيات .

قال منصور ، الذى أذهله حجم المعلومات التى سمعها :

ــ حيلك يا أبو هانى ، مالنا وما لهـــم ؟ شركـــات ، وفلـــوس بالملايين ، وحرب دول ، على فرختين يربيـــهم منصـــور ؟ يـــا ســـنة "سوخة"!!

قال أبو صابرة الذى بلغ الثمانين ، وخرج مع القرية يتشــاور فى مشاكلها : دار الزمان دورته ، وكأنك تحكى حكايةً عشناها قبل الثورة، وعاشها أجدادنا : مراب يهودى ، وصـــاحب شـــركة إنجليـــزى ، وحكومة الله أعلم بها مع من ؟ لكن الحمد لله ما زالت المصانع ملكنـــا . مصيبة أن يجئ يوم ، ويهل علينا الأغـــراب من تانى !!

---

[1]) التروستات : مجموعة الشركات التى تخضع لإدارة واحدة وتنتج منتجات متعددة ولها فروع فى دول كثيرة .

حين ارتدى محمود ثيابه فجر ذلك اليوم ، لم تعرف وديدة أنه سيقطع عتبة التغيير الذى كانت تنتظره. لم يقل لها ، وهو يقبل يدها قبل الخروج ، إلى أين ؟ و لم تبد له أية إشارة للأسئلة التى كانت تمور داخلها، وهى تحسب الأيام الباقية على موعد استلام معاشه الشهرى ، الموعد الوحيد الذى كان يرحل فيه مبكراً إلى القاهرة ، ويعود آخر النهار ، بعد زيارته وحيدة لابنه سمير .

شهور مضت منذ اتضح للجميع أنه عاد إلى حالته العادية ، باستثناء رغبة فى العزلة ، عزوها إلى الاحتياج للراحة ، بعد طول عناء وتعب . أخفت وديدة عنه أسئلتها ، أغلقت نوافذ القلق كعادتها ، وانتظرت ما سيبوح به ، وتمنت أن يكون الأوان قد آن لخروجه من عزلته.

قطع الطريق إلى المستشفى صامتاً ، تتضارب فى رأسه صور حياته كلها . كشفت الستارة المخملية الخضراء التى عبرها عن ممر طويل رخامى الأرضية ، ثلجى البشرة والملامح ، خافتة أضواؤه . تسرب فى الرواق مثل نسمة سريعة لا صوت لها ، يغالب اندفاعه، معلق البصر

بلوحة الأرقام، فوق النوافذ المبطنة بالقماش الأبيض ، حتى وصل إلى الدائرة التى تحمل العدد ثمانية . وقف أمام الحجرة ذاهلاً ،حتى انقشعت الستارة التى تغلقها بيد ممرضة مدربة ، وظهرت.هى مستسلمةً لملائكتها، كما لم تستسلم لفكرة أو رغبة. اختفت حمرة خديها ، واحتل الأصفر ساحة بهائها ، وحيدةً فى حجرة ضيقة ، معلقةً بخراطيم كثيرة إلى شاشات سوداء، تتعرج فوقها خطوط بيضاء ، ترتفع فى أسهم رفيعة حادة ، لم يعرف معناها . تأملها ، لم تختلف كثيراً عن الصبية الحلوة والمهرة الجامحة التى أحبها، يحيط بها شعرها الأسود الطويل. صرخ دون صوت يهيب بها أن تنزع هذه الخراطيم ، التى تربطها بالأجهزة ، وأن تفتح عينيها ، وأن تنطلق إليه . لم يهتز إدراكه لعمق حبهما ، ولم يُقَوِّم مشاعره ، احتفظ بها فى شرنقة داخل بئره ، تكيف مع ما وصلا إليه ، تجنب أن ينكأ الجرح ، اكتفى بما يصله فى لحظات تقاطعهما العابرة ، التى منحتها لهما الصدفة، كى يطمئن على نضج مشاعرهما المكتومة ، تحت ركام العلاقات الجديدة التى اختاراها .

تعالى ، حطمى هذا الحاجز الشفيف القاسى بيننا ، اخرجى عن صمتك وعزلتك ، اقذفى بقميص الموت من النافذة ، واهربى إلى الحياة.. معى !!

لن أقبل بعد اليوم ابتعادنا .. إذا رحلت سأحطم المعبد الذى بنيته بإصرار حجراً حجراً كى أختفى وراءه ، يا لحماقتى ، اكتفيت خلال كل هذه السنوات ــ منذ اقتحامك بيتى فى الثالثة صباحاً ــ بمجرد وجودك عن بعد، اكتفيت بالاطمئنان الذى تبثه مشاعرنا المتنامية الهادئة ، دبيب

خافت حل محل النيران السابقة . كيف وصلنا إلى هذا ؟ كيف روضنـــا عذابنا ، واعتليناه ، أفيقي لى. أقسم إن قاومت لأحطم كل الحواجز بيننا، وأبدد السنوات التي فصلتنا بضربة سيف واحدة .. نهى ، أتوسل إليـــك، أفيقى .. سامحينى . يا إلهى كيف عذبتك ، وعذبت نفسى ، ولماذا ؟

لماذا ارتضيت الاستمرار فيما وقع من خطـأ ؟ كيـف سمحت للهامش أن يحتل حياتى ؟ لماذا لم أعد إليك لأستغفرك وأطلب عفـوك ؟ لماذا رضيت ببيت خاو إلا من هدوء الملل ووهم الاســتمرار ، واختبأت وراء أكذوبة الضمير الذى ألح فى كل وقت تمردت فيـــه : مـــا ذنـب زوجتى؟ الآن ما ذنبها ؟ وأنا لغيرها ، وما أعطيتها مـــن نفسـى غـير السطح؟ ألم تكن تستحق ما هو أكثر ؟ ــ لا تستعذب هذا ، صـــافى لم تستطع الوصول إليك ــ نهى .. كان مستحيلاً أن أمتد عبر أخذ غيرك ، أو أبذر يقين وجودى واستمرارى فى تربة لا أعرفها ، ليســـت لى ، وإن عشت فيها بمساعدات الصوبة. من أجلى يا نهى ، من أجلى انهضــــى .. قاومى..

تجمدت الكلمات بين شفتيه فى الممر البارد ، وهو يتابع رمشيـــها يرفرفان ، وعينيها تتطلعان إلى ســـماء الحجرة التى لا تصله أصواتهـــا . أنتظر أن تســـتدير نحو النافذة لتراه ، صـــرخت رغبته بعنف مانعاً شفتيه أن تتحركا .. التفتت ناحيته، وتعلقت نظراتها بالزجاج المفتوحة ستائره ، أدركت وجوده ، فاضت دموعها ، واقتلعت فى طريقها قدرتـــه علـى الصمود والتماسك . بكاها وهو يتمتم لها أحبك . رفعت يدها ناحيتـــه دون أن تطوله . لفها بخار الحرمان الطويل ، خاف أن تتسرب من بـــين

يديه ، وأن تحملها هذه الغلالة إلى عالم غير عالمه . كانت أشبــــه بجنــين معتصم بكيس ميلاده ، يحاول الخلاص، ترتعش تحت وطأة آلام تســـرى إليه فتمزعه. قال هامساً بصوت مرتجف .. رباه ، كم أنـــت يائســـة !! قاومى ..

عزفت شفتاه لحناً متدفقاً للحب ، ما سمعته هى رنيناً ، بل إدراكاً خدر شـــرايينها ، ودقات الساعة تنهى الدقائق المسموح بهـــا للزيـــارة بجرس صغير نبهه لضرورة ابتعاده . خــــرج يتعــثر فى أيامـــه الـــتى لم يســـامحها: لا يهم خطأ من ؟! يكفي أننى أدرك الآن أنها لى وحــــدى ، و لم تكن أبداً لغيرى.. أبداً .

عاد إليها كل يوم لدقائق ، ثم تبتلعه الأروقة بعدها . انتظرتـــــه ، تدفق مع الأكسجين الذى يبثه جهاز خشن إلى رئتيها أمل أن تكون له.. عبرت الســـاحة بين غرفة الخطر وغرفة النقاهة منتعشةً بالحياة أكثر مــــن أى وقت كانت تمرح فيه بين الحقول ، أو فوق رمال الشاطئ ، يبللـــــها رذاذ اليقين فى غد حقيقى . أرســـلت له نبضات شغفــــها أن تعـــال . وحين اندفع إليها فى غرفة صغيرة هادئة الألوان، ناعمة الصوت ، ادخـــر الكلمات، وعالج بالصمت ما أفسدته سنوات الغربة عنه . وحين همّت أن تبدد هدوء المعرفة اليقينية ـــ بأن إنساناً ما ولو فى آخر أطـــراف الأرض يحبها ـــ حين همّت ، أسكتها بشفتيه ، و لم يكن فى انتظار موافقتها .

اختارا كوخاً صغيراً على شاطئ البحر ، منعـــــزلاً كصخـــرة فى جرف . جلست فوق مقعد خشبى يكشف المدى أمامها . لف ذراعــــه

حول كتفها تاركاً الهواء يشبع رئتيه ، "هل يكون للـــهواء مثـــل هـــذا الاستمتاع كل لحظة دون أن نكتشفه ؟" تركها تسقط رأسها فى صدره، ثم احتواها مفسحاً للسكون الذى كشف ارتجافـــهما معـــاً الســـاحة . ساعات طويلة من الالتصاق الآمن، كانا فى حاجة إلى هدوئها، قبـــل أن يصدقا أنهما بالفعل الآن معاً .. وشوش الفيروزى المفضض ، المنعكس من السطح الرجراج ، بلهفة أن اطمئنا !! غرقا يطهران روحيهما مـــن آلام الحرمان الطويلة التى أدركا قسوتها حين هزهما المـــرض ، وأعلنـــهما أن الوقت ليس لهما ، وأن المتاح قليل .. قليل ..

احتل عزف الكمان المنبعث من الراديو المساحة الوحيـــدة مـــن العقل، المنتبهة لمحيطهما . لم يكن أى منهما فى حاجة إلى النظر إلى الآخر، أو إلى الداخل . استمتعا بهذا الإحســـاس الناعم الذى يهدهدهما برفـــق فوق أجنحة موجاته . رفعت رأســـها مواجهـــةً الاتســـاع الكـــونى . واستقرت.

دخلا الكوخ ، وهو ممسك بكتفها ، مرتاحاً تلك الراحة التى تأتى من معرفة طويلة عميقة بالآخر . تمددا فوق الســـرير أمام البحر ، عزفـــا بأصابعهما فوق أوتار الجســـد الذى تفككت أعصابـــه، ثم عضلاتـــه . أزاحا ستائره بســـرعة ، وخاطبا الأعماق ، مسا كل خلية ليتأكدا أنهـــا هى هى وليست غيرها. قطعا طريق اليقين متسلحين بهذا الشعور الـــذى ينبع من إدراكنا أننا منسلخان من نواة واحدة انشطرت ، فصرنا مخلوقين. تخلصا من كل ما دثرهما به زمن الفراق من ملابس ، وأمكنـــة ، أزمنـــة ومعتقدات ، ضغوط وأفكار ، وحتى معرفة بعالم بدا بعيداً ، ســـرمدياً ،

كأن لا وجود له. فالوجود أن تكون له ، وأن يكون .. لها . عاريـــان عرفا أنهما اغتصبا كل هذه السنوات ، لكنهما طردا بحسم كـــل فكـــرة حاولت اختراق لحظة انبعاثهما الجديد .

"رباه كيف تختصر الحياة فى لحظة التصاق ؟!"

حرضها صوت داخلى قادم من بئر أحراشها :

"قولى له ، أخبريه ."

نحن نشعر معاً ، لست فى حاجة إلى الكلام أو الحركة ، تكفيـــنى نبضات تحرش جسده التى تحتشد ، وتعلو ، وتضئ دروب جسدى كـــى أعرفها معه ، تكورت أصابعها ، واعتصـــمت بباطن يدها ، ربت عليها وضمها بقوة ، .. رباه أخشى رغبتى فى أن ترقص يدى علـــى حلبـــة جســـدك !! انفرجت أناملها على استحياء ووقار الفنان الماهر حين يهم بالعزف، تمردت ـــ لم أعد بسيطرة عليها .. لماذا أأسرها ؟ ذقت مـــرارة السجن وكنت السجان . لماذا لا أتركها تطير، تمتص الرحيق مثل فراشة، تعرف أنها ستموت بعد دقائق .. الكل والمنتهى . انكفأت تمنـــع مطـــر الحزن من إغراق عينيها .. ابعدى هذه الأفكار . أنا له .. للمرة الأولى . حرة .. مـــزعت الأكفان عن ذاتها . شـــعر بها تزداد التصاقاً به .. انفتح لها أكثر وأكثر ، حركت رأسها ، لمست بشرة وجهها الخط الفاصل بين رقبته وصدره ، عبرت حاجز الأمواج ، وألقت بنفسها إلى المياه التى تفور طالبةً الانعتاق، تلونت فى ثوب ألف امرأة وامرأة، تجـــــرب أن توصـــل أحاسيس أنسجتها التى ترفرف إليه . تمرغت شفتاه فوق روحـــها الـــتى

تخلقت جسداً .. فردت أجنحتها، كشفت عن رغبة ما استحت منها .

امتلأ بشعور أن لجسدها عطر شوارع عتيقة ، حـــارات وأزقـــة مفعمة بالحنين، "تجتاحنى أنهار من يقين أنى أكتمل .. دخلتك مصليـــاً ، متطهراً ، مولوداً ، تركت على عتبتك يأسى . دهمنى صبـــاح البحـــر فى قبلتك" .

راح يقطف بلورة شوق عمره سبعة آلاف سنة ، وانبعث ســـيداً للنحل . لأول مرة لم تستســـلم ، وتترك للقافلة أن تحـــرث دربهـــا ، ثم تتركها للخواء ، ونباح الرياح فى الفراغ ، بعد كل لقاء مـــع حلمـــى . تشبثت برغبتها الأبدية فى المشاركة .. تجمعت تحته شرراً مـــن نيـــازك وشهب لا تذوى ، همت بالطيران ، تلقفتها موجة ســـاخنة .. التقيـــا ، غمرتها رائحة جســـده التى ما عرفتها قط، رغم أنها أدركتها ذات مـــرة بالحس ، حفرت فى جلدها أخاديد وسراديب ، وعششت مثـــل عطـــر قديم، يبث نفثاته كلما تحركت، وتعلمت أن تســـتدعيها بعد ذلك مدى الحياة . جلجلت ضحكة الهواء الحر فوق لجة الموج ، فحفزتهـــا علـــى الانفراط .. ترددت، غاصت ، تغرق رغم السعادة الصاعقة . ارتعشـــت مخنوقةً بما يفور داخلها . قال لها :

ــ انفجرى

انفرطت ناعمة كعسل الظهر الأبيض ، عطـــر الغرفـــة شـــذى انعتاقهما معاً ، وأسكرهما المطر .

هلّ مساء بلا عتمة . قالت : ما كنت أبداً إلا لك . قطرت لـــك

أنوثتى خمراً و لم أذق حـــلاوهّا ، أخفيتها لنرتشفها معاً ، احتفظـــــت فى رئتى بعطر قديم لأنفاسك يوم أن قبلتنى تحت صفصافتنا ، صبغت شراييى للأبد رائحتك وسرت همساً إلى سراديبى. أســـرتك داخلـــى ، وكنـــت أخشى أن يراك الآخرون. لم تزرنى نسمة إلا وكنت قوام هوائــــها ، ولم أعرف ابتسامةً دون أن يمرق وجهك أمامى طيفاً يهطل بالبنفسج مجنحـــاً بأيامنا .. توقفت ساعتى عند آخر عناق لنا، وما عاد الوقت وقـــتى، ولا العالم عالمى، ومع هذا انتظرتك ، وسكنت غيـــابك ، وعرفـــت أنـــك ستدوس الفراق يوماً ، ولم أكن واهمة .. فإذا ما مرق نصل يأس يذبـــح أيامى ، صرخت بك أن تعال .. وأنا أهيب بكل الكائنات كـــى تـــأتى مشتعلاً، توقف بقبلاتك الأبدية زحف الخريف .. وحين كنـــــت أراك وســـط ركام العائلة والناس، لم يخدعنى هدوءك، ولا مزقنى ســـكونك، قرأت المختبئ تحت جلدك ، واستقبلت إشعاع الرغبة المتقافز فى خلاياك، وحدثتك وسط عشرات البشر دون صوت ، ووصلتنى كلماتك حفيفاً لم أعتده معـــك ، لكنى دربت نفســـى عليه ، وتعلمت أن أتلقى المتـــاح طالما لم نمد أيدينا لنغيره :

نمت الأغلال فوق معصمىَّ ، وتوحشت الأدغال ، واستولت على جســـدى ، ساحةً وراء ساحة ، حتى وصلت إلى عنقى ، فــــاختنقت ، وسقطت . لا أريد حياة مكفنةً برايات الموت..

أما تفاصيل هذا الاختناق فهى قصة طويلة ، بدأت مع محـــاولاتى لترويض نفسى على تقبل الأمر الواقع. قصة لم يكن حلمى وحده هـــــو ســـبب المأساة فيها، ولم تكن علاقته الغريبة بأمه التى اســـتهنت بهـــا فى

البداية هى السبب الأساسى ، ولا إلقاء عمق اللوم المستمر علـــى عـــدم إنجابى لصبى يحمل اسم حلمى . لكنى أعترف الآن ، بعد هـــذا العمـــر ، وتلك التجارب القاسية ، أننى استهنت بنهى ذاتها . خلت نفسى قـــادرةً على الحياة ضد رغباتها، بثقة لا أعرف الآن من أين استقيتها. ثقـــة أدت لهذه النتيجة التى وصلنا إليها. لن أغير مما مضى أى شئ ، ولن أســـتهلك أجمل أيام العمر فى اجترار الآلام، فالعمر أمامنا نحكى فيه، ونسترشـــد بما حدث ليساعدنا على بناء حياة عريضة .

فأنا الآن أملك لحظتى ، وربما المستقبل .

احتواها .. اخضر الصمت ، وتندى الضوء كاشفاً أن الكلمـــات كانت له ، وأن رنين الصدى كان مطرقةً لآلامهما معاً، فلم يعرفا مـــن الذى تكلم ، ومن تلقى. امتزج الصوتان فى صوت واحد سرى فى الغرفة التى زارها رذاذ البحر ..

القاهرة فى مايو ١٩٩٧

هوامش

(٣) من شعر جورج سفيرس

(٥) من نفس المصدر

صدر للكاتبة

فى الأدب

١ ـــ السباحة فى قمقم	رواية	دار الغد	١٩٨٨
٢ ـــ رقصة الشمس والغيم	قصص	دار الغد	١٩٨٩
٣ ـــ أجنحة الحصان	قصص	مختارات فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٩٣
٤ ـــ منتهى	رواية	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٩٥
٥ ـــ ليس الآن	رواية	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٩٨

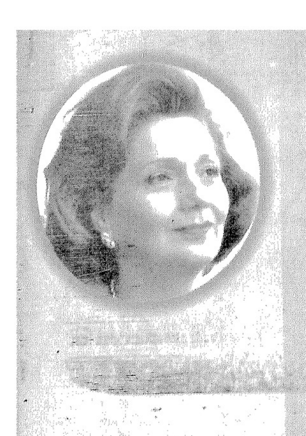
كتب أخرى

٦ ـــ حكايات من الخالصة	مكتب روز اليوسف فى بغداد	١٩٧٦
٧ ـــ المرأة العراقية	بغداد	١٩٨٠
٨ ـــ فلاح مصر فى أرض العراق	بغداد	١٩٨٠

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٧١٣/٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7508 - 0



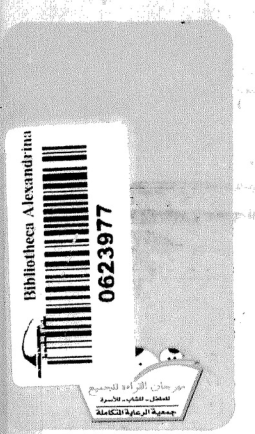
◆ ◆ ◆ ◆

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل: ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الابن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة 2001
مهرجان القراءة للجميع



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب